كيف نكتب تاريخنا القومي..؟

-٤-

الحلقة الرابعة من الاستفتاء :

فيما يلي الحلقة الرابعة من استفتاء المعرفة حول موضوع (كتابة التاريخ القومي) . وفي هذه الحلقة يحاول الأستاذ أحمد الفتيح باسهاب والأستاذ سلامة عبيد بايجاز القاء أضواء على الأجوبة السابقة، - أجوبة الحلقة الأولى - واعطاء بعض الآراء، في توضيح الأجوبة ، والأسئلة ، مع محاولة التوفيق بين الآراء ، أو ابراز نواحي الخلاف ، وعدم الالتقاء .

وتحرير المعرفة الذي يشكر للأستاذين الفتيح وعبيد مجهودهما القيم في استعراض أجوبة الحلقة الأولى . يلاحظ للأصدقاء والقراء أن مجال الكلمة في هذا الموضوع الجليل الشأن لايزال مفتوحاً . وليس المهم أن نقول كلنا قولاً واحداً في كتابة التاريخ ، بل المهم أن نلم بخطر الموضوع ومايكتنفه

من ملابسات ، على أن يكون الفهم حافزاً الى لقاء حتمي حول عمل قومي ثقافي جليل ، ليس (الدين) فيه عامل تشويش لأن الدين بواقعه في تاريخنا ثقافة وأخلاق . وليس الفكر العلمي فيه بعامل تشويش أيضاً ، لأن العلم وحاجات العصر ، قررت كثيرا من الأمور ، وعدلت أو بسطت كثيراً من المفاهيم التي لابد أن نأخذ بها ، اذا أردنا أن يكون الماضي حركة دينامية في تيار الحاضر والمستقبل ، لا بجمود التزام وجمود وهروب .

• لنا ملاحظات على ملاحظات الاستاذ احمد الفتيح كما وردت في مقدمة تعليقه ، نرجئها الى نهاية الحلقات ، بعد استنفار الآراء كلها ، تجنباً للاطالة في تقديم الحلقة الرابعة هذه .

الأستاذ أحمد القتيح

١ — في أسئلة الاستفتاء :

نبدأ من البداية : ماالذي اوجب طرح هذه الاسئلة في الوقت الحاضر ؟ أكان ذلك لتحسين الاسلوب التاريخي وتزيين حواشيه ؟ أم كان لضرورة قاهرة هي محاولة التخلص من شوائب تاريخية كانت ولا تزال تهز كياننا وتهدد مستقبل ابنائنا ... وقد آن للزمان ان يحك صدأها ، ويجلو حقيقتها ..

فالموضوع أن في تاريخنا شوائب تنعكس اشعتها (المدمرة) على حاضرنا فتقسم الشعب العربي الى عصبيات قومية ونحل دينية يستغلها الاستعمار والرجعية في كل مكان ، كما كان ذلك منذ زمن بعيد ولا يزال منطقها الفـاسد يؤثر في سلوكنا افراداً وجماعات ، فكيف السبيل الى التخلص منها ونحن سائرون في طريق الوحدة ؟ وهي من أقوى الاسباب التي تحول دون هذه الوحدة .. والجواب وارد في مجمل الاسئلة : فهي قد طرحت لتطعن في المصادر التاريخية وتحاول ان تحصر هذه الشوائب التي تحمل زيف الرواية واسباب الفرقة ولأنها — أي المصادر — اهتمت بالحكام واهملت نضال الشعب حتى ان السؤال الرابع منها رمى الى اعادة كتابة التاريخ من جديد وفقـاً للتغير المنهجي كما جرى ذلك في بعض البلدان الاشتراكية تخلصاً من عبئه الثقيل ! وأعود فأسأل عن تاريخ اثارة هذه المشكلة : اهي مثارة الآن فقط ؟ ام هي مطروحة على البحث بشكل او بآخر منذ زمن بعيد ؟ فكلما انقضى عهد قام اناس من العهد التالي يسألون عن معنى الاخبار السالفة المروية فيتقبلونها ملائمة او يطرحونها منافية بحسب العقلية السائدة حينذاك . وبعد ذلك يأتي المؤرخون المتأخرون فيدونون مايدونون بالتمحيص النسبي تارة او بالتذوق الشخصي او النفعي تارة أخرى ثم يثيرها اناس لتخدم الحكام في حـــل مشاكل الحكم ، باثارة الكراهية والثارات او لنصر التسامح بين الاديان والمذاهب أو لايجاد تعريف للمواطن غير المصطبغ بلون او عرق او طبقة —— الدين لله والوطن للجميع —— او أن يكون الباحث اراد من اثارتها —— كما هو موقف مجلة (المعرفة) الآن ان يقوم (من وراء اعادة كتابة تاريخنا القومي) بمحاولة علمية شاملة جديدة تنبش التاريخ

بحثاً عن الحقيقة العربية او عن تعريف لماهية (العروبة) منذ النشأة وعن خصائصها الحضارية : تُقوِّم فيها المصادر وتحدد المبادىء التي تبنى عليها (طريقة البحث) لكي تتلاحم حلقات التاريخ العربي — بالرغم عن عصور الانحطاط والانطماس — بحلقة عصرنا وتنفي منها التنقية الشالب الضارة ونخرج من ذلك بنتيجتين: ١) **العثور على حقيقتنا التاريخية عن طريق حسن اختيار الحدث ٢) الاعتماد على هـذه الحقيقة المصطفاة للكشف عن وحدة الشعب العربي وأصالة حضارته وفي ذلك شجب التلفيق على الوحدة وسند من التاريخ ، يضاف الى العون الذي ستجود به جهودنا في عصرنا الحاضر!**

وهكذا نجد أن منطق الاستفتاء جاء عن ضرورات ملحة ـ ايجابية ـ نادى بها المواطن العربي في مختلف العهود للتخلص من الشوائب ولجمع الكلمة ضد الاستعمار القديم والجديد ولتكون (دعامة) العروبة أو القومية العربية في بنائها الحديث . وكذلك فعل الاستعمار — من الناحية السلبية — فقد أثارت مدارسه وعلماؤه المشكلة بطريق التناقض فقلبوا صفحات التاريخ العربي واستنطقت الآثار بحثاً عن عناصر التفرقة وكثرة الدول وإثارة حرب الفئات العنصرية والدينية لكي تجردنا من سلاح المقاومة والابداع وتشغلنا ، بالصراعات الداخلية ، ذلك لأن أكثرية هؤلاء العلماء الغربيين من أثريين ومؤرخين ينتمون الى اليهودية السالفة أو الصهيونية الحديثة وقل منهم من تجرد من أهوائه وسلك المسلك العلمي في تأويل التاريخ أضف اليهم بعض العلماء العرب الذين تنطقوا بآرائهم ، وساروا على هديهم ، فمن الحق اذاً أن تؤخذ قضية التاريخ العربي ـ واعادة كتابته ـ بأخذ الضرورة والجد ، لابل انه — كما قال الاستاذ سليمان الخش — **أصبح لزاماً على أبناء العروبة في عصرهم الحاضر أن يكرسوا المال والجهد الكافيين لانقاذ التـــاريخ العربي من ورطته ووضعه في الطريق القويم الذي وضعت فيه تواريخ العالم المتحضر .**

٢ – في طرح الموضوع :

أراد الأستاذ فؤاد الشايب أن يبرر (طرح الموضوع) وقد قدم الأسئلة السبعة ببعض اللاحظات ، فيها توضيح وتوجيه ورأى ان طرحه قد لايعدو حدود مشكلة ذهنية ، وأود أن اعدد بعض آرائه التي هي أهل للمناقشة على سبيـــل

الملاحظة لا الجدل وان اعاد لها بما يقابلها من رأي ومنها ماهي آراؤه او انه اوردها على سبيل الاستشهاد ولأبدأ بصياغة بعض الاسئلة :

١) الأسئلة في مجملها واضحة لكن ضبط التادية فاتها في بعض الأحوال :

فقد ورد في السؤال الأول التباس حول معنى ـ المتوفرة ـ في قوله (المصادر المتوفرة حالياً) ومعناها الظاهر في النص (الموجودة) وهو المعنى الشائع حديثاً لا المعنى الفصيح ، من الوفر والكثرة ، وقد كرر اللفظ اسماً وفعلاً ثلاث مرات في الاسئلة : الأول والثالث والسادس. كذلك ورد في السؤال الثاني التباس حول معنى ـ الشوائب ـ في قوله (الشوائب التي تحط من قيمة تاريخنا) ومعناها الشائع والفصيح ، العيوب والأدناس لكنها اضطرب فهمها في هذا المعنى خاصة فأبهمت على بعض الاساتذة وصرفوها الى معان اخرى لادنس فيها :

٢) « ان حركة الذين لا أمجاد لهم في التاريخ ، أكثر ديناميةً ، وأسرع عطاء من حركة المهوظين بأمجادهم وما خلفته من قوانين بشرية وتقاليد صارمة » هذا صحيح لكني أخشى التعميم والاحظ ان هذا قد لايصدق في الأقوام التي انشأت حضارات ضخمة ثم انتكست وأنهكها الحكم الدخيل أو الاستعمار فهي بحاجة الى الاستناد على أمجاد الماضي لتتخذ منها قوة دفع للحركة الى الامام لا الى الوراء ـ باستثناء الحركة الرجعية في كل مكان ـ وهذا الذي حفظ لها ديمومتها ومقاومتها للانهيار والا لكان الفناء في اول نكسة . على أن مقياس الحركة ان كان مادياً تكنيكياً فقد صح القول وهو يعني اننا اتخذنا المادية الجدلية مقياساً شاملا وفصلنا مابين (المادة والفكر) وان كان لمفهوم الامة (مقومات اخرى) دفعت بها الى ميادين الحضارة ، فليس القياس في حركة المادة وحدها ولكنه في التفاعل مابين التحتي Structure والفوقي Super - Structure على التعبير الماركسي . واني لاذكر في هذا المقـــام كلمة كان يرددها استاذنا (هالفاكس) استـــاذ علم الاجتماع البحت Sociologie pure في السوربون عام ١٩٣٨ : **« ان أخطر الخطر على المادية الماركسية في أول مراحلها ، هو أن تعتمد على فاعلية التحتية (المادية) وتستعجل زوال الفوقية (الخُلقية) الراهنة بافتراضها مفصولين ، وبينما هي مسترسلة في تغيير العلاقات الاجتماعية وفقا لتغير التخطيط الاقتصادي ، يبرز لها سوء التوازن مابين التحتي والفوقي لأن الفرضية سابقة الأوان وتصبح بحاجة الى استعمال العنف أو التعديل**

لحفظ هذا التوازن ، وهكذا كان شأننا مع الاستعمار ، حافظنا على القيم الانسانية الخلاقة فكانت سلاح المقاومة والتضحية وعليها بنينا قاعدة نهضتنا الحديثة ، فأخل حساب الاستعماريين وانطلقنا من عقالنا . . .

٣ ـ « ومن المؤكد اننا اليوم نفهم تاريخنا اكثر مما فهمه الطبري وابن خلدون » . والاحظ ان الطبري (من القرن الثالث) كتب تاريخه (تاريخ الامم والملوك) باسلوب عصره واستنادا الى طريقة نقل الرواية والاسانيد ، كذلك سلط ميزان النقد الشائع في عصره على مانقل ، وابن خلدون (من القرن الثامن) كتب تاريخ (العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر) وقدم له بمقدمته المشهورة ـ وهي رائعة علم الاجتماع في مطالع القرن الخامس عشر الميلادي : سلك في التاريخ مسالك التصنيف والنقد فجعله في جملة العلوم الموضوعية وذكر من علاقات الدول والمجتمعات ثم سير الافراد المشهورين وعلاقاتهم بالناس ثم عن (حركة) المجتمعات في البراري والقرى والمدن (آلية تكاثف السكان) اوصور وتكون المجتمعات Morphologie Sociale وفي الآداب والعلوم والصناعات ونحوها او المحطاطها (عناصر الحضارة او العمران) مالا عهد للناس بمثله ، فلا يمكن القول اننا نفهم تاريخنا اكثر من فهمهم تاريخهم الا من ناحية واحدة : هي اننا نطبق على (فهم التاريخ) سابقا مانفهمه نحن لاحقا بواسطة تكنيك الطريقة التاريخية الحديثة من تحليل الحادثة التاريخية ونقدها داخليا وخارجيا وبهذا نخالف الدقة العلميـــة ، فلا يمكن ـ كما قال (آرون) ان يكتب التاريخ من الحاضر الى الماضي بل بالعكس ومن هنا تضيع المقارنة !

٤ ـ « ان الدعوة الى اعادة كتابة التاريخ لاتعني تزوير التاريخ . . ان الدعوة كما نتمثلها هي في المقام الاول دعوة الى اختيار الحدث الملائم لخصائص البنية التاريخية » . والاحظ ان اختيار الحدث يعني التلاحه من جاذبتين :

أ ـ ان كان صحيحا من حيث الحدوث فلا اختيار فيه ويصبح سردا لواقعة تاريخية ، هي جزء مما جرى في التاريخ ، ب ـ وكذلك ان كان قد اختير ـ دون الحدوث المطلق ـ من بين احداث متعددة ذكرها الرواة فهو اختيار مرجح ومستحسن إن أيد عملا صالحا للامة ، أما إن كان اختير ليتلاءم مع بنية نحن اخترناها اصطناعا فهو تزوير محبب او مقبح بحسب غاية الاختيار ، وهو تزوير على اي حال ويكون الاصطفاء هادفا حينما ينتهي بانقاذ تاريخنا من الشوائب الـــتي

(دست) فيه لاغراض مذهبية او سياسية وذلك بعد دراسات طويلة تقرب الحدث من صحة الوقوع ، وفي هذه الحدود تفهم اختيار الحدث الملائم .

٣ ـ اجابات المستفتين :

بعد هذا التمهيد القصير اود ان استعرض اجابات الاساتذة المستفتين في خطوطها الكبرى ، وهدفي من هدفهم في البحث عن الحقيقة في هذه القضية (المعضلة) فالاحظ منذ البدء انهم جميعا استحسنوا اعادة كتابة التاريخ العربي وتسليط الاضواء الحديثة عليه بل انهم وجدوا في ذلك ضرورة قوميـــة وها اننا الخص وجهات نظرهم في عناصر الموضوع المطروح من الزوايا الآتية :

١ ـ مدة التاريخ العربي .

٢ ـ مادة التاريخ (المصادر والشوائب) .

٣ ـ الصيغة التاريخية (التاريخ والملوك ، التاريخ والتعبير المذهبي)

٤ ـ الطريقة التاريخية : المبادىء والمنهج .

٥ ـ الفوائد العملية من اعادة كتابة التاريخ .

ولو جاز لي ان اصنفهم على (الاتجاه) لقلت انهم على اربع نظريات :

أ ـ نظرية (الجنس العربي) الحضارية ويمثلها الاستاذان سليمان الخش وعزة دروزة .

ب ـ نظرية (الاسلام العروبية) الحضارية ويمثلها الاستاذ محمد المبارك .

ج ـ نظرية (القومية العربية) الحضارية ويمثلها الاستاذان نور الدين حاطوم وشبلي العيسمي .

د ـ نظرية (التحليل الماركسي) الحضارية ويمثلها الاستاذ ياسين الحافظ .

واما الاستاذ زكي الارسوزي فقد اهتم بضوابط (المنهج في تأليف التـــاريخ العربي) هذا وقد كررت (صفة) حضارية لانبيء عن الاتجاه السليم الذي اخذ به الاساتذة كلهم عن محتوى التاريخ ، وعن التجديدية في ادراك التاريخ وسير الحضارة في أطره ولأستعرض الآن النقاط الخمس التي اشرت اليها سابقا :

اغلبية الاساتذة على ان تاريخ الامـة العربية (المتمد) يعتبر في حدود القرن الخامس الميلادي (قبل ظهور الاسلام) وما بعد الاسلام حتى يومنا هذا ، وهو التاريخ المتقول المدون في القرنين الاول والثاني الهجريين وما بعدهما وعليه انصبت فكرة (اعادة الكتابة) واما ماقبله فهو البحث والتحقيق ، وتحت الاكتشافات الاثرية .

أما الاستاذان سليمان الحش ص ١٢ مجلة المعرفة عدد ٤١ وعزة دروزة في ص ٣٣ من مجلة المعرفة عدد ٤١ فلهما رأي آخر في هذه المدة . وقد اعلن الاستاذ الحش رأيه هذا بقوله :

« أود أن اتقدم للقراء بالمدلول الذي تعنيه « عبارة التاريخ العربي » عندي وعند الكثيرين من ابناء العروبة ، ذلك المدلول الذي يساعدني في الاجابة ويضع خطاً واضحاً بين ادراكنا للتاريخ العربي وبين ادراك غيرنا له .

فالتاريخ العربي عند غيرنا هو تاريخ الامة العربية الناطقة بلغة الضاد او بلسان قريش والممتد من القرن الاول او القرنين الاولين اللذين سبقا الاسلام حتى يومنا هذا .

وهو عند هؤلاء تاريخ سبأ وحمير والمناذرة والغساسنة ثم تاريخ الدول الاسلامية المتعاقبة، وهذه الحلبة من تاريخ العرب هي عندنا (جزء) من تاريخ الامة العربية وليست كله ، فتاريخ العروبة عنـــدنا يمتد ضمن الاطار الحضاري الذي استقر فوق الرافدين وسواحل الشام وسهولها وسهول وادي النيل وسهول اليمن وجبالها وسواحل بلاد المغرب وسهولها ... ويمتد اكثر من خمسة آلاف عام قبل المسيح حتى يومنا هذا . . . هو تاريخ اقوام انحدروا من اصل واحد هو الذي تحدر منه عرب الجزيرة العربية ولهم الخصائص الحضارية نفسها ولهم لهجات متقاربة مشتقة من مصدر واحد كان من اشملها اللسان القرشي الذي نزل به القرآن الكريم وحمله العرب الفاتحون المسلمون الى اخوانهم من كلدانيين وآشوريين وبابليين واقباط وبربر فسودوه على اللهجات والالسنة المحلية وكانت لهم الغلبة اللغوية منذ

القرن السابع الميلادي حتى يومنا هذا .. لذلك فاننا عندما نتحدث عنها ممثلة للتاريخ العربي انما نتحدث عن (العروبة) بمفهومها الجنسي لابمفهومها اللغوي الفرعي . . . »

وليسمح لي الاستاذ ان ابدي على ذلك بعض الملاحظات :

(أ) ان الذين كتبوا التاريخ العربي واعتبروا بدأه بالقرن الخامس الميلادي لم يقولوا ان لا تاريخ للعرب قبله وانما دونوا ما وصلهم من اخبارهم (المنقولة او المكتوبة) فقط وذكروا ان اقواما قد سلفوا كشفت عن آثارهم الحفريات وتحدثت عنهم الكتب المقدسة وتولى التفصيل عن اخبارهم الكهان والأحبار ، ولما ظهر الاسلام شغل الناس عن الاجناس والاقوام بالدين الجديد — دين العالم — لايميز بين عربي وعجمي .. (ان اكرمكم عند الله اتقاكم).. وبقي هذا المدلول على التاريخ العربي — المبتور الرأس — حتى ظهور مبدأ القوميات والتوسع الاستعماري في الشرق وكتابات الأثريين والمؤرخين والمستشرقين .

(ب) ان الاخذ بالنظرية التي اعتمدتموها عن (الاصل الواحد واللغة الواحدة — الأم — وعن الخصائص الحضارية المبنية على مفهوم — الجنس — وان بين الاقوام والشعوب التي عاشت فوق ارضنا العربية منذ اكثر من خمسين قرنا ، خيطاً واحداً يربط بينها جميعا ، هو الروح العربية ، وان اليقين يكشف عن — شجرة العروبة — التي ما تزال تورق وتثمر عبر القرون حتى يومنا هذا) وان (جزيرة العرب ترسل عبر التاريخ موجات استقرت في الهلال الخصيب ووادي النيل وشمال افريقيا قبل الاسلام وبعده) كما يقول الاستاذ دروزة ، كل ذلك وغيره يصلح ان يكون فرضية مؤسسة Hypothèse de base بالنسبة للتاريخ العربي القديم — الموجات السابقة — او على حد تعبير الفلاسفة انه (موجود بالقوة) لم يتم خلقه واما (الموجود بالفعل) فهو تاريخ الموجة العربية الاخيرة اى الدول العربية قبل الاسلام والحضارة الاسلامية العربية المختلطة التي غطت اكثر من المدى الجغرافي الحضاري الذي حددتموه واستقرت هذه الحضارة في تكويننا التاريخي ، وحددت لها هذا الزمن من تاريخنا ، وهي الآن موضع البحث التاريخي المقصود وعليها تدور لتخليص تاريخنا من شوائبه، على ان لايمنعنا ماقدمت من وصل الحلقات السالفة بهذا التاريخ على سبيل الربط لا على سبيل الدمج ، ريثما يتم تكوين البديل البادىء السحيق .

(ج) ان الحضارة السومرية التي نشأت على الفرات الاسفل منذ اكثر من خمسة آلاف عام واظهرت الحفريات صلتها بالحضارات المجاورة براً وبحراً وبنا — نحن ابناء العروبة من القرن العشرين الميلادي — كما يقول الاستاذ ، ان هذا التلاحم التاريخي يصدق وجوده في اى مكان

من الارض قامت عليه حضارات قديمة .. وما الغرابة في ذلك ؟ ومن ينكر ذلك ؟ ولكن وسائل البرهان الكلي مبهمة الآن وستقف منها كما وقف البحتري من ايوان كسرى حين قال :

يغتلي فيهم ارتيابي حتى   تتقراهم يداي بلمس!

لقد سبقتنا النظرية (السامية) عن اصل اللغة العربية السامية وعن اصل الانساب العربية السامية وتبناها الاثريون الغربيون وعلماؤهم ، وبقي ان نثبت زيف رواياتها اولا ثم نبني حقيقتنا التاريخية الجديدة على ماستنطق به الحفريات وتتكشف عنه المخطوطات ثانيا . وقد احتاط الاستاذ الحش لكل ذلك حين وصف تاريخنا القديم بأنه (غير مفهوم او مدسوس فيه وانه سيبقى عرضة للظن والتأويل مالم يقم فوق ارض العرب ، من ابناء العرب ، من يعيدون النظر في مجمل ما كتبه العلماء والاثريون الغربيون) .

ان جدارة نظرية (الجنس العربي) هو في انها تحاول ان تسحب التاريخ العربي اكثر فأكثر الى الوراء السحيق لتقف على رأس الخيط العربي وتود ان تربط حلقات السلسلة التاريخية القومية لتتابع النضال ضد النظرية السامية ، ومثلها الاعلى من كل ذلك هو « ايجاد تاريخ عربي متلاحم ، ترتبط فيه الاصول العربية بفروعها برباط حضاري ثقافي جنسي .

كذلك فأن قيمة هذه النظرية تبدو وكأنها تجعل من الحضارة العربية عملا ابداعياً وتراثاً مشتركاً بين العرب المنطلقين من الجزيرة العربية وبين اهل البلاد الموجودين فيها قبل مجيء العرب اليها ، وهذا من اهم عناصر الوحدة القومية التي تصير تقارب الفوارق في مضمون الحضارة المختلطة — لأنها تشارك وتفاعل يتسيجان حتى كأنها لون واحد امام المؤرخ ، لأن الاصل العربي للجميع واحـــد ! وهذا ، بلا شك ، يخدم مفهوم الوحدة العربية التي هي مبتغى الجميع في زمننا الحاضر .

٢ – مادة التاريخ : المصادر والشوائب

آ – المصادر : أجمع الاساتذة المثقفون على ان مصادر التاريخ العربي جمة ومتنوعة ولكنها بحاجة قصوى الى النخل والتصنيف والنقد والتنقية ، الى نظرة واعية وعين ثاقبة سواء في ذلك تاريخ ماقبل الاسلام وما بعـــده ، واليكم مجمل اجاباتهم مع التنبيه الى انهم لم يتقيدوا بتسلسل الاجابات مع الاسئلة وقـــد يهملون جزءاً من عناصر الموضوع او يُجملون سؤالين باجابة واحدة . .

١ — **الحش** : ففي التاريخ القديم دوّن الاثريون ملاحظاتهم وقام العلماء المؤرخون بكتابات وافرة عن تاريخ العرب في تلك الحقب السحيقة التي سبقت الاسلام .. واما عن التاريخ

الذي اعقب الاسلام فلقد ابدع العرب في هذه الحقبة انواعا جديدة في التاريخ لم تكن عند غيرهم من الشعوب كما انهم أوجدوا فلسفة للتاريخ تعتبر اول محاولة من نوعها في العالم . . ومن الجدير بالذكر ان هـذه المصادر المتوفرة عن تاريخ العرب والكثيرة التنوع لاتصلح لأن تكون في مجملها تاريخا حقيقيا للعرب . . وما بين تاريخ قديم غير مفهوم او مدسوس فيـه ، وتاريخ اسلامي تلعب فيه الاهواء السياسية ضاع الكثير من معالم التاريخ العربي .

٢ — دروزة : ان المصادر القـديمة متوفرة حالياً عن التاريخ العربي مزيجة من الحقائق والخرافات والصدق والكذب.. والاختلافات المغرضة المصبوغة بصبغة الاختلافات السياسية والدينية .. ان ماوصل الينا من هذه المصادر غيض من فيض مما كتبه العرب ... ان كثيراً مما يمكن أن يكون مصادر صالحة مايزال مخطوطاً ..

اما بالنسبة للتاريخ القومي الحديث فان هناك كتباً كثيرة وضعت في مختلف نواحي النهضة العربية في مختلف أقطار العرب .. مذكرات ، تقارير ومجلات وصحف عربية وأجنبية .. فهي أيضاً متوفرة ومن الممكن أن يكون بعضها كتب بأقلام ذات مآرب وأهواء ، وان يكون فيها تشويهات وتبجحات أو مغالطات ...

٣ — الهيسمي : نجد في الكتب العربية القديمة التي تعتبر المصادر الاساسية لكتابة التاريخ العربي في العصر الحاضر ، تأثيرات مختلفة غير موضوعية ، قد تكون ذاتية أو سياسية أو دينية أو قبلية أو شعوبية ... وعندما يكتب المؤرخون المحدثون عن تاريخ العرب قبل الاسلام يصورون عرب الجاهلية في تلك المرحلة بصور قاتمة سوداء .. وينسون الحضارات الراقية التي ظهرت في الجزيرة العربية .. فهناك تناقضات واضحة في الكتاب الواحد وأحياناً في الموضوع الواحد بل وأحياناً أخرى في تقييم الشخص الواحد .

٤ — حاطوم : التراث العربي في التاريخ غزير موفور على اختلاف انواعه وأدواره وهو جزء لايتجزأ من التراث الانساني ... ومن هذا التراث التاريخي ماله صفة التاريخ العام يعالج قصة الحضارة الانسانية منذ الخليقة حتى عصر المؤلف ومنها مايتناول التاريخ الخاص فيحتوي تاريخ البلاد العربية الاسلامية جمعاً أو قطر معين أو دولة اسلامية .. أو سيرة .. أو رحلة .. ولكن هذا المجهود العلمي الكبير بحاجة الى الحفظ والبعث والاحياء والاخراج بحلة قشيبة .. ان هذه المؤلفات تضم الكثير من المعلومات مما هو عميق وماهو سطحي ضحـل .. أو خرافي أو اسطوري وغريب ومكرور .. وتاريخنا العربي تأثر بمؤثرات مختلفة شوهت حقائقه وفسرته في الغالب تفاسير خاطئة ان لم تكن مغرضة .

٥ ـ المبارك : ان المكتبة العربية غنية بالمصادر التاريخيـة وهي كثيرة ومتنوعة ومتفاوتة في درجة الثقة وهي نوعان : كتب معروفة على انها كتب تاريخ كآثار الطبري والمسعودي ... وابن خلدون ... وكتب الطبقات والتراجم وهي كثيرة جدا ومنها كتب هي مصادر تاريخية ككتب الادب وكتب الفتاوى الفقهية وكتب الحسبة والرحلات ... ان التاريخ القومي يشتمل على وصف الاتجاهات الصالحة والصفات الطيبة والمكاسب الحضارية العامة ... كما يشتمل على المساوىء والظاهرات التي تعتبر امراضا اجتماعيـة واسبابا للانحطاط او الهلاك كمظاهر الترف في العصر العباسي وفي اواخر العصر الاندلسي وكالاستبداد الفردي الذي ساد في بعض العصور ..

٦ ـ الحافظ : المراجع المتوفرة حاليا تتحدث عن التاريخ العربي وكأنه كُومُ احداث ومعلومات واخبار وترى الى التطور التاريخي وكأنه مجرد قدر يحمل الحظوظ الحسنة والسيئة وهكذا تفتقد طريقة البحث والعرض في هذه المراجع مايمكن تسميته بقوة التجريد . إن ضرباً من (المكارثية) تشل وتخنق اي محاولة علميـة وموضوعية لدراسة التاريخ العربي وهذه (المكارثية) دينية الى حد كبير وقومية بورجوازية الى حد ما . وفيما عدا بعض المحاولات الجديدة وابحاث عدد قليل جدا من المستشرقين فان كتب التاريخ المتداولة والرائجة ماتزال مكتوبة بعقلية القرون الوسطى مضافا اليها بعض المحاولات القومية البورجوازية ضيقة الافق ومتعسفة تحاول « تمخ التاريخ العربي » لاستخراج القومية العربية من الصراع مع الشعوبية ... او استجرار الاشتراكية من ظاهرات معزولة واستثنائية اوهامشية ...

وهكذا نرى ان الاساتذة جميعهم اتفقوا على النقاط التالية : ١ ـ المصادر التاريخية موجودة كثيرة ومتنوعة لكنها بحاجة للعين الثاقبة والنظرة الواعيـة ٢ ـ المؤرخون العرب متأثرون بالخلافات الدينية والسياسية والشعوبيـة ٣ ـ المؤرخون الغربيون الاثريون والمستشرقون الا قليلا منهم كانوا عرضة للدس والتلفيق والنية السيئة .

ب ـ الشوائب :

ماذا يقصد طارح السؤال بقوله : ماهي الشوائب التي تحط من قيمة تاريخنا والتي ينبغي التخلص منها ؟ فالشوائب هي « العيوب والادناس والاهوال » ويمكن تصور وقوعها في مرحلتين من التاريخ العربي المعتمد أ ـ مانسب الى العرب من افعال ومثالب تحط من قدرهم

حين كانوا في عهد الجاهلية وكانت لهم تقاليد مترتبة بحكم العصبية القبلية وأكثرها قد وصفها القرآن الكريم وذمها وزاد عليها بعض الادباء والكتاب الشعوبيين كوأد البنات واختلاط الانساب وفساد الحياة الاجتماعية الى آخر مانهى عنه الدين وتقاذف به المجتمع المختلط وخاصة المجتمع الديني الجديد . ب ـ مآخذ الانانية التي انشأت عن السلطة بين العصبية القبلية ودعاة الدين وما ارتكب حول ذلك من مقاتل الخلفاء والغدر بالاقربين والفتك بالخصوم .. ثم مما تبع ذلك من فساد الحضارة في الحجاز عهد الامويين ، وبغداد والاندلس عهد العباسيين وفروعهم ... فان كان هذا هو المقصود من (الشوائب) فانه وأكثر منه واقع في تواريخ الشعوب الغربية والشرقية ويكفي أن يستقصي أحدنا تاريخ احدى الامم الراقية ليتحقق من أن العرب قد لايساوونهم أو ينقصون عنهم . ولكنك يمكن أن تجد التعليل في أسباب ثلاثة : أ ـ لقد ذمها الدين (اوضاع الجاهلية) وذمه مصدق مطلق ب ـ انها دست على التاريخ من جانب الشعوبيين حين اصابوا منا منفذا (الدولة العباسية وفروعها) ج ـ من جانب الاستعمار الغربي الحديث للتهوين من تاريخ الاقوام المستعمرة وقبول مايجلب اليهم من حضارة .. فما هي الشوائب التي اختصصنا بها وحدنا والتي ينبغي التخلص منها ؟ لننظر مافهمه الاساتذة المستفتون من هذا السؤال :

١ — الحش : ان أهم خطوة يجب أن يخطوها المؤرخ العربي الحديث لتخليص تاريخنا العربي من شوائبه هو العمل على ايجاد تاريخ عربي متلاحم مترابط فيه الاصول العربية بفروعها برباط حضاري ثقافي جنسي... أما التاريخ الذي جاء بعد الاسلام فان أكثره كتب بعقل غير علمي وبنظرة غير شعبية .. ان المؤرخين العرب الذين جاؤوا بعد الاسلام قد نظروا الى كل ماجاء قبل الاسلام نظرة احتقار .. يبررون قيام الثورة بالفساد الذي كان مستشريا قبلها .. ثم ان تاريخ العرب بعد الاسلام قد انشعب في أعقاب الخلافة الى شعبين ضخمتين لكل واحدة منهما فلسفتها ومبادئها .. تملي على المؤرخ منحى معيناً .. الهاشميون والامويون والعباسيون . ان الثورة على عثمان ومقتل الحسين والتناحر حول الخلافة حوادث ذات مدلول اجتماعي ، على العقل العربي المعاصر أن يمارس برودته العلمية حولها ..

٢ — دروزة : اذا كان يقصد به الشوائب التي تحط من قيمة مصادر التاريخ عندنا والتي ينبغي التخلص منها فقد لمحت الى ذلك سابقاً (قسم المصادر) أما اذا كان يقصد به مايمكن ان يكون سيئاً في تاريخنا القديم او الحديث من حقائق مفجعة في الحكم والسياسة والاخلاق والاختلافات والاهواء والفتن والانحرافات فأني لاارى بأساً من طرحه من الكتب المدرسية ...

٣ — العيسمي : أما السبب الثاني فيكمن في الكتب العربية القديمة التي تعتبر المصادر الاساسية لكتابة التاريخ العربي في العصر الحاضر والوقع اننا نجد في هذه الكتب القديمة تأثيرات

مختلفة غير موضوعية قد تكون ذاتية او سياسية او دينية او قبلية او شعوبية . . من ذلك انهم (المؤرخين المحدثين) عندما يكتبون تاريخ العرب قبيل الاسلام يصورون عرب الجاهلية في تلك المرحلة بصورة قاتمة سوداء ... كانوا يئدون بناتهم وتقوم حياتهم على الغزو والسلب ... لبيان فضل الاسلام العظيم على العرب وفضله لايحتاج الى الحط من قيمة عرب الجاهلية .. وننسى الحضارات الراقية التي ظهرت في الجزيرة العربيــة . . . وننسى تطور الشعر الجاهلي . . . ونتجاهل الحنفية . .

٤ ـ حاطوم : وتاريخنا العربي تأثر بمؤثرات مختلفة شوهت حقائقه وفسرته في الغالب تفسيرات خاطئة ان لم تكن مغرضة .

٥ ـ المبارك : وعلى هذا فليست اعادة كتابة التاريخ الا لتحريره من سطحية عصر الانحطاط ومن فقدان الوعي الذاتي ومن دس المؤرخين الأجانب أو جهلهم ومن التقليد الاعجمي للنظريات الاجنبية الغربية ...

يشتمل التاريخ القومي على المساوىء والظاهرات التي تعتبر امراضاً اجتماعية واسبــابا للانحطاط أو الهلاك كمظاهر الترف في العصر العباسي وفي اواخر العصر الاندلسي وكالاستبداد الفردي الذي ساد بعض العصور .

٦ ـ الحافظ : يصبح الارتداد نحو الماضي وسيلة لرد الاعتبار امام انفسنــا وأمام الآخرين ... ولكن ثمة انزلاقات محافظة ينبغي ان نحذر منها ، ليس في التاريخ شوائب تخجلنا فنهرب منها أو مفاخر تبهرنا وتجرنا الى الوراء لنلتصق بها ... تاريخنا الحقيقي هو ماضينا بكل جوانبه واحداثه ... ان عبادة الماضي سد أمام المستقبل .. ان الحرص على ازالة (شوائب) الماضي يشير الى نزعة محافظة في فهم التطور التاريخي ... ان سير التاريخ ليس حركة هزازة الى امام ثم الى الوراء كي نكون بحاجة للتخلص من شوائب الماضي ، بل على العكس ان دراسة جميع جوانب التاريخ تعتبر وسيلة لرؤية أكثر عمقاً وأكثر شمولاً للحقيقة التاريخية ..

ومن استعراض هذه الآراء لانجد اجابة تامة للسائل ، فالأستاذ الخش جعل تخليص تاريخنا من الشوائب في « ايجاد تاريخ عربي متلاحم » وهـذا معنى جليل ، وهل اكثر نقصاً علينا من ان يعيش العرب بتاريخ (مبتور الرأس) أو مشوه وضعه لهم الأجانب ؟ ولكن هذا ليس من الدنس الذي يجب التخلص منه ؛ أما بقية الأساتذة فبعضهم لم يجب على السؤال أو انتقد الكتاب المحدثين فيما نقلوا ،

وخلاصة القول أن السائل أراد حتما معنى (العيوب والأدناس) ممـــا قيل عن مطاعن العرب ومثالبهم كما قلنا سابقاً ، لأنها وقعت في بيئة جاهلية تهتم بالشرف والعار أو بمحيط ديني ينهى عن السوء ويود أن يصب الناس في (قوالب) محددة أو أنها — وهو الأغلب — عابها غيرنا أو عبناها لأنها لم تعد تنسجم مع الحضـــارة وبالتالي لم تعد تنسجم مع شعورنا وتفكيرنا . وأما رأيي الشخصي فأني اعتقد أنه يجب أن تنحصر الشوائب في تلك الحزازات والخلافات التاريخية التي لاتزال تؤثر في سلوكنا الاجتماعي والقومي من مثل الخلافات الدينية والطائفية والعنصرية فهي ضد تعاليم الدين منذ ظهر ، وضد الوحدة القومية التي نسعى اليها ، وضد العلم الذي قلب مفاهيم الكون والحياة .

٣ — الصيغة التاريخية :

تحت هـــذا العنوان سأجمل السؤالين الثالث والرابع (تاريخ الملوك والشعب — التاريخ والتعبير المذهبي) وأجوبتها :

آ — الابطال والشعب :

بعد ان بحثت في مدة التاريخ ومادته (المصادر والشوائب) لا بد من الوصول الى هيكل البناء الذي وضع فيه المؤرخون العرب تلك المواد ، الى الصيغة النموذجية التي كتبوا عليها التاريخ ، فهـل كانت لهم صيغة مفضلة ، لهم الحرية في اختيارها ؟ ام كانت لهم في ايامهم تلك صيغة ملزمة لا اختيار لهم فيها لأنها ناتجة عن طبيعة الاشياء وهي التي اتخذها مؤرخو اليونان والرومان والفرس ، هي تجميع الحوادث والحروب حول ابطـال وملوك وخلفاء وقواد ودورانها حول محاورهم وعنونتها بأسمائهم . لكنك لو جمعت ما كتبوا في الحواشي دون (المتن) لوجدت ان أكـثره لا يتقيد بالبطل ويتشعب على مشاركة الجماهير بحسب مواضيع التاريـخ

ولكن التحركات الجماهيرية تعود فتندمج في سيرة البطل دون ابرازها بشكل منفصل محسوس .

والمهم الآن ان نتحقق ما اذا كانت هذه الحركات الجماهيرية تأخذ شكل التيارات الاجتماعية والثورات الجذرية المنظمة المنطلقة في عصرنا الحديث ام هي طوالع من العصيان والتمرد ليس لها اثر واضح واتجاه معين ، لقد فسر بعضهم حروب الردة وواقعة الزنج وثورة القرامطة بحركات منظمة لها مبادئها واهدافها ولكن اخطر الخطر ان نقيس قياساً مع الفارق يخرج المقارنة عن حدودها . ان حروب الردة قطعت الزكاة عن بيت المال حتى سميت بعض منها حروب مانعي الزكاة ولكنها في هيكلها الزماني رمت الى اعادة الجاهلية الاولى وامتيازاتها (١) فلا يمكن تسميتها بالحركة الجماهيرية ، على انه بعد مرور قرن او قرنين على الحركة الاسلامية وانتشار الثقافة المختلطة لابد ان كثيراً من المنظمات السرية ومن الحركات الشعبية انطلقت وثارت على بعض المؤسسات الاجتماعية وا كثرها مما خالف الناس به الدين فقامت ثورات كثيرة كان ا كثر منظميها يدعون الى العودة الى اوامر الدين في الحقوق والمساواة مع تصبيغ حركاتهم بمطالب اصطلاحية فلسفية ، واعتقد ان ألمع هذه الحركات هي (القرمطية) التي دامت زمناً طويلا وانتشرت في كثير من البلدان الاسلامية (خراسان ، سورية ، اليمن) ذكر المؤرخون انهم قطعوا الطريق على الحجاج ومنعوهم من اداء الفريضة وتجاوزوا فنقلوا (الحجر الاسود) من مكة الى الكوفة اذ بقي فيها اثني عشر عاما ثم اعيد الى مكة ..

الى مثل هذه (الازمات الثورية او المنعطفات التاريخية) كما يقول

---

(١) « من كتاب موجز سيرة خالد بن الوليد المخزومي » طبعة دمشق ١٩٣٥ للمرحوم المجتهد الحر الشيخ محمد سعيد العرفي مفتي الديار العراقية ، وقد أثبت فيه على أوثق المصادر ان وفاة خالد بن الوليد ودفنه كانا في المدينة وليس في حمص ، وأن المقام المعروف باسم خالد في حمص هو للكيماوي الشهير خالد بن يزيد بن معاوية ، وهذا وأمثاله من جملة المشاكل التي يواجهها « التاريخ الجديد » والله أعلم .

الاستاذ ياسين الحـــافظ تلفت انظار المؤرخين بشرط ان تدرس بمقاييس العصر الذي نشأت فيه وتفحص فيها ارادة الجماهير واهدافها حينذاك . وكل ما نبغيه ان لانقع في المزالق المعجـلة للحركة ، والسقوط ! ولننظر الآن آراء الاساتذة :

١ — الحشن : « فتاريخ العرب المكتوب فيه الكثير عن تحركات الملوك كما فيـه الكثير عن اوضاع الشعوب وذلك شيء طبيعي في كل تاريخ قديم او حديث ... ان التاريـخ لهؤلاء الاشخاص في العالم هو تاريخ الأمم والانفعالات الفكرية والسياسية في عصرهم . والتاريخ لحياة هؤلاء في التاريخ العربي الاسلامي انما هو تاريخ للشعب العربي وتحركاته الفكرية والسياسية في عصرهم .. والتاريخ العربي لم يقتصر على تاريخ حياة الافذاذ من ملوك وقواد بل شمل فيما شمل حياة الكثيرين من طبقات الشعب المختلفة ... على ان هـــذا لايعني ان المؤرخين العرب لم يهتموا اهتماما خاصا بحياة الملوك والقواد ، فالقد جرى المؤرخ العربي على نسق المؤرخين المعاصرين له في كل من روما واثينا والهند ... وتلك طبيعة العصر الذي عاشوا فيه .. ولكن المؤرخ الحديث ، الذي يعيش في عصر أصبح للشعب فيه الفوز الكبير ، هذا المؤرخ هو الملزوم ان اهتم بتاريخ الملوك والامراء أكثر من اهتمامه بحياة الشعب .

٢ — دروزه : اذا كان السؤال الثالث هو في صدد صفة مصادر التاريخ المتوفرة فقد يكون القول انها تقتصر على تاريخ الملوك والحـكام دون الشعب صحيحاً بقياس غير يسير ، باستثناء التاريخ الحديث بعض الشيء ، الذي احتوى بعض ما كتب فيـه الكثير من حالات الشعب العربي في مختلف اقطاره غير ان من الحق ان نذكر في ثنايا المصادر المطبوعة والمخطوطة وسواء منها التاريخية ام الادبية ام الدينية أشياء كثيرة جداً عن الشعب العربي ومختلف وجوه حياته .

٣ — العيسمي : كما نلاحظ فيهـــا (الكتب العربية القديمة) الاهتمام بالاحداث السياسية والحربية المثيرة وبسير الملوك والافراد مع اهمـــال تاريخ الشعوب والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وان ذكر بعضها هذه الاوضاع واشار اليها فبصورة عابرة وبشكل خاطف وموزع هنا وهناك مما يشكل في حد ذاته صعوبة كبيرة لكتاب التاريخ في الوقت الحاضر وبخاصة اولئك الذين يستهدفون سرعة الانتاج والتأليف .

٤ — حاطوم : ولكننا اذا اخذنا التاريخ العربي كلا واحدا وجدنا انه لم يقتصر على تاريخ الملوك دون الشعب بل اخـــذ من كل منهما بطرف واستخدم المادة التاريخية حسب مسلمات عصره الثقافية .

الثقافة العربية كانت عامة شاملة في المجتمع العربي ولم تكن قاصرة على طبقة دون اخرى بخلاف الوضع في بعض الامم ... ان مؤرخينا القدامى قد اهتموا بسائر المظاهر الحضارية واحسنوا وصفها في ادق تفاصيلها ... ليس من الحكمة في شيء ان نطلب من مؤرخينا القدامى الطرق والمناهج والاتجاهات التي نتبعها ونملكها في القرن العشرين ...

٥ ــ المبارك : أما ما يقال من ان التاريخ المدون هو تاريخ الملوك والرؤساء فلا ينطبق على تاريخنا ... «أن اول مادون من التاريخ عندنا لم يكن سيرة ابي بكر وعمر والخلفاء وانما كان كتب المغازي والفتوح .. فكان اهتمام الناس بما حصل ايام عمر مثلا من فتوح او من خطط سياسية او اقضية او مشكلات .. ولذلك لم تكن تلك المؤلفات موضوعة لخدمة الخليفة عمر او للاشادة به بل كانت مشتملة في كثير من الاحيان على ما كان يوجه من نقد للخليفة او الوالي من قبل الناس ولاسيما من اهل الرأي من الصحابة والتابعين وعلماء الامة ، واذا كان قد حصل هذا في العصور المتأخرة ..

٦ ـ الحافظ : ان التاريخ هو تاريخ الشعوب والملوك معا، لقد اهملت كتب التاريخ المتوفرة لدينا الحديث عن دور الشعوب والمكان الذي كانت تقف فيه حيال الاحداث التاريخية الكبرى ، ان هذه الطريقة في البحث تمثل ــ على الصعيد الايديولوجي ــ وجهة نظر الطبقات التي يمثلها ويقف على رأسها الملوك، هذه الطبقات ترى الشعوب مجرد كم « أو أداة يسوقها الزعماء وفق رغباتهم ... في الازمات الثورية تلعب الجماهير الشعبية دوراً نشطاً خلاقاً في صنع التطور وفي صنع الانظمة الجديدة وفي هدم الأنظمة القديمة ... ان المؤرخ العربي التقدمي مدعو الى تسليط الضوء بخاصة على المنعطفات التاريخية التي ساهم بصنعها نشاط الجماهير الخلاق .. »

وبهذا نجد أن مؤرخي العرب كغيرهم من مؤرخي العالم المعاصرين لهم سلكوا اسلوب التأليف المختلط فجعلوا صيغته موزعة بين الملوك والشعوب ، الابطال ومن حولهم الناس ، وربما بقي ذلك حتى أيامنا هذه لأن مؤرخينا المحدثين نقلوا الصورة القديمة ولم يتيسر لهم الاندماج بالأساليب التحليلية الحديثة لصعوبة ذلك وامتناعه على أكثريتهم لأنهم كما قال الاستاذ العيسمي « يستهدفون سرعة الانتاج والتأليف »

ب ــ التاريخ والتغيُّر المذهبي :

مامعنى التاريخ الا أن يكون تصويراً للماضي ونقلا للحقيقة على حالها ــ حسنة أو قبيحة ــ حتى يكاد بهذا الوصف ان يدخل في زمرة « العلوم »

ويطبق على حوادثه التكنيك الذي يطبق على الحوادث الطبيعية مع خـــلاف في نوعيّة الحادث . فما معنى قول السائل « تجري في بلدان كثيرة محاولات لاعادة كتابة التاريخ وفقاً للتغيّر المذهبي الذي تناول شكل المجتمع ... أفلا ترون ضرورة ذلك بالنسبة لتاريخنا العربي ؟ » هل يفهم من ذلك أن التاريخ يمكن تبديل حوادثه بعد ثبوت وقوعها ، بشكل ما ، بحسب تبدل المذهب الذي اتخذناه ليكون منطبقا — أي الماضي على الحاضر — فلا يقع التناقض بينها ، حاضرنا حديث موجه في جميع عناصره الاجتماعية وعلاقاته الاقتصادية وماضينا غاطس في ينابيع التقاليد القديمة والأفكار الرجعية التي تؤخر سرعة الانتاج وتبطيء حركة التقدم ... أم هل يفهم منه ان نضع لتاريخنا (فلسفة) نفترض منهاسيراً تخطيطاً منذ نشأته — خاصاً أو عاماً — وحينا نكتبه مجدداً (نفسر) الحوادث وتفسّرها لتطاوع تلك الفلسفة دينية كانت أم اجتماعية أم مادية اقتصادية .. لننظر آراء الاساتذة :

١ — الخش: النظرة الماركسية للتاريخ والحياة هي وحدها التي تحمل أتباعها على اعادة النظر في التاريخ وفقاً لمبدأي الديالكتيكية المادية والمادية التاريخية وانصار هذه النظرية وأتباعها ، قد عادوا لتاريخ الشعوب التي استطاعوا الوصول الى حكمها محاولين كتابته من جديد وفقاً للنظرية التي يؤمنون بها كما أنهم حاولوا أن يفسروا تاريخ العالم من خلال نظريتهم تلك.. وغير اتباع الماركسية فان لهم مفاهيم اخرى في التاريخ منسجمة مع تفكير كل منهم توينبي في القسر ، دوركايم في الكثافة ، اشبنجلر في التدرج .. لهم نظرياتهم المتكاملة في التاريخ يؤرخون على هديها في حياة الشعوب وثقافتها وحضاراتها

لذلك كان من الافتعال بمكان ، ان تحاول دولة عربيـــة سائرة في دروب الاشتراكية ، تخطيط تاريخها تخطيطاً ماركسياً ، ذلك ان هذا التخطيط فيما لو تم في دولة من الدول ، يصرفها عن النهج النضالي القومي . . أما نحن العرب في سورية فان الامر عندنا مختلف تماما . . نحن أولاً (قوميون) وبمجرد كوننا قوميين ، ينفي «النظرة الشيوعية للعالم» . . وبانتفاء النظرة

الشيوعية للعالم ، قد انتفت الماركسية اصلا . . . لأن وجود دولتنا لم يقم اصلا على مبرر الايمان المادي بحوادث التاريخ ، ولكنه قام على التصميم على تحرير العرب من الاستعمار وتوحيدهم في دولة واحدة حرة متقدمة . .

٢ — دروزة : مامن حق احد ان يفسر حقائق التاريخ او يتلاعب في عرضها وفقاً للتغير المذهبي او الذهني الذي يتناول شكل المجتمع . .

٣ — العيسمي : اننا لسنا بحاجة الى تزوير الوقائع والاحداث التاريخية ولسنا مضطرين الى مجانبة الحقائق العلمية واهمالها . . . بل يكفي ان نعطي الوقائع والاحداث ونعرضها باسلوب علمي سليم بحيث تربط فيها الاسباب بالنتائج وتثير في الطالب روح الثقة والاعتزاز . .

٤ — حاطوم : الا اذا عاش المؤرخون في اجــواء الحرية العلمية غير متأثرين بما حولهم من اخطار دعائية او مذهبية او مسبقة تفسد عليهم عملهم وتجعلهم اقرب الى المزيفين منهم الى العلماء الباحثين .

٥ — المبارك : استجلاء منطق هذا التاريخ العربي دون تشويهه بفرض مذاهب جديدة عليه او تفسيره بواسطة نظريات غريبة عنه او الاندفاع فيه بدافع العصبية . ان الصيغة التاريخية لتاريخ العرب التي تحدد معالمه الذاتية بالنسبة الى غيره والتي اختارها العرب لحضارتهم او التي ادت ظروف القدر التاريخي ان تكون صيغة حضارتهم هي ايمانهم بايجاد حضارة انسانية تجتمع عليها الشعوب والاقوام... وقد كان (الاسلام) هو جماع هذه المثل العليا وهو اساس هــذه الحضارة . . . وكان العرب هم المؤمنون به . . وكانت خصالهم ومكارمهم الطيبة في العصر الجاهلي خير اداة مهيئة لهذه القدرة على التنفيــذ والاضطلاع بعبء الرسالة . ان تطبيق نظريات حديثة هي وليدة ظروف معينة في بيئة معينة كالماركسية وغيرها على تاريخنا العربي، هو تغيير لمنطق التاريخ وتحميل شخصيات تاريخ ما نفسيات تاريخ آخر وهو ماسميناه بالتلفيق الزمني (Anachronisme) .

٦ ـ **الحافظ** : « ان كتابة التاريخ من وجهة نظر تقدمية هي احدى الجبهات التي ينبغي النضال فيها بغية تهديم البنى الفوقية للمجتمع القديم ، ان كتب التاريخ التقليدية تعتبر جزءاً من البناء الايديولوجي للمجتمع العربي القديم .. في دراسة تقدمية للتاريخ يبقى الحاضر والمستقبل مركز اهتمام الباحث ... ان المؤرخ التقدمي ينبغي ان يركز اهتمامه على التناقض الجدلي القائم في حركة التاريخ ، ينبغي ان يكشف الصراع بين القديم والجديد ..

الباحث التقدمي لا بد ان ينبذ ظهرياً النزعة القدرية والنزعة الذاتية في دراسة التاريخ ... ان الجدلية التاريخية هي الاداة الاكثر علمية في دراسة التاريخ ولكن هذه الاداة ينبغي الا تتحول الى ضرب من الذرائعية التي تزوّر التاريخ » .

فيمكن القول ، بعد هذا ، ان نظرية (اعادة كتابة التاريخ وفقا للتغير المذهبي الذي يتناول شكل المجتمع) لم تجد لها بين الاساتذة متحمسين بالشكل الذي عناه طارح السؤال لكنها تجاذبتها ثلاث نظريات قائمة الآن امام الرأي العام العربي المثقف ويمكن تلخيصها على الوجه الآتي :

١ ـ الاستاذ سليمان الخش ممثل نظرية (الجنس العربي) الحضارية يردها رداً تاما لان حركة النضال العربي تستمد اول ماتستمد على القومية ويجمل بديلها — فيما لو كتب التاريخ من جديد — النهج النضالي القومي في تحرير العرب من الاستعمار وتوحيدهم في دولة واحدة حرة متقدمة ، فالى مثل هذا الاتجاه يجب ان ينطلق تاريخنا الجديد .

٢ ـ الاستاذ محمد المبارك ممثل نظرية (الاسلام) الحضارية ويرى في ذلك تشويها لتاريخنا (بفرض مذاهب جديدة عليه اوتفسيره بواسطة نظريات غريبة عنه) ويجمل بديلها ، لو كتب تاريخنا مجددا — صبغة الاسلام الحضارية — « لأن ظروف القدر التاريخي ادت الى ان تكون صبغة حضارة العرب هي ايمانهم

بامجاد حضارة انسانية ، اساسها وجماع مثلها العليا الاسلام » . فيجب وضع قاعدة التاريخ الجديد على ركائزه .

٣ ـ الاستاذ ياسين الحافظ يمثل نظرية (التحليل الماركسي) الحضارية وهو يرى ان ضربا من « الكارثية » مازال تشل وتخنق اي محاولة علميـــة وموضوعية لدراسة التاريخ العربي وهذه الكارثية دينية الى حد كبير وقومية بورجوازية الى حد ما ولا بد للباحث التقدمي ان ينبذ ظهريا النزعة القدرية والنزعة الذاتية في دراسة التاريـخ .. وان الجدليـــة التاريخية هي الاداة الاكثر علميـة في دراسة التاريـخ .. على ان لاتتحول الى ضرب من الذرائعية التي تزور التاريـخ .

٤ ـ المبادىء والمناهج :

تحت هذا العنوان سأجمل السؤالين الخامس والسادس واجوبتها : لو اننا اتفقنا على (كتابة تاريخنا القومي) مجددا فما هي المبادىء التي سنتخذها لاعادة كتابته ؟ ان مجرد التفكير بالاعادة يعني اننا سنبنيه على مبادىء جديدة ، فقد وصفناه بأنه مملوء بالتأثيرات الدينية والسياسية والشعوبية ولم تحدد انواعها لنتجنبها وقد عبناه ايضاً بأنه مشحون بالشوائب التي تحط من قيمته ويجب التخلص منها ، ولم نتفق على اصناف هذه الشوائب ولأن ماذكر منها يملأ تاريـخ الشعوب ايضاً ، كذلك ذكر بأنه تاريـخ ملوك واعيان اهتم بامجادهم وبطولاتهم واهمل دور الجماهير ثم تبين من اكثر الآراء انه عني بدور الشعب عنايته بدور الملوك ولكنه لم يقصد الى المعاني الحديثة التي نتصورها اليوم . ان هذه المبادىء قد لايتفق على اكثرها مادامت الآراء متفاوتة في (اختيار مواد التاريـخ) ومختلفة اكثر واكثر في (تفسير) معنى الاحداث . وما دامت ــ الصبغة الحضارية ــ لهذا التاريـخ لم يتفق على تكوينهـا وسيرها نحو اتجاه مخصوص من الاهداف ،

كما رأينا ، فما هي الهوية الموحدة التي تدور حولها حوادثه ؟ كل هذا واكثر منه سيقوم في وجهنا حين كتابة تاريخنا الجديد . ولننظر آراء الاساتذة في ذلك :

١ - **الخش** : ان المبادىء التي ينبغي ان يكتب بها التاريخ العربي ، كما اتصور ذلك هي : ١ - على المؤرخ ان ينظر للتاريخ العربي ككل . منذ اللحظة التي بدىء فيها تاريخ الشعوب حتى يومنا هذا . ٢ - وعلى المؤرخ ان لا يؤرخ الملوك والدول الكائنة على الارض العربية الا بمقدار مايشعر بالترابط الفكري والثقافي والحضاري بين هذه الدول . ٣ - وعلى المؤرخ الذي يؤرخ للحقبة التي تلت الاسلام ان يكون موضوعياً وبارد الذهن امام الخلافات السياسية والمذهبية . ٤ - وعليه اخيرا ان يفسر الاحداث كلها تفسيرا اجتماعيا قوميا بحيث يصبح للاحداث معنى .

٢ - **دروزة** : تأكيد شروط التمحيص والتروي والمقارنة والتجرد عن الغرض والهوى والنظر الى الاحداث بنظارة الظروف التي حدثت فيها وبخاصة بالنسبة للتاريخ الحديث الذي يلمح في الجيل الجديد رغبة التهديم للجيل السابق الذي اشترك في صنعه وانكاره ما للكثير من رجالات هذا الجيل من نضال مخلص ..

٣ - **العيسمي** : التاريخ يأتي في مقدمة العوامل الاساسية في تحريك الوعي القومي وتنميته بين أفراد الأمة .. فلا بد لنا من اعادة النظر في كتب التاريخ المدرسية من حيث موضوعاتها وأساليب بحثها وطرق العرض فيها .. اننا لسنا بحاجة الى تزوير الوقائع والأحداث التاريخية بل يكفي ان نصطفي الوقائع والأحداث ونعرضها بأسلوب علمي سليم بحيث تربط فيها الاسباب بالنتائج وتثير في الطالب روح الثقة والاعتزاز ، واذا كنا نترك لعلماء التاريخ ولطلاب الجـــامعة المختصين بهذه المادة ان يتحروا التفاصيل والجزئيات ويغوصوا وراء الحقيقة العلمية

المجردة ، فليس من المفيد في رأينا ان نترك ذلك لمؤلفي التاريخ الذي يدرس في المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية ، ذلك لأن قيمة الوقائع التاريخية في الكتب المدرسية مرتبطة بالهدف الذي نتوخاه منها وليس بالحقيقة المجردة التي تحملها .

٤ — حاطوم : ونعتقد ان واجبنا القومي والعلمي في نهضتنا الحالية يحتم علينا الكشف عن حقيقتنا التاريخية الاصيلة في تراثنا التاريخي العظيم لنرد التهم وندفع الباطل والريب ونبرز هذه الحقيقة سليمة من كل شائبة . وهذا لا يتوفر الا اذا كتب تاريخنا من جديد بنظرة علمية وعربية ضمن المنهج الآتي : ١ — أن يوضع التاريخ العربي العام ضمن الاطار التاريخي العالمي ، ٢ — ان يبرز التاريخ العربي كلا متماسك الأجزاء والحلقات في مختلف بلاده وعلى ممر أدواره وعصوره وان بدا ظاهراً مفككاً في بعض فتراته لأن الأساس الذي يجب أن يعتمد عليه هو الشعب العربي لا تبدل الحكومات والحكام ، ٣ — ان يكون رائد التأليف الحياد العلمي والنزاهة الفكرية .. طرق البحث العلمي .. بعيدين عن كل تعصب وانحياز للأموات والاحياء ، ٤ — ان يتعاون المؤرخون العرب تعاوناً علمياً وثيقاً بتقسيمهم الى فئات وتقسيم التاريخ العربي الى فترات زمنية .. ٥ — ان يرعى هذا العمل العلمي الضخم راع يسهر عليه ويتابعه (كالادارة الثقافية بجامعة الدول العربية) .

٥ — الأرسوزي : ١ — اني أرى لزوم التمييز بين وجهتي الحضارة ، بين المدنية والثقافة . وعلى المؤرخ أن يظهر تاريخ المدنية (مجموعة الآلات والخبرات العلمية والعملية) كصراع الانسان مع الطبيعة ولما كان صراع الانسان مع الطبيعة مشتركا بين البشر فقد وجب وضع التاريخ على الوجه الذي يظهر فيه شأن العرب في خدمة الحضارة من زاوية المدنية وكذلك يظهر تاريخ ثقافة الأمة مجهوداً بنائها

في الكشف عن ذاتها وتحقيق حقيقتها . وثقافة الأمة تتمثل بلغتها وعرفها وتقاليدها وشريعتها وآدابها وفنونها وديانتها وتأملات مؤلفيها في موقفهم من الطبيعة ومن الحياة نفسها ثم في موقفهم من الحضارة الانسانية .

٢ — وأما التاريخ السياسي فهو سجل محاولات ابناء الأمة في تنظيم العلاقات بين المواطنين ، وبين الأمة وغيرها من الأمم الأخرى ... مع اظهار المحاولات الفاشلة وأسباب الانحراف .

٣ — يجب ابراز الامة العربية كأصل لثقافات الشعوب الملقبة بالسامية ، اعني بذلك اعتبار اللغة العربية هي الأم للغات الشعوب السامية .

٤ — كان المؤرخ العربي يهمل القاعدة ويركز الاهتمام على القمة بحيث اصبح التاريخ تاريخ اعلام ... فعلى المؤرخ تقصي الاسباب ليربط ما برز منها بما هو مشترك بهم في صميم الشعب .

٥ — في صوغ كتب التاريخ للناشئة ، تبرز اصول العناصر التي يتألف منها واقعنا فلو ابرزنا عوامل ظهور احد المذاهب وابرزنا بعد هذه العوامل طبيعة المرحلة التاريخية لجف نسغ الحياة عن المذهب وانقشع التعصب المؤدي الى انطلاق المذهب نفسه .

٦ — المبارك : ولا بد لكتابة التاريخ تحقيقاً لهذه الغاية من شروط يجب التزامها او مبادىء يجب مراعاتها وهي : ١ - الفهم الصحيح لتاريخنا وخصائصه ٢ - استجلاء منطق هذا التاريخ دون تشويهه بفرض مذاهب جديدة عليه أو تفسيره بواسطة نظريات غريبة عنه او الاندفاع فيه بدافع العصبية ٣ - تقويمه بمقاييس انسانية مشتركة وتحديد موقع حضارتنا من الحضارات العالمية الاخرى . ٤ - احياء التراث وجمع المصادر لاستجلاء هذا التاريخ استجلاء صحيحاً .

٧ — الحافظ : في دراسة تقدمية للتاريخ يبقى الحاضر والمستقبل مركز

٢ — ما يقع الخلاف فيه : نحن لو اقتصرنا على تكديس المصادر وصنفناهـا ثم حكمنا على الاحسن منها واخترنا الاحداث والقناها ورسمنا لها مبادىء عامة تم كتبناها تاريخاً ، دون اهتمام معين بانواع قومية او اصناف مذهبية لهان الامر ، حتى كأننا غرباء عن الموضوع وكموقف العالم النزيه نحكم على نتيجة الدراسة والنهج بعد تطبيق المبادىء . لكنه تاريخنا ونحن في هذا العالم الصاخب ، انه الركيزة التي تثبت فوقها ذاكرتنا الاجتماعية التي هي منبع من منابع ذاكرتنا الشخصية ، بل انه كياننا القومي وبطاقتنا الشخصية — كما يقال — امام العـالمين القديم والحديث . دع ذا ! انه ترجمان العقيدة التي كوناها عن ذاتنا في مجرى سلوكنا عبر الزمن وبالتالي عن تفكيرنا الاجتماعي والسياسي والاقتصادي فكيف نقف من هذا كله موقف الحيـاد العلمي والنزاهة الموضوعية ؟ لابل الواقع اننا لانكتفي باختيار المذهب الذي نصطفيه في الحياة ، ولكننا نود لو فرضناه على غيرنا لنحقق ما كونه لنفسه أو نقنعه ليؤمن بما آمنا به .

أ — هكذا نجد أنفسنا في قضية (المبادىء والنهج) سنلتقي حول مبادىء كثيرة كما ذكرنا ولكننا سنفترق في (تفسير) حوادث التاريخ وفيما هو (منطق التاريخ) الذي تسير على حتميته الحوادث ، أو فيما هي (فلسفة التاريخ العربي) وهكذا سنواجه هنا النظريات الثلاث التي وجدناها حينما بحثنا موضوع (التاريخ والتغيير المذهبي) :

١ — الاستاذ سليمان الخش يقول المؤرخ : « عليك ان تفسر الاحداث كلهـا تفسيرا اجتماعيا قوميا ، بحيث يصبح للأحداث معنى » .

٢ — الاستاذ محمد المبارك يقول له : « ان كل كتابة أو صياغة للتاريخ تتجاهل هذه الحقيقة الموضوعية — الاسلام وصبغته الحضارية — أو تتجنبها أو تقحم عليها نظرية أخرى غريبة عنها تفسد هذا التاريخ بل تفقده أهم مكاسبه الانسانية الحضارية » .

٣ — الاستاذ ياسين الحافظ يقول له : « الباحث التقدمي لابد ان ينبذ ظهريا النزعة القدرية والنزعة الذاتية في دراسة التاريخ ، ان الجدلية التاريخية هي الاداة الاكثر علمية في دراسة التاريخ ... ان محاولة قسر الوقائع التاريخية بغية ادخالها في مخططات « تقدمية » مسبقة يشوه التاريخ » .

فكأن هناك تخطيطا (سابقا) مفروضا وضع امام المؤرخين ليتبعوه حينا

يبيدون كتابة التاريخ ، وكأن المؤرخ اصبح (ملتزما) او انه وضع له على جانبي عينيه (غمامة) ليسير باتجاه واحد هو الأمام ، ولا يرى ماحولها !

لقد اردت ان اصف بعض الصعوبات ، ولكنها ستسوى : فنحن مادمنا (قوميين) منطلقين في طريق النضال (لتحرير العرب من الاستعمار ومساوئه وتوحيدهم في دولة واحدة حرة متقدمة) سنجد لكل ذلك مخرجا واضحا من بين الزحام !

ذلك ان تفسير القومية العربية ان يكون ضيقا فيغفل عن تلك الثروة الضخمة التي قدمتها الحضارة العربية الاسلامية للعالم — مفخرة الدهر في مصادر التشريع والفلسفة والعلم — دون التقيد بالجدل الايساغوجي (الصوري) الذي تحكم بعقول الناس ايام الانحطاط ، كذلك فان نهج التاريخ الجديد سيفتح نوافذه الواسعة على تحليل الحوادث التاريخية بالاسلوب الحديث والاستفادة من الجدلية التاريخية في كشف التيارات الاجتماعية والاقتصادية وتحديد ابعادها ، وفيما كتبه الاساتذة المستفتون جميعا خير دليل على رصانة التفكير والتمسك بالروح العلمية والابتعاد عن المزالق !

ب ـ هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام ، لقد تنبه بعض الاساتذة الى جانب جوهري من تأليف التاريخ وتساءلوا : <u>لمن يكتب التاريخ ؟</u>

واجابوا ، وهم على حق ، انه لعنصر الاستمرار في حياة الامة العربية ، لبناة المستقبل تلامذة المدارس وطلاب الجامعات ، ذلك لان اجيالنا المتلاشية زمنيا امتصت لبن التاريخ الكدر ، ومهما حاول مفكروها ان يوجهوا ومرشدوها ان يعظوا فان الداء مقيم ... كثيرا اوقليلا ... نعم ! لقد بعد ماييننا وبين اسلافنا الاقربين من حيث الرغبة باجترار الشوائب والتحمس لدوافع الأحسن ولكننا

بحاجة الى دواء عاجل ، الى التاريخ الذي يحفظه الناس مُبَرّأً من كل دسيسة ، منزها من كل اثارة ، مطاوعا لدواعي القومية الاصيلة المتسامحة المعبأة ضد خصمها اللدود ، الاستعمار ، ولن يكون هذا الا في صفوف رجال المستقبل .

ج - بقي امر آخر ، كيف نرسم للناشئة صورة الوطن العربي الكبير ؟

هذه قضية طرحت علينا يوم استعرضنا مناهج التاريخ عام ١٩٥٧ في (اتفاق الوحدة الثقافية العربية) الذي عقد بين سورية ومصر والاردن ... وانتهت الآراء الى ان نسلك مسلك المربي في اصطناع التبسيط والاصطلاح ، فاستعملنا مدلول — الوطن الصغير — على القطر وكأنه التاريخ الخاص (جزء من كل) واستعملنا مدلول — الوطن الكبير — على الاقطار العربية كلها وكأنه التاريخ العام العربي ثم ربطناه بتاريخ العالم اي التاريخ العام والآن كيف يتم ذلك ان نحن بدأنا بكتابة التاريخ العربي ككل ، وانطلقنا من نظرية الجنس العربي يتماوج في التاريخ من الجزيرة العربية ويفتح (مراوحة) مابين البحرين الاحمر والابيض المتوسط يسارا ، الى مابين النهرين يمينا ، ثم الى الجنوب حتى يبلغ نهر الاردن والنيل وسهولها .

هذه قضية عويصة من ناحيتين : من الناحية التربوية (من المركب الى البسيط) ومن الناحية الاقليمية اذ لم يتفق على تبني نظريتنا في نشأة الجنس الكلي والحضارة الواحدة وسير الاقوام في مجرى التاريخ السحيق ، بالنسبة للتواريخ المكتوبة حديثاً في مختلف البلاد العربية .. فلا بد من اطلاع مؤرخي الاقطار العربية على مخططنا ، ولكننا نترك هـذا كله الآن لما اسميه (مؤسسة اعادة كتابة التاريخ العربي) التي ستنشأ على مستوى (الجامعة العربية) كما اقترح الاستاذان دروزة وحاطوم ، أو على أي مستوى آخر اضخم منها ومن نشاطها بالنسبة الى هـذا المشروع الجليل .

ولا أجد حرجا في أن اقترح على وزارة الثقافة منذ الآن ان تؤلف لجنة

تحضيرية قطرية تضع مخططاً بالخطوط الكبرى للمشروع ، بل اني استعجل فأطلب الى وزارتي التربية والثقافة التعاون على وضع مشروعين : ضيق للمراحل الثانوية فما دونها وواسع للمرحلة الجامعية وفروعها فأن بعض الاقطار العربية مثلنا أشد حاجة من غيرها الى هذا الكتاب الجديد لما تعاني من بعض الشوائب المكبوتة والمعلنة .

٥ ـ ماهي الفوائد العملية التي يمكن أن تجنيها امتنا عندما يتحقق ذلك ؟

كانت اجابات الاساتذة كلها ايجابية تمتدح التجديد وتبني عليه آمالا طيبة وأهدافاً عملية بعيدة ولألخص بعض ماقالوه في ذلك :

١ — **الخش** : وتوحيد التاريخ العربي ، ليس عملا ثوريا فكريا فحسب، بل هو أيضاً عمل ثوري اجتماعي تقدمي يدفع بالذهن العربي المشتت الى الاستقرار حول النضال التقدمي لجمع كلمة العرب في دولة واحدة ، لذلك كان مادعونا اليه هنا عملا انسانياً ضخما بمقدار ماهو عمل قومي ضخم ..

٢ — **دروزة** : وكتابة تاريخ عام للجنس العربي ثم كتابة تاريخ خاص للحركة العربية الحديثة شاملين ومفصلين واجبة وفوائدها العلمية والعملية كبيرة .. امة عظيمة لها رسالة انسانية خالدة زادها الاسلام الذي انبثق منها في دور عروبتها الصريحة قوة وخلودا وحافزاً لا يصح أن يظل تاريخها مليئاً بالثغرات وناقصاً ومفككا أو مرتعاً للخرافات والاختلافات والتشويهات المغرضة ، ومثل هـذا يقال بالنسبة للتاريخ القومي الحديث ..

٣ — **العيسمي** : كتابة التاريخ مجدداً تزيل مافي المؤلفات الحالية من اسفاف وتناقض وهوى . . وخاصة في اعادة النظر بما في كتب التاريخ المدرسية. لتعليم التاريخ على انه عامل اساسي في تحريك الوعي القومي وتنميته بين افراد الأمة

يثير في الطالب روح الثقة والاعتزاز وتحرك — الوقائع والأحداث — فيه الفكر الحر وتعمقه ، وتكسبه الخبرة وتمده بالعبرة . .

٤ - حاطوم : ان الفائدة العلمية التي تجنيها الأمة العربية من هذا العمل هو وعيها لتاريخها المتماسك وعياً أكيداً على حقيقته وشعورها بترابط اجزائه في شتى الظروف . . وهذا الوعي بحد ذاته مقوم عظيم من مقومات القومية العربية في العصر الحديث وعامل موحد قوي للعرب في حيزهم الجغرافي من الخليج الى المحيط وفي غابر تاريخهم وحتى في احلك عهوده . . ولذا فالفائدة التي نجنيها من كتابة تاريخنا على اساس علمي جديد وبنظرة عربية هي في الحقيقة فائدة ثقافية وقومية في آن واحد تدخل في تكوين المواطن العربي الصالح .

٥ - **الارسوزي** : فوائد كثيرة منها ابراز دور العرب في خدمة الحضارة من زاويتي المدنية والثقافة معاً . وتركزهم على التعمق الوجداني ، وانهم فجروا ثقافات الشعوب الملقبة بالسامية وان لغتهم هي الأم للغات هذه الشعوب .

٦ - **المبارك** : ان دراسة التاريخ دراسة موحية وموجهة وحافزة . . تؤثر تأثيراً قويا في تفكير الجيل الذي يدرس هذا التاريخ وفي نفسيته وعواطفه . . فتاريخ كل أمة يعطي صورة عنها ويحدد موقعها بالنسبة الى تواريخ الامم الاخرى ويشعر الجيل الجديد بموقعه من أمته بين ماضيها ومستقبلها ليتخذ لنفسه طريقاً للسلوك .

٧ - **الحافظ** : ان دراسات تقدمية كهذه ستكون انتصاراً هاماً لقوى التقدم العربي على الصعيد الايديولوجي وستساهم بخلق وعي سياسي وحضاري لا الماضي فحسب بل للحاضر والمستقبل ايضاً .

وعلى ما أوردنا من الشواهد يمكن القول ان هناك (وجداناً) عاما يحس بضرورة

تجديد التاريخ العربي ـ قديمه وحديثه ـ لأن في هذا التاريخ عيوباً تؤثر في سلوكنا الاجتماعي ـ كمواطنين عرب احرار ـ لايفرقنا الجنس او الدين ، الذي جاء ليزيل هذه الفوارق ويوحد العرب والانسانية ، هذا الى ان هذا التاريخ الجديد سيجمعنا حول مبادىء النضال القومي ضد الاستعمار وتكوين دولتنا الحديثة الموحدة .

الخاتمة : أعود فأسأل في النهاية كما سألت في البداية ، ما الذي أوجب طرح هذه الأسئلة في الوقت الحاضر ؟ واني لأرجو أن اقدم بعض الملاحظات التي اوحت بها الي هذه النظرة العامة على الاسئلة وأجوبتها :

١ ـ ان هناك (ثورة) شاملة منا على ماضينا ـ القيم بيننا المؤثر على سلوكنا سلبياً ـ واعادة كتابة تاريخنا جزء هام من هذه الثورة : لأننا نقدر أن تجديده سيقلل الفوارق الفكرية السلبية الآتية من (وحي التاريخ) وانه سيساعدنا على التجمع بعد التشتت وانه سيضع جيلنا المقبل في عالم جديد من التحرير الفكري والاجتماعي يتلاءم مع هذه الثورة العلمية العالمية التي كادت أن تشعرنا بأننا غرباء عنها أو أننا فقدنا الصلة في مفهوم العالم الجديد !

٢ ـ لقد جددت أغلبية الشعوب تواريخها ولا سيما بعد عهد النهضة الأوربية والثورات الاشتراكية الحديثة فوصلتها بماضيها واستمرت مع هذه التواريخ تعدلها وتجددها ، تضيقها وتوسعها حتى يومنا هذا .. أما نحن فقد بقينا ننقل التاريخ القديم مجزءاً على الأقاليم أو نقلد بعض الصور الحديثة المشوهة ، فلا بد لنا من تاريخ « نظيف » تزال منه شوائب الماضي وتبنى أركانه على عناصر التجديد والتحرر ، والقضاء على عوامل التبعثر ، أي أننا بضرورة ملحة الى تاريخ متماسك الحلقات لأن عهود الانحطاط قطعتنا عن التاريخ القديم عملياً ، ومدة نهضتنا الحديثة قصيرة فلا تزيد عن عشرات السنين فلا بد من سند قوي يمدنا به التاريخ .

٣ ـ المواطن العربي اليوم مشتت الذهن بين تاريخ قومي سحيق محمل

بالفرضيات والنظريات يبحث عن اصله لكن هذا التاريخ مدفون تحت التراب ، وبين تاريخ عربي ليس ببعيد حمّلوه سفاهة الجاهلية ومفاخر القبلية ونحن نصفه الآن بالمكارم الطيبة أو الخصائص الأصيلة فما هي الصورة الصادقة عنه ؟ وبين تاريخ ديني عربي ظهرت فيه رسالة الاسلام فملأت الدنيا نوراً وعدلاً وعلماً وانشأت دولة عالية وحضارة انسانية لاتزال مفخرة الدهر في التشريع والفلسفة والعلوم ثم دالت دولتها وجاءت عليها عوامل الانحطاط ... وها ان المواطن العربي تهتز شيمه ويتلاقى مع نهضة علمية لاحدود لها ، وليس بيده الا اجترار الأمجاد وشحذ الهمم فهل يقطع مابينه وبين الماضي ــ وخاصة الماضي الذي أثقل كاهله ــ أم يسير مع حركة الكون ويجدد هذا الماضي ، كما فعلت بقية الأمم ؟ ماذا بقي من الماضي الا ذلك الكتاب المبين والايمان الراسخ في صدورنا وعباداتنا وقد تبدل في الناس التشريع والسلوك وتكسرت تلك (القوالب) المحددة حتى كأننا فقدنا كل صلة مع الماضي.

٤ ــ اذكر أن المرحوم الأستاذ مصطفى السباعي أهداني كتابه (اشتراكية الاسلام) وقد راسلته بعد قراءته وقلت : ان مفاخر المواطن العربي أن تكون له هذه الثروة الضخمة من التشريع في قواعد ــ العدل الاجتماعي ــ ولكني أرى أن يكتفى بالقول : ان براعم المبادىء الانسانية مفتحة على (شجرة الاسلام) ولكني لاارى ان نصطنع التفاصيل لنؤلف منها مذهبا كاملا عن النظريات الحديثة والمؤسسات الاجتماعية الثورية كما فسر بعضهم اشعة (رونتجن) بقوله تعالى (نار موقدة تطلع على الافئدة انها عليهم مؤصدة في عمد ممددة) ، نعم : في الاسلام هدي وعدل وايمان وعلم ، ولكنه لم يقم لمعالجة الامور الدنيوية التفصيلية الناشئة عن مقتضيات العصر والا لما معنى هذه الثروة الهائلة من المذاهب والاجتهادات الا انها جاءت تفصله وتستحسن او تستصلح ماكان فيه خير للامة .

٥ — لقد التقى الاستاذان محمد المبارك وسليمان الخش على صعيد واحد في تقدير طاقات العرب التاريخية :

١ — الاستاذ المبارك حملهم رسالة الاسلام اذ يقول (وكانت خصالهم ومكارمهم الطيبة في العصر الجاهلي خير أداة مهيئة لهذه القدرة على التنفيذ والاضطلاع بعبء الرسالة فكان العرب شعباً رائداً للانسانية) .

٢ — الاستاذ الخش حملهم رسالة الحضارة العالمية لما وجدوا عليه من خصائص حضارية حملتها (شجرة العروبة .. وما زالت تورق وتثمر عبر القرون حتى يومنا هذا) .

ولكن اتجـــاه النهجين مختلف فلماذا لا يكون من التقائهما قوة ؟ فيكتب التاريخ مساهمة بين القومية الواسعة والاسلام الانساني ليخرج منها طاقات تواجه بها العصر وتقارع بها الاستعمار وهذا ما ارجو أن ينظر فيه الاساتذة المكلفون بعبء تجديد التاريخ العربي .

الاستاذ سلامة عبيد

سواء أكان التاريخ عبثاً او حافزا ، فان الانسان لايستطيع أن يسلخ نفسه من نفسه ، ومع ذلك فمن حقه أن يتساءل كيف يكتب تاريخه فلا يظل عبثاً يبهظ كتفيه ولا سرابا يخدع عينيه .

والتاريخ كعلم هو قطب العلوم ، فهي جميعا عائدة اليه نادمة مستغفرة او فرحة مستبشرة ، اذ ان التاريخ للانسان هو بالضرورة تاريخ لكل ما يرتبط بالانسان من علم وفن وأدب ، ولهذا رأينا كل الاجابات في العددين ٤١ و ٤٢ من المعرفة ايجابية ، وان تباين بعضها عن بعض من حيث التحليل والاسلوب .

ولعل ابرز النقاط التي تنصب عليها اضواء السادة الكتاب هي :

١ ـ ضرورة التأكيد على ان التاريخ العربي جزء من التاريخ الانساني وحضارة العرب جزء من الحضارة الانسانية ، ولهذا كان التأكيد على ضرورة معالجة التاريخ العربي ضمن الحركة الانسانية لا في معزل عنها ، فنحافظ بذلك على حقيقة تاريخنا وعلى رسالته الانسانية .

٢ ـ ايجاد تاريخ عربي متلاحم ، او بالأحرى التأكيد على وجود تاريخ عربي متلاحم موغل في القدم ومستمر عبر العصور ، فالوحدة التاريخية للأمه العربية يجب أن تظل اساساً وهدفا ، وهذه الوحدة تظل قائمة وان بدت في ارجائها استقلالات محلية عربية او شعوبية الا ان الشعب العربي نفسه ، والروح العربية نفسها ظلا

كلاً متماسكا منسابا كلما انطلق ، ثائرا نزاعا الى الحرية والوحدة كلما انتصب في وجهه عائق او حاجز .

٣ ـ التأكيد على نقد كتب التاريخ المدرسية وتجريحها بل وتسفيهها ، اسلوبا ومادة ، انها هنا عبء وعبء مرهق ولا سيما في صفوف الشهادات ، ولا عجب ان تذكرنا هذه الكتب الضخمة بذلك الشويعر الذي كتب قصيدته « صوت صفير البلبل » على بلاطة من رخام ليأخذ وزنها ذهبا .

ويشير بعض السادة الكتاب الى نوعين من التاريخ ، تاريخ للصغار وآخر للكبار ، ان هذا الاتجاه مقبول من حيث الاسلوب الكتابي الا انه لا يجوز ان يطمس جوهر الحقائق التاريخية رغم مرارة بعضها .

٤ ـ يقرر بعضهم ـ وهذا جد صحيح ـ ان كتابة التاريخ العربي او اعادة كتابته تتطلب عملا جماعيا ، باعتبار ان العمل الفردي قاصر عن الجهد المنظم المشترك والاتجاه الانساني والقومي هو اتجاه تعاوني جماعي في شتى المجالات الاجتماعية . ويعطي بعضهم توضيحاً لهذه الفكرة واقتراحات عملية لابرازها (العدد ٤١ ص ٣٣ و ٤٤ والعدد ٤٢ ص ١٤) ويضيف بعضهم الشرط الاساسي لهذا العمل وهو جو الحرية (العدد ٤١ ص ٤٣) الا انني احب ان اعلق هنا على ان الحرية هي الحرية النابعة من ضمير الكاتب ووجدانه ولا عبرة اساسية ومبدئيــــة للجو العام الذي يعيشه ، اما الذي يضطر للعودة الى « الحظيرة » (العدد ٤١ ص ٥٧ ـ ٥٨) فقد لا يكون في اعماقه صاحب رسالة وقد تكون تلك « الثورة » التي بدأها انما هي نزوة عابرة وليست عقيدة متأججة ، ومع ذلك ففي تاريخ الانسانية وفي تاريخ العرب والاسلام من جمع فوق الحظيرة غير عابىء بنقمة او خطر :

اذا هم القى بين عينيه همـــه   ونكب عن ذكر العواقب جانبا

٥ – لي بعض التعليقات الشخصية على نقــاط رئيسية يحسن التوقف عندهـا ومناقشتهـا :

أ – هل يستطيع المؤرخ ان يؤكد ان الشعوب قبلت حكم العرب عن طواعية (العدد ٤١ ص ٥٥ فقرة ٤) .

ب – هل مشكلة الصراع بين الدين والعلم في اوروبا وما شابه ذلك من مشكلات غريبة عنا او لها وضع آخر . (العدد ٤١ ص ٥٣)

ج – هل يصح ان يعتبر ان لكل من الشعبتين الضخمتين في التاريخ العربي بعد الاسلام فلسفة ومبادىء خاصة بكل منها ، ام ان هنالك رواسب من ضغائن واختلافات سياسية ليست لهـا جذور الفلسفة والمبادىء ومقوماتها (العدد ٤١ ص ١٩) .

د – هل يمكن تقبل المفهوم الجنسي بالنسبة الى العرب دون المفهوم اللغوي الفرعي (العدد ٤١ ص ١٣) فلماذا لا يكون العاملان معا وهما الجنس واللغــة متكاملين متلازمين توأمين وجهين لدالية واحدة .

هـ – هل تكفي معالجة بعض المشاكل التاريخية مثل مشكلة الحسين ، وعثمان ... (العدد ٤١ص١٩ – ٢٠) معالجة تاريخية فحسب . في اعتقادي ان مثل هذه المشاكل لا يكفيها ان تعالج ببرودة علمية (ص ٢٠) وانما بجهود مشتركة تجند لها كل امكانيات الامة الادبية والعلمية والفنية والسياسية ... ومن هنا يصح ان تواكب جهود المؤرخين جهود ايجابية من كافــة القطاعات من اجل تحويل النظرية التاريخية الى طاقة بناءة ايجابية تقدمية .

و – هل نستطيع التوقف عند القول: بأننا لسنا بحاجة للمصادر التاريخية

بقدر ماتمحن بحاجة للعين الثاقبة التي تمحص تلك المصادر (العدد ٤١ ص ٣٦) ، هنا يمكن أن نطبق هذا القول الى حد ما على التاريخ القديم ، أما تاريخنا الحديث (وأعني القرنين التاسع عشر والعشرين) فنحن في أشد الحاجة الى الحصول على الوثائق ودراستها ونشرها ، فان في ذلك انارة للطريق ، وكشفا للحبائل ، وفضحا للزيف ، لاخدمة للحقيقة فحسب بل خدمة لأجيال حاضرة ومقبلة تفتش عن خلاصها وأمنها وكرامتها .

ز ـ هل يصح أن نورد ماقاله ابن خلدون عن محو عمر لعلـــوم الفرس (العدد ٤٢ ص ١١) دون أن نعلق على هذاالقول : اننا هنا أمام جريمة (مفترضة) والمؤرخ هو القاضي ، ولا يمكن لأي قاض أن يجرم مالم تتجمع بين يديه كل الاثباتات حتى الشكلية منها ، ولذا كانت كتابة التاريخ عملا مسؤولا ولا يجوز الهرب من المسؤولية بالقائها على عاتق من سبق .

ح ـ يحسن التنبه لبعض المصطلحات فلا يستعمل بعضها مقام بعض ولا سيما كلمات الاسلام والعروبة ، والعرب والمسلمون (العدد ٤٢ ص ١١) فالعرب الذين حرروا وفتحوا باسم الاسلام ظلت حكوماتهم عربية ورئاسة دولتهم أموية أو عباسية أو هاشمية أو فاطمية أو علوية ولم يتنازلوا عن طابع الدولة العربي لصالح الشعوب الاسلامية الاخرى الا قسراً وقهراً . ومن أخطر هذه الاستعمالات وأنكرها استعمال « الأمم العربية » « المعرفة العدد ٤٢ ص ١٦١ » .

٦ ـ وأخيراً احب أن أنوه بالمبادىء والحلول العملية التي تميزت بها بعض المقالات (العدد ٤١ ص ٢٥ ـ ٢٦ و ٣٣ وعلى الأخص ٤٣ ـ ٤٤) . راجياً أن يكون الانطلاق من المعالجات النظرية الى الحلول العملية شعارنا اليومي .

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة أعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى أن يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق – مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشأن التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

الآداب

الكتاب والموضوعات

الشعر

في المجتمع الصومالي

الكاتب الصومالي الدكتور جون فياني
مترجم عن الانكليزية خاص بالمعرفة

تشكل اللغة الدارجة غير المكتوبة اساس قاعدة تقليدي رفيع بين الصوماليين . فالسكان الرحل يجدون لذة عظيمة في نظم الشعر المحلي . ويمكنهم به أن يعلقوا باساليبهم الفريدة الطريفة على تطورات الوضع السياسي .

تعتبر الجمهورية الصومالية ، احدى الدول القليلة في افريقية ، التي يتحدث الشعب فيها لغة واحدة في جميع انحائها تقريباً . وتنتشر اللغة الصومالية فيما وراء الحدود ، في مناطق واسعة شاسعة من الحبشة وكينيا والصومال الفرنسي . ومن الغريب ان هذا التراث القومي العظيم ، وسيلة التخاطب بين الناس ، لا يستعمل في الكتابة . (فالمعروف ان ليس في الصومال لغة مكتوبة) لقد عرض الصوماليون والاوربيون حروفاً لغوية مختلفة ، مثل الحروف العربية والرومانية والحروف المستنبطة الاخرى ، ولكن أياً من هذه الحروف لا يستعمل اليوم في كتابة اللغة

الصومالية الوطنية . ولذلك عدة اسباب ، منها الميل المتأصل لاستعمال لغتين . في غضون السنوات الألف التي خلت ، وحتى إدخال المستعمرين لغاتهم الى المجتمع الصومالي ، وقع الخيار على اللغة العربية لتكون وسيلة المراسلة والتعامل التجاري والاتصال بالعالم الخارجي، بينما ظلت اللغة الصومالية تستعمل دائماً في التخاطب. ولا شك بان هذا يبعث في المتحدثين بهـــا شعوراً بالعزلة والراحة والطمأنينة في عالم خاص قلما وصل اليه الاجنبي .

فمنذ أول العصور الاسلامية ، كان الصومال « أو قرن أفريقية » ، مسرحاً للنفوذ العربي القوي . فقد وطد التجار والمستوطنون واللاجئون العرب دعائم ثقافتهم ونشروا دينهم بين السكان الأصليين ، فازدهرت مراكز التعليم الاسلامي وانتشرت اللغة العربية في جميع المدن الصومالية . وحتى في القرى النائية ، قام المعلمون بتعليم القرآن لعدة قرون . فتلقى معلمو المستقبل والقضاة الصوماليون علوم الدين والفقه والشريعة الاسلامية بواسطة المدارس المتنقلة . وعندما دخلت الانكليزية والفرنسية والايطالية الاراضي الصومالية في العهود الاستعمارية ، اصبحت هذه اللغات تشكل فاصلاً بين لغة التخاطب ولغة الكتابة والمراسلات الرسميـــة والاتصال بالاجانب . وبالرغم من فوائد هذه اللغات الاجنبية في الاتصال بمراكز المدنية الحديثة ، لم يكن لديها الوقت الكافي لتترك أثرها في الثقافة الصومالية . فاللغة العربية وآدابها ، من ناحية اخرى ، تركت أثرها بين الفئات المتدينة بصورة خاصة ، فدون الكثير من الأدب الصومالي باللغة العربية . ويتكون هذا الأدب بصورة رئيسية من الشعر الديني ، حتى ليتفوق بعضه ، بالنسبة للحماس والغيرة الدينية ، على مثيله مما نظمه العرب في هذه الموضوعات . ولكن

بالرغم من الروعة والخيال اللذين يتجليا في الأدب الصومالي العربي فلا يزال ينتمي الى التقاليد العربية الكلاسيكية ، ولا يؤكد فردية ومزايا الخلق الوطني الصومالي . اننا نجد الشخصية الحقة للأمة الصومالية ، في الشعر الذي ينظم وينشد أو يحفظ بلغة الصومال غير المكتوبة وحدها .

فالذين يتصلون اتصالا وثيقاً بسكان المناطق الريفية الداخلية التي يقطنها الصوماليون الرحل ، يندهشون جداً ، للفارق الهائل بين فقر السكان الحضاري وبين صفاء ثقافتهم وروعتها في النواحي الأخرى .

فالسكان الرحل عادة يفضلون أن تكون مقتنياتهم منقولة . لهذا نجدهم يسكنون في اكواخ مناسبة لحياة التجوال التي الفوها ، يبنونها من الاخشاب والعصي الخفيفة والحصر المصنوعة من الاعشاب . أما اوانيهم فتصنع من لحاء الاشجار او الخشب الخفيف ، والاواني الوحيدة التي تصنع من الحديد او الفخار ، هي اواني الطبخ . وبعض هذه المقتنيات البسيطة تزين بزخارف رائعة بالرغم من ان قرية السكان الرحل تمتاز بطابع البساطة .

وفي فصل الجفاف وانحباس الامطار ، عندما يبلغ الكفاح أوجه في هذه البيئة القاسية ، تبدو الحياة الصومالية الريفية متركزة كلية حول الضرورة الملحة في تأمين الماء والكلأ ، لهم ولمواشيهم حتى فصل الامطار التالي . وعندما تهطل الامطار ، تتغير معالم الحياة كلها . فلا يعود هنالك حاجة للاسفار المضنية الى الآبار النائية . وتخضوضر السهول ، ولا يعود هنالك من ضرورة لتجشم مشاق السفر والتنقل بحثاً عن الكلأ . فتتحسن الصحة العامة ، وتمتلىء الاجساد وتسمن ، وترق الطباع . وتسود الراحة والطمأنينة مكان الكفاح المستميت المستمر مع الطبيعة القاسية في فصل الجفاف .

وفي هذا الفصل بالذات ، يلتفت الصوماليون الى هوايتهم المحبوبة ، هواية نظم الشعر وانشاده . فمطالب العروض والتقيد بالقـافية والوزن ، والذوق الثقافي الرفيع لدى السامعين ، تجعل من نظم الشعر مهمة عقلية وفنية هـامة . فقواعد التجنيس مثلا ، تحتم على الشاعر أن يستعمل كلمة تبدأ بقافية معينة في كل نصف شطرة من القصيدة ، وقد تكون المهمة عسيرة حين تبلـغ القصيدة مائة بيت . وبالاضافة الى هذا ، فلا بد من اتباع نموذج معين من القـافية والسجع . ويتطلب السامعون دائماً صوراً شعرية رائعة وخيالاً واسعاً واسلوباً جيداً قوياً . فالشعراء الموهوبون ينظمون الكثير من الشعر المؤثر ، ولا وجود للشعراء المحترفين . فالشاعر الذائع الصيت يصل دائماً الى أسمى مراتب الاحترام والتقدير في طول البلاد وعرضها ، يحسده عليها الكثيرون من شعراء أوروبا .

وقد تؤدي القيود الشكلية في الشعر ، في كثير من الأحيان ، الى غموض في التعبير والاسلوب والصور الخيالية النابية الغريبة . وكثيراً مانجـد في شعر الشعراء غير المعروفين ، كثيراً من التعابير غير المناسبة المحشورة التي لجأوا الى استعمالها عندما خانهم الالهام . فوضوح المعاني يشوق الصوماليين دائماً . وقد تكون هذه المعاني مثار جدل لاينتهي . وقد تضفي جمـالاً على فن الاستماع للقوافي الجميلة الرائعة .

ومع تعدد ألوان الشعر الصومالي وأساليبه ، فان الشعر الراقص لايحظى بالاهتمام الفكري اللائق ، وان كان شيقاً وهـمراً . ويبذ هذا النوع ، الشعر العاطفي . شعر الحب والغزل ، والأغاني العاطفية التي تتكون عادة من العبارات القصيرة . وصار من الممكن جداً أن يتجه الراشدون من الصوماليين

الى نبذ هذه الانواع من الشعر ، كما يفعل معاصروهم في العالم الخارجي ، نحو الأغاني المائعة الجوفاء .

والقصيدة الصومالية ، عندما تنظم وتلقى لأول مرة ، تكون عادة تعبيراً عن الحياة الواقعية وتصويراً للمشاعر والأحاسيس التي يشعر بها الشاعر ، أوتحليلا لأوضاعه وأوضاع عشيرته . انه نظمها لغرض خاص وفي مناسبة معينة . وتعتبر هذه الظروف جزءاً لايتجزأ من القصيدة . واذا ما أنشدهـا الشاعر في أمكنة يجهل أهلها الوقائع التي يشير اليها ، يحاول جهده أن يوضحها لهم . ومع مرورالزمن تتلاشى ذكرى الحادثة بين أفراد عشيرة الشاعر ، لذا يقوم المنشد باستخدام حصافته لمرفة ما اذا كان يتوجب عليه بأن يلقي عليهم درساً في التاريخ . وقـد لايفوت موضوع القصيدة المحلي الصرف ، فرصة احرازها الشهرة الواسعة اذا كانت جيدة السبك رائعة الصور . وقد يعتبرها بعضهم بمثابة تعليق على الأخبـار ولكن بصورة شعرية . فالانسان في وقتنا الحاضر يمل له الاستماع الى الأخبار وقد تصبح هذه الأخبار في الغد ، تاريخاً أما الشعر فيظل دائماً موجوداً .

وقد يعمد الشعراء الصوماليون الى نظم الشعر من اجـل اثارة المنازعات واذكاء الحمـــاس في الصدور او لاقرار السلام او لتوبيخ المترددين والمتلكئين والطائشين . وقد ينظمونه للجأر بالشكوى ووصف واقعة معينة مثل تلك القصيدة التي نظمهـــا احد زعماء حركة الدراويش ، السيد محمد عبد الله حسن الملقب بالملا المجنون ، عندما اهدى فرسه الى احدحلفائه الاشداء . كان هذا الزعيم الوطني العظيم شاعراً كبيراً ، استخدم مواهبه كسلاح فعال للدعاية في حربه ضدبريطانيا وايطاليا والحبشة . ويذكر انه كان يصدر تعليماته الى اعوانه السريين بصورة قصائد لاتزال بعضها باقياً ومحفوظاً . وانتشرت انتشاراً كبيراً بين الفئات الشعبية . وهذه قصيدة نظمها للتنديد ببعض ابناء وطنه الذين انضموا لصفوف الاعداء .

اصيخوا السمع لنداء المؤذن ، انه يدعو الشعب الى الصلاة ،
فكروا بالله الذي خلق الناس وتذكروا اولئك الذين تنكروا لاوامره ونواهيه ،
فكروا بالانبياء ، وباولئك الذين لايتبعون الأولياء
فكروا باولئك الذين حملوا السلاح ضد زعمائهم وقادة شيعتهم ،
اذكروا الذين ارتموا في احضان المستعمرين ويعتبرون الاوروبيين اقرباءهم ،
فكروا بالذين ارتضوا طواعية ، أن يخدموا أغراض الكفوة الدنيئة ،
تذكروا الذين تبعوهم وتذللوا لهم وافقوادون أن يكونوا مكرهين ،
تذكروا الذين يعتبرون مليك أباً لهم يرعى شؤونهم ،
اذكروا اولئك الذين اصبح الاحباش آلهتهم ، يصلون من اجلهم ،
تذكروا الذين قاوموني وطردوني من ارض احدادي كأنني وحش بري
ولا تنسوا اولئك الذين دفعوا بي الى رمال الصحراء المحرقة .

كثيراً مايقول الصوماليون بأن الشاعر الجيد المطبوع ، يستطيع بأن يزرع بذور السلام أو الحقد والكراهية . ان في مقدوره كسب الأصدقاء بالمديح والتقدير ، وتعميق العداوات القائمة بين أفراد الشعب وفئاته المختلفة ، أو دفعهم في طريق حياة جديدة . في الريف ، داخل البلاد ، كثيراً مايقوم الشعراء بدور الناطقين باسم عشائرهم في الخلافات التي تشجر بينهم وبين القبائل الأخرى. وكثيراً ماتعمد القبائل الى صياغة المعاهدات والاتفاقيات نظماً . فليس من المستغرب أن يرقى الشاعر الى مرتبة زعيم القبيلة ، اذا لم يكن قد أصبح زعيماً من قبل .

ان التاريخ المحلي الذي يتضمنه الشعر الصومالي هائل ، الا ان المؤرخ

بحذر بالشفقة والعطف حين يحمل تبعة التوصل الى الوقائع في متاهات الخلافات والمخالفات القبلية ، التي أضفت عليها الصور الشعرية والمبالغات والمغالاة في الاطواء غموضا مابعده غموض.

وفي حالة عدم تدوين تاريخ القبائل الصومالية ، يظل الشعر المصدر الوحيد الذي نستقي منه مثل هذه المعلومات ، بقطع النظر عن تميز الصوماليين بالذاكرة القوية ومعين الذكريات الذي لا ينضب.

اننا اذ نعرض الى هذا اللون من الشعر ، لانهدف الى غاية تربوية خاصة او غرض تثقيفي معين. فعلى شباب القبيلة الذين بدأوا يتلمسون طريقهم الى عالم البالغين الحافل بالشؤون العامة ، ان يهضموا الكثير من هذه المعلومات المفيدة بشكل يسهل تذكره واستيعابه. ولا مندوحة من ان يتأثروا بالكثير من المطالعات والاراء الفلسفية المبعثرة هنا وهناك في كل الشعر الصومالي . ويتوجب عليهم كذلك بأن يوجهوا الانظار الى القيم الادبية ومزايا التروي والشجاعة والوفاء .

ففي البيئة القبلية في الداخل ، لا يقتصر قرض الشعر وتذوقه على مجموعة خاصة من الناس . انه شائع ، يدور على ألسنة الجميع ، ينشدونه ويرددونه حول نيران الخيام وفي كل اجتماع يعقدونه في ظلال الاشجار . والجدير بالذكر ان الشعر لا يتسم بالانعزالية ، لا في القرى المنفصلة ولا بين القبائل المختلفة ولكنه يمتاز بسرعة الانتشار في كافة المناطق انتشار النار في الهشيم . فسرعة انتشار الشعر ، عبر سهول « قرن افريقيا » تحمل الصوماليين على الاعتقاد بأنه يطير على اجنحة الرياح او على متون الجن . فالقصيدة التي تنشد في قرية نائية من قرى الصوماليين الرحل، قد تشق طريقها عبر مناطق مترامية تزيد مساحتها على ثلاثين او اربعين الفاً من الاميال في غضون بضعة اشهر او اسابيع . والناس الذين يلتقون اثناء السفر وفي

التجمعات والمراكز التجارية ، يتناقلون القصائد. ان فراغ افكارهم من المشاغل والهموم التي تساور غيرهم من شعوب العالم، يكون لديهم معيناً من الشعر لا ينضب. وقد يستمرون الليالي الطوال في روايته وانشاده دونما كلل او ملل . وقد نجد في زوايا ذاكرتهم القوية القصائد التي نظمت حديثاً الى جانب أخرى يعود تاريخها الى ماقبل قرن من الزمن وانتقلت من رواية الى اخرى عبر السنين التي كرت ومرت .

ولاشك بان تميز القوافي والاوزان بالعنف ، ساعد كثيراً على وجود مثل هذه الذاكرة القوية فقد نجد بين رواة الشعر الصومالي من يستطيع ان يحفظ قصيدة من مائة بيت بعد سماعها مرة واحدة . بينما نرى الاخرين يقفون الساعات الطوال في الاستماع الى شاعر ينشدها او راوية يرويها .

وكثيراً ما تكون اللذة التي يشعر بها الصومالي وهو ينشد الشعر ، الحافز له على بذل المزيد من الجهد في حفظه . وقد تكون لديه غاية اخرى ، مثل كسب الاصدقاء واحراز الشهرة ، تدفعه الى انشاد الشعر وتكراره امام المستمعين . وفي مثل البيئة الصومالية ، يعتبر كسب الاصدقاء والحلفاء مهنة يتقنها كل ربيب صومالي. فالصومالي تواق الى التعرف على من يلجأ اليه وقت الشدة او الحرب . فهو يدرك تمام الادراك قيمة المشاعر الودية ودفء الاحاسيس النبيلة التي يبعثها الشعر الجيد الذي يلقى القاءاً رائعاً .

فبالاضافة الى الموضوعات الشيقة ، والنواحي الاجتماعية القيمة ، التي يعالجها الشعر الصومالي ، فان له الفضل كل الفضل في خلق المستوى الثقافي العالي في التحدث . وبما ان اللغة الصومالية ليست لغة مكتوبة ، فلا وجود للمؤثرات المعروفة في اللغات الاخرى: فلا صحف ولا كتب أو روايات تحدث الفجوة المعهودة بين لغة التخاطب ولغة الكتابة . فالجميع في الصومال يدركون بان الشعر

أسمى اشكال لغة الحديث . ولهذا يمكن القول بان في الشعر الميزان الثقافي للمجتمع حتى بالنسبة للذين لا يميلون اليه . فهنالك اسلوب راق من الحديث في المقابلات العامة . واقتباس الشعر والاستشهاد به وبالامثال السائرة المقفاة ، يعتبر الدليل على الرقة والفصاحة والتهذيب .

فالفقر اللغوي والابتذال في الحديث اللذان نلمسها في الاوساط الصناعية في هذه البلاد لانجدهما بين عامة الناس في الارياف أو بين رعاة المواشي والاغنام والجمال في داخل الجمهورية الصومالية الذين بامكانهم التعبير بايجاز واتقان وفاقاً لمتطلبات الظروف والمناسبات المختلفة بمهارة ودقة بالرغم من فقر محيطهم المادي .

ولا شك بأن هذا الوضع سيتبدل بصورة تدريجية ، لأن فرص الثقافة قد تطغي على جوهر المواهب الريفية . فسحر الحياة الراقية لايمكن مقاومته طويلاً حتى بين المحافظين المتزمتين من سكان الأرياف . ولا يستطيع أحد بأن يتنبأ بمصير فن الشعر واستطاعته الصمود أمام اغراء الأسلوب الثقافي الحديث . ففي المدن اليوم ، حيث أثر الثقافة العربية والاوروبية أقوى منه في الداخل، يقل انتشار الشعر التقليدي وان كنت تسمعه يروى وينشد في بعض المقاهي والاجتماعات العامة . فمنذ الحرب العالمية الثانية ، استبدلت الموضوعات الشعرية التي كانت تدور حول الخلافات القبلية ، بموضوعات أخرى تتعلق بالسياسات الحزبية . فالحزب السياسي يهمه كثيراً أن يجد شاعراً يكرس جهده لقضايا الحزب . والقصائد التي تمجد السلاطين وزعماء القبائل أخذت تتلاشى وتختفي ، مفسحة المجال لتلك التي تشيد بالحزب وتعظم زعماءه وتمجد رجالات الحكم . وهكذا نجد ان الازمات السياسية قد بدأت تتفجر من جميع النواحي . وقلما يتزل النقاش الى مستوى البذاءة الذي تميز به الشعر الأوروبي في القرن الثامن عشر ولا سيما شعر الهجاء

في بريطانيا . فقد أخذ الشعر يُستخدم سلاحاً في إسداء النصح، وكيل المديح، وتوجيه التوبيخ أو التهديد المعنوي .

ان الشعب الصومالي من حيث هو شعب واع سياسياً ، بدأ يولي الشؤون العالمية المزيد من اهتمامه . فالاذاعات أخذت تزود الشعراء بمادة زاخرة مستفيضة، وبحوافز جديدة للتعليق على أوضاع العالم . وأجهزة الراديو التي تملأ المتاجر والمراكز التجارية الثانية أصبحت مراكز تجتذب الناس . وحتى قبل ظهور أجهزة الترانزستور كنت تجد أجهزة الراديو التي تعمل على البطاريات الجافة الصغيرة ، تحمل على ظهور الجمال . واليك أبياتاً من قصيدة نظمها شاعر صومالي بمناسبة حرب السويس مما يدل على مدى اهتمام المواطن الصومالي بالحدث الخطير وان كانت الصومال غير مشتركة فيه :

ايها الناس . ان العالم الجميل يوشك ان يدب فيه الفساد ،
ان الدول التي اجتمعت في لندن كانت المسببة للازمة ،
لقد أعد كل من الغرب والشرق العدة ، لخوض غمار المعركة ،
لاحظوا اعتزاز الصينيين والعرب ،
انظروا الى نهرو وهو يدير المفاوضات ببراعة ومهارة ،
لقد جلب الروس السلاح والذخيرة الى كل مكان تغرب فيه الشمس ،
لقد استنفرت القوات البحرية ، انظروا الى ايدن يتيه زهواً وغروراً ،
ودالس يدفعه دفعاً الى الحرب ، مع أنه لا يريد الاشتراك فيها ،
والفرنسيين الذين ساقهم الحسد وأعماهم الحماس فأخذوا يتوقون الى هدير المعركة .
فاذا لم تتدبر الامم المتحدة الامر باتخاذ قرارات حاسمة هامة ،

فسيحدث قنال السويس انفجاراً عالمياً مويعاً ،

ان اولئك الذين تسببوا بقيام هذا الوضع لابدر كون قيمة حياتهم ،

فاذا ما اسقطت الطائرات احمالها من القنابل الفتاكة ،

واذا ما استمر هدير المدافع واطلاق الرصاص وانفجار القذائف ،

واذا ماخرجت الغواصات من مخابئها ووقفت وجهاً لوجه ،

فسيملأ الدخان الاجواء وستغلي المياه ،

وسيكون النصر حليف أحد الجانبين وسيمنى أحدهمابالهزيمة ...!!

ما أرهب مشهد الدخان وما اعظم الدمار الذي سيحدث ،

أيها الاله القوي القدير ، انقذنا من الصواعق الهادرة المدمرة .

فمحطات الاذاعة في الصومال ، تجد في الشعر معيناً لا ينضب من البرامج التي لايتعب الناس من الاستماع اليها . فكم من مرة تنشد القصائد الرائعة وتذاع ؛ فهذا شعب مارس النقاش واتقنه ، وحتى الشجار بصدد تفسير بيت من الشعر ، لا يتورع عنه . فالشعب الصومالي مستعد دائما لقبول الابداع والتجديد في الشعر ، ويقدر الذكاء ويعتز بالخيال المبدع الخلاق ، ويطرب للصور الشعرية الرائعة . ويعمد الى استخدام الابداع في الالفاظ اللغوية كسلاح في هذه الحياة . لأنه يدرك تمام الادراك قوة الكلمة واثرها الخالد :



شمس النهار

النصّ الأدبي لمسرحيّة
توفيق الحكيم

بقلم نبيل فرج



نشر توفيق الحكيم في جريدة الأهرام (١) مسرحية « شمس النهار » التي افتتح المسرح القومي بها موسمه الأخير ، وهي تقع في ثلاثة فصول وخمسة مناظر .

وشمس النهار هي بنت السلطان نعمان التي رفضت أن تتزوج من يتقدم اليها الا بشرط أن يفتح الباب أمام جميع الناس ، وتقوم باختيار من تراه أهلا لها من الخطاب .

ولا شك أن هذا الموقف جاء بمثابة احتجاج على الحياة في القصر التي تتضح لنا منذ رفع الستار . لقد بلغ الفساد في الدولة أوجه . فالوزير لا يعتمد على مرتبه الرسمي وحسب ، بل يأخذ كل مايستطيع أخذه ، طلباً لحياة المتعة وسد احتياجات الأسرة . وهو ليس الوحيد ، فان المملكة برمتها من كبارها وصغارها تتخذ نفس الاسلوب .

الوزير — ... وأنت يامولاي الذي أردت ذلك .

السلطان — أردت ماذا ؟

الوزير — قلت : هذه هي المرتبات الرسمية . وبعد ذلك كل واحد وشطارته ...

فكأن السلطان أس البلاء المنتشر في المملكة .

وقد كان هذا السلطان يعاني من مشكلة لا يجد لها حلا ، شغلت معظم الفصل الأول . هذه المشكلة هي ابنته شمس النهار التي لا يغريها في الزواج ، كأختيها من قبل وككل بنات السلاطين ، مال أو جاه . لقد صممت على أن

(١) الملحق الاسبوعي لجريدة الاهرام . اعداد : ٤ ، ١١ ، ١٨ سبتمبر ١٩٦٤ .

تقف في مواجهة هذا العالم الكاذب العقيم – كما وقفت أنتيجون أنوي مع الخلاف – تصنع حياتها بنفسها ، حتى اضطر السلطان الى الرضوخ مرغماً .

وكانت الأميرة تسأل كل من تقدم اليها سؤالا واحدا يسيرا ، قررت أنه لا يمكن أن تهب حياتها لأحد دون أن تعرف منه الاجابة عليه . هذا السؤال : « ماذا أنت صانع بي اذا صرت زوجتك ؟ » . وكل من فشل في الاجابة يجلد ثلاث جلدات .

وما أجمل الردود التي قيلت لها وأروعها : ستعبد ، وتلبى كل طلباتها ، ويشاد لها قصر على عمد من المرجان في جزيرة واق الواق ، وتوضع في العينين وتحمى بالرموش . . الخ فلم تكترث بشيء من هذا القبيل على الاطلاق ، ووقفت على الأرض الصلبة ازاء الاحلام المحلقة ، مما أثار الظن بأن الاميرة تعبث . والحقيقة أنها جادة تماما في البحث والاكتشاف .

ثم تجد بغيتها في شخص حقير يدعى قمر الزمان ، لا يخطر على البال أنه سينال القبول . توفرت فيه بعض نزوعات شمس النهار من اعطائها حريتهـــا كاملة ومسئوليتها واثبات وجودها . وقد كونت مواقفه معها الحدث الرئيسي في المسرحية ، رجل ذكي يقف هو الآخر على أرض الواقع الصلبة . شديد الشبـــه من نواح بشخصية « أبي الفضول » في مسرحية الفريد فرج « حلاق بغداد » التي عرضها المسرح القومي في الموسم الماضي .

الا ان ابا الفضول الذي ملأ جنبات المسرح أشد جســامة من قمر الزمان وشمس النهار ، واشحذ وجدانا . وفي صراعه مع العالم الخارجي كان محتدما . .

اما قمر الزمان فصورة جميلة لابن الشعب الجريء « الفهلوي » بـــكل

كبريائه وطموحه ، الذي لايحسن شيئاً ويحسن كل شيء . لايملك من الدنيا الا نفسه ولا يغريه الجاه او المال او النفوذ . يؤمن بأهمية ما يصنعه الانسان بيديه . يبدو لنا بسيطاً في مظهره ، ولكنه ثري الاعماق ، سخي النفس ، يفيض بالحيوية .

لعل قمر الزمان ، في اقرب التفاسير ، ان يكون نموذجاً للرجل الاشتراكي ، وشمس النهار نموذجاً للمرأة في المجتمع الجديد ، صاغها توفيق الحكيم بقلم الفنان الملهم اكثر من قلم المفكر العميق الذي تصطرع شخصياته اثناء احتكاكها بالحياة وتصطدم الافكار بعضها بالبعض الآخر .

لم يأت قمر الزمان ككل الذين أتوا طمعاً في الاميرة ، انما لكي يستخدم حقه المشروع . ومع اقتناعه بأن الحاكم لابد ان يخرج من المحكوم ، فانه يرفض — في حالة زواجه بالاميرة — ان يشتغل حاكماً ، لانه لم يكن محكوماً جيداً .

ولو أننا عدنا الى « السلطان الحائر » لوجدنا أن نفس المشكلة طرحت على لسان الوزير (مكتبة الاداب ومطبعتها بالجماميز ، ٥١) وهي ان « العبد لايجوز له ان يحكم شعباً حراً » .

ايماءة صريحة في « شمس النهار » لحالة الشعب من جراء مظالم الاستعمار التركي والاوروبي ، واغتصاب الحكام حقوقه ، ومعيشة الشظف في الظلام ، تدحض وقائع التاريخ رأي الحكيم فيها .

ان قمر الزمان يؤمن بأن قيمة الانسان مرهونة بعمله ، لذلك فهو يوجه نفس السؤال الى شمس النهار : ماذا هي فاعلة به ان تزوجها ، لانه لايعدو ان يكون حفنة من تراب ، يستطيع الصانع الماهر ان يصنع منه انساناً . وباعتبار انه الان حفنة من تراب يرفض الزواج الى ان تتم له انسانيته اولا .

وليس ثم طريق الى تحقيق ذلك سوى ان تترك شمس النهار التي منحها الثقة قصرها خلف ظهرها ، وتخرج مثله الى الحياة ، تكتشف طريقها بسيف جندي بسيط وثيابه .

وتبدأ في الفصل الثاني رحلة شمس النهار مع قمر الزمان . فنلقاهما في الخلاء على مقربة من نهر واشجار ، العالم حول شمس لاول مرة جديد بهيج ، يتعاونان لئلا يكون احدهما عالة على الآخر .

وخلال هذا النظر ينثر توفيق الحكيم ، بشكل يقترب من المناظرة المباشرة ، كثيرا من افكاره التي يمتلىء بها الوقت الحاضر . ان مسرح الحكيم كما هو معروف مسرح افكار في المحل الاول ، اكثر منه مسرح حياة ، رغم أنه لايمكن انكار ان شخصياته التي تتنادى دائما بالحب مجبولة من لحم ودم . وبسبب هذه الافكار تخلف قراءاته تأثيرا أعمق .

من هذه الافكار ضرورة اشتغال المرأة بجوار الرجل التي تبدت في اشتراكها في اعداد الطعام ، وما اهتدت اليه شمس من ان السيف البتار يمكن ان يستخدم في صيد السمك من النهر ، اى تحويل أسلحة الدمار الى ادوات مفيدة ، وقدرة الانسان على التكيف مع الظروف ، وتحويل العلم النظري الى عمل ، وان ما يصنعه الانسان جزء منه ، ومسئولية الفرد الكاملة عن الغير .. أفكار تنبع آنا من الاحداث ، تتلقاها تلقياً عذباً ، وتتوجه في آن آخر الى النظارة اكثر مما تتوجه الى الشخص الآخر .

وبينما هما على هذا الحال يقترب شخصان ، فيسرعان بالاختفاء . ومن مكمنها القريب يريان معهما صرة يريدان تخبئتها تحت الشجرة لاقتسام مابها . وبعد خبطها يعرف قمر الزمان وشمس انها ملاحظ خزانة الملك حمدان ومساعده ، وأنهما ليسا

الوحيدين السارقين في دولة حمدان ، فكل واحد في هذه المدينة يده في جيب الآخر مما في ذلك الملك الذي يؤول اليه في النهاية كل شيء « جيوبنا كلها في يد الامير » ، مما يدفع بالحدث الدرامي الى الأمام ويطوره ، ويبرز ملامح شخصية شمس اوضح ماتكون ، ويتكامل كيانها .

أصرت شمس النهار وقمر الزمان اما الى رد المال الى الخزانة ، والتستر على زلة المتهمين (مقابلة الشر ببعض الخير ـ احدى أفكار الحكيم) ، وأما الى تسليمها الى العدالة . وبالطبع لاتجدي اغراءات اللاحظ ومساعدته لها باقتسام الغنيمة لأنهما نذرا نفسيهما لأداء الواجب الذي ترى شمس ان مثوبته تكمن في الجواهر التي تحلي دخيلة الانسان ، تشع وتضيء اذا استمع الى صوت الضمير او صوت العقل .

بذلك يسوي الحكيم بين الاثنين ، الضمير او العقل ، في تحقيق الحيـاة المثلى .

ويتألف الفصل الثالث من منظرين ، تدور احداث المنظر الاول في قصر الامير حمـدان الذي لاتختلف مملكته عن مملكة النعمان التي تركتها شمس ضائقة الصدر .

في هذه المملكة الجديدة نجد نفس الفساد ، بالاضافة الى مشكلة السأم التي يعانيها الامير من حياته الرتيبة : ماعاد يستطعم او يبتهج لترفيه ، رغم كثرة مالديه من الكنوز : « المال يملأ خزائني ، والحياة قاسية بالنسبة لي ايضاً » . ان الامير ، وهو من هو ، يعاني من الوحدة ، فقـد كان لايزال عزباً ، ولن يطلب زوجاً الا شمس النهار التي تتناهى اليه اخبارها .

ولما كان غير واثق من قبولها ، راح يسائل تابعه في حـيرة القلق : أي شيء يمكن أن يغري المرأة لينفذ به الى قلب هذه الاميرة العنيدة ؟

وها هي شمس النهار تأتيه على قدميها مع قمر الزمان وتقف بنفسها على بعد ذراع منه، في ثياب جندي مدجج بالسلاح وباسم مستعار هو بدر، كي يقرأ العدالة برد ماله المختلس. فمم يسفر هذا اللقاء؟

يقع بدر موقعاً حسناً لدى الامير بسبب رجاحة عقله. لذلك يعينه حارساً خاصاً له ليفضي له بحقيقة الاميرة التي ادعى انه يعمل عندها حارساً، الأمر الذي يوقظ في قمر الزمان طبيعة الانسان، ويستفزه ويحتج عليه، فيتيقن لدينا تواً ان الحب مس قلبه، وانه متيم برفيقته على نحو صوفي بريء، وان عواطف الانسان لايمكن قهرها بحال.

أما المنظر الثاني فنرى الامير حمـــدان وقمر الزمان وشمس النهار معاً في الخلاء، وقد اشتد التنافر بين الاولين بحيث لم يعد الواحد يستطيع تحمل الآخر. وبعد اتجاه الامير حمدان الى قصر النعمان من اجل ابنته، ينشب عتاب حام بين قمر الزمان وشمس النهار، نفهم منه ان قمر هو، في واقع الأمر، الذي صنعها، لا هي التي صنعت منه انساناً.

أجل، فلولاه مابرحت شمس النهار قصرها، ولما احتكت بالعالم ونالت هذه الخبرة: (الشعب اذن هو الذي يصنع الحاكم).

ولكن قمر الزمان يفزع من اهتمام شمس بالامير حمدان، ويصفه وصفاً يائساً.

قمر ـ نعم .. الاميرة والامير .. هاهي الاوضاع قد عادت الى اصلها .. وتتهدم في لحظات كل اجتهاداته.

وهذا غير صحيح. ذلك أن الاميرة محيرة القلب بين الاثنين: الامير

« الذي صنعته بيدي ، كي يصنع بدوره بلده ويغير شعبه » ، وقمر الذي لانعرف عنه شيئاً .

عندئذ يكشف قمر لها عن حقيقته المرة . انه بلا انساب ينتمي اليها ويفتخر بها .

قمر ـ (يلتفت اليها بعنف) أولاً اسمي ليس بقمر ... ولا قمر الزمان ... ولست بأمير . ولاشيء على الاطلاق . ولا أعرف من هو أبي ، ولا من هي أمي . نشأت بين الناس في حي بسيط .. الخ .

فماذا يكون وقع هذه الكلمات على الاميرة ؟ لاتزداد الا تعلقاً به وهياماً ، وتمسكاً برباط الزواج . غير أنه يأبى ان يستسلم للعاطفة ، هو الآخر ، ويشردها معه طول حياته . يأبى أن تهبط شمس من عليائها الى الحضيض ، كأنه بيجماليون يستنكر نقص الحياة التي نبضت في تمثاله الجميل حالا تيسا على كمال المثال (نفس المعنى الذي يتردد في كثير من أعمال الحكيم) ، ويوجهها برواقيته ، أمام الاختيار الصعب بين الواجب والعاطفة ، الى اصلاح بلدها .

شمس ـ وسعادتنا ؟

قمر ـ فلنفكر في سعادة الآخرين .

وهو أحد الدروس التي سبق ان علم شمس النهار اياها ، تردد في حوار مركز . بهذه التضحية ينتصر قمر الزمان على نفسه أيضاً . وتنتهي المسرحيـة باستجابة شمس النهار الى صوت العقل لا القلب ، وايثار الوطن على نفسها .(١)

أرادت شمس في البدء أن تمارس حياتها على نحو مغاير ، يكاد يكون مثالياً

---

(١) اجرى توفيق الحكيم تغييراً في النص المقدم للمسرح القومي . وهو خارج عن حدود هذه المقالة .

من جهة تضاده مع البيئة وفي مضمونه ، فقابلت ما قابلت ، واصطدمت بالواقع ـ لم يكن الصدام عنيفاً ـ وحين جابهت عالماً سيئاً في الداخل والخارج ، تغلبت عليه بفضل قمر الزمان ، ثم اتجهت الى القصر ليتاح لها الاصلاح ، وان كنت أرى عودتها الى القصر ، في هذه المسرحية ، دليل على انها لم تستطع ان تتحدى عالمها المحدد بالزمان والمكان . ويمكن ان نرى نفس المعنى في افتراق قمر عنها : « انا لا استطيع الحياة في القصور » . وقد ظلت أطراف الصراع الباطني اساساً في حالة تعادل .

وكما عاد « أهل الكهف » في هدوء الى مأواهم بعد أن انكروا الحياة والناس من حولهم ، تعود شمس النهار ايضاً من محاولة التغلب على عالمها ، ولكن بوازع مختلف ، وفهم أرحب ، وارادة اكبر من ذي قبل .

ويفترق البطلان الحبيبان : شمس النهار وقمر الزمان ، على ابتسامة حزينة ، يبقى اساها عالقاً بنفوسنا أمداً طويلا لاننا أحببناهما معاً من خلال معايشتنالهما ، ومخالطة مشاعرهما النبيلة .




قصة

كانت ساحة القرية تعج بالناس، بُعيد عصر اليوم الآخير من العيد.. وكان هذا ينزف ، مثل الناس ، فقد أنهكوه كما أنهكهم ، وأمست الساحة أقل زهواً .

وفي نهاية الدرب ، حيث يقطعه الأفق ، بدت نقطة سوداء على يباس التراب ، لم يرها أهل القرية ، ولا هؤلاء الذين تناثروا على الساحة ، الا عينان ، أتعبهما توقع طويل ، لحاها باهتمام . . .

كانت مجموعة من الفتيات يجلسن مسترخيات على تراب ركن من الساحة ، يقابل منحنى الطريق الذي يذهب الى المدينة ، وكن يقامرن على بقايا فرنكاتهن بوساطة كومة من التراب . كان دور غازية في التوزيع الآن . . فخلطت الفرنكات بالتراب ، ثم وزعته كويمات على عدد المقامرات ، هي ورفيقاتها الثلاث . حدقت الفتيات الى الكويمات في حيرة ، ورفعت غازية عينيها المتعبتين وشخصت بهما الى أعلى الطريق .. فلمحت تلك النقطة السوداء ، وخفق قلبها بشدة حتى شحب وجهها .. ثم نهضت تمد النظر الى بعيد ، وخطت الى الطريق غير آبهة لاحتجاج اللاعبات ، وتوقفت بعد خطوات أربع او خمس . كانت النقطة ضئيلة ، وساكنة . . ولكنها استطاعت أن تشد غازية اليها حتى التصقت بها . أينتهي الضياع ؟ « لقد نذرتُ سبع شمعات للخضر . »

وإذ تنبهت الفتيات الى شاغل رفيقتهن قمن الى جوارها متطلعات الى بعيد. وتساءلت فاطمة:

ـ أترين شيئاً ؟

وعلا صوت من داخل الساحة ، ينادي :

ـ مابالكم ياشباب ؟ هل تعبتم ؟ هيا الى الدبكة من جديد .

وفي الحال ترك الاطفال اللعب وهرعوا الى وسط الساحة حيث شرع الشباب في التأهب للرقص ، وقام الطبال ، قبل أن ينال كفايته من النوم ، الى طبله يعلقه برقبته ، في حين أخذ الزمار مزماره وراح يجرب النفخ فيه . . وبعد دقيقة اصطخبت الساحة بالضجيج ، واستقطبت حلقة الدبكة المفتوحة اهتمام الجميع فتحلقوا حولها ، وكان الاطفال يحاولون الاندساس داخل الحلقة ، للمشاركة في الرقص ، فيطردون برفسات من أرجل الراقصين .

وبقيت غازية وحدها ، تترقب النقطة السوداء أن تتجسم .

لقد ذهب الى المدينة ليعمل ويملأ جيبه بالنقود . . وكان موعدهما أن يلتقيا في العيد . كان يجب أن يأتي يوم الوقفة . ماكان لائقاً به أن يجعل منها سخرية رفيقاتها : « هيا ! يالك من ساذجة ! أتصدقين ؟ هناك بنات المدينة السافرات الناعمات ، بزينتهن وعطرهن . » ولكنها تصدق . . انه يحبها ، وقد وعدها .

كانت النقطة السوداء تكبر في بطء شديد .

وتبدلت حلقة الدبكة بأخرى ، انضمت اليها بضع فتيات . وكان صاحب صندوق الفرجه يجلس على مقعد النظارة الخشبي يدخن تبغه ويراقب الراقصين بسرور بالغ ، في حين ظل بائع الحلوى يلمع في لفت نظر الاطفال الذين استنفدوا كل امكاناتهم المحدودة . سأله صاحب الصور :

ـ ألم تشبع ؟

ـ لا تحشر أنفك .

فضحك صاحب الصور ، وهو يصفع فخـــذه ، فبدت أسنانه السوداء طويلة متباعدة ، وقال :

ـ يفضح ريشك ، مثل اليهودي !

فنبر صاحب الحلوى ، وهو يتابع اهتزازات صدور الفتيات الراقصات :

ـ خسئت ، قبحك الله !

واذ ذاك جاء المختار ، يحف به بعض الرجال الكهول ، ومعهم ساقي القهوة يحمل دلوته .. فهتف له الراقصون متوقفين عن الدبكة ، وراحوا يتجرعون القهوة المرة بنشوة ، وهم يتمنون للمختار طول العمر ودوام العز . وبعد ذلك أمسكوا به وأرغموه على الانخراط في حلقة الدبكة وارتفع قرع الطبل يرعد الجو .

ووضح أخيرا ذلك الجسم ... رأت غازيه انسانا يسير على ساقين . كانت تريد ان تعدو لاستقباله ، لاختصار تلك المسافة ، الانتظار بات مميتاً الآن .. بيد ان ثمة أناسا هناك .. وأمامهم لايمكن لها أن تفعل كل ماتريد .

اقترب صاحب الحلوى من الساقي ، الذي كان يقتعد صخرة صغيرة ، قريبـــا من حلقة الدبكة ، وسأله :

ـ أولسنا في الحساب يا أخ ؟

ـ أهلا وسهلا ، الدلوة كلها على حسابك .

ـ تعيش ، يا أبا الجود ، أنا ممتن لك .

كان طبق الحلوى فوق منصبه ، في مكانه ، مهملا .. فواتت الفرصة صبيا في العـــاشرة

ترقبا طويلا . وتسال بخفة الى الطبق ، فملأ قبضته بالحلوى وابتعد . غير أنه لم يفلت من عيني صاحب الصور ، فصرخ ..

ـ أين أنت يا رجل ، سرقوا حلواك .

فاندفع الصبي هارباً ، وعدا الرجل يريد اللحاق به ، ولكنه لم يستطع.. كانت ساقاه هرمتين ، فتوقف ، مطلقا بعض الشتائم خلف السارق .

هتفت امرأة عجوز :

ـ عيب يا رجل ! إنه فقير ، اعتبرها صدقة تزكيك ..

وقالت له امرأة أخرى :

ـ إنه ابن عبده الأخرس . أبوه لا يملك فرنكا واحدا .

ـ طيب ، طيب .. أمرنا لله .

وقال له صاحب الفرجة :

ـ أنت سيقتلك الطمع ... أردت أن تكسب فنجاناً من القهوة فخسرت كمشة حلوى .

ـ كان لازما ان يحدث هذا لتفرح انت .. انت تفرح بمصائب الناس .

كان القادم من المدينة قد اقترب الآن من غازية بحيث صار في امكان بصرها ان يميزه . لم يكن رجلها .. كان رجلا آخر ، غريباً لاتعرفه .. فأحست بالغضب ينفثأ في جسدها كله . وعندئذ انهار بصرها الى الارض مثل خرقة تمزع نسيجها من حدة الشد . ثم لم تلبث ان تبعت عينيها ، قعدت وهي تراوغ شكوكها ... لم تكن تريد ان تستسلم .. طالما ان الشمس لم تغب فالعيد لم ينته . للغائب حجة .

ومر بها الغريب متباطئاً .. فرفعت رأسها ، ورفعته بفضول .،. انه فتى من اهل المدينة . ماالذي جاء به ؟ وافلت منها سؤال :

ـ أأنت مقبل من المدينة ؟

توقف الغريب ، ورمقها بامعان ، ثم ابتسم :

ـ نعم .

خجلت من نظرته الفاضحة ، فأخفضت عينيها .
ـ أتريدين شيئاً ؟
ـ لا .
ثم قالت ، على استحياء :
ـ كنت اريد .. ولكنك لن تعرف .. المدينة كبيرة .. الناس هناك لا يعرفون جيرانهم كما سمعت .
ـ قولي ، ربما أعرف . ألك رجل في المدينة ؟
فازداد وجهها احمراراً . ولكنها سارعت تقول :
ـ لا .. انه أخي .. وعدنا أن يأتي في العيد .. اسمه علي .. علي مراش .
ـ هل ذهب منذ زمن طويل ؟
ـ نعم ، منذ ستة أشهر .
ـ لماذا ؟
ـ من أجل أن يعمل ويأتي بنقود .
ـ أأنتم بحاجة الى نقود ؟
ـ نعم .. لكي .. يتزوج .
ـ ها !
وضحك ، متطلعاً الى الساحة :
ـ هل هناك عرس ؟
فلحظته بدهشة :
ـ لا . ألا تعرف أن .. أننا في عيد ؟
ـ ها !
وضحك مرة اخرى :
ـ أما زلتم تحتفلون بشيء كهذا ؟

ومرة اخرى ادهشها : كم هو عجيب !

ـ نعم .. ألا تفعلون أنتم ، اهل المدينة ؟

ـ لا عيد في المدينة ياجميلة .

ـ اسمي ليس جميلة .

ـ ليكن مايكون .. انا اقصد انك جميلة .

وكبلها الخجل .. ولكن قلبها خفق كعصفور يخرج من الماء .

ـ أنت جميلة حقاً . ارفعي وجهك لأراه ، يجب ألا تخفيه .. انه نعمة .

اندست كلماته العذبة في شرايينها ، فالتهب دمها . بيد أنها قالت :

ـ عيب يارجل ! لو سمعك أحد من أهل القرية لما حصل خير .

ـ لماذا ؟ أنا أقول الصدق .

فنظرت اليه ، استطاعت أن تثبت عينيها في عينيه لحظة قصيرة ، وعندئذ ارتعدت مثل ارنب يواجه أسداً ... فقفزت مبتعدة عنه ، ومضت تنضم الى حشد الواقفين حول حلقة الدبكة. وراحت تراقب الراقصين ، وهم يتقافزون في حماسة ، متنقلة عينيها من راقص الى آخر ، مجاهدة لتزيل زرقة حلوة من سواد عينيها .. لقد اختلطت زرقة عينيه — هذا الغريب — في كل شيء تراه ... كان الراقصون جميعاً مشوبين بالزرقة ، ماعدا اعينهم التي ظلت سوداء أو بنية . والتقت عيناها بعيني فاطمة ، أخص الصديقات ، فرأتهما مبتسمتين لامعتين . صاحت فاطمة :

ـ تعالي يابلهاء .. لن يأتي .

وفي هذه اللحظة انحسرت الزرقة عن عينيها ، وحل محلها وخز اجتاح قلبها ، فحاولت أن تتماسك بعناد .

انفصل المختار عن الحلقة لاهثاً ...

ـ ما لك يامختار ؟

ـ تابعوا ، بارك الله في الشباب ، قد هرمنا .

وضحك الناس ، بينما سارعت دقات الطبل تنهي الدبكة .. فأقبل ساقي القهوة يوزع

شرابه المر على الراقصين الذين شرعوا يجففون العرق على صدوغهم ورقابهم . وتحلق الاطفال مكان الرجال يدبكون من غير طبل ولا مزمار .. ثم توقفوا عن المحاكاة عندما رأوا الغريب ، ابن المدينة ، يمر بهم ، مخترقاً الساحـــة ، وراحو يتأملونه ، وبنطاله الازرق وقميصه النيلي ذي الـكمين القصيرين .

سأل الغريب أحدهم :

ـ أين الدكان ؟

قال الطفل في حمية :

ـ تعال أدلك .

ومشى باتجاه الدكان ، فتبعه الأطفال الآخرون . ولكن الغريب تلكأ . ملقياً بنظرة دائرية فاحصة على ما حوله ... وكان كل من حوله يتفحصه بفضول محايد ، الا غازية التي أحست باضطراب أعصابها ، اذ تعثرت نظرته بها وتلبثت قليلا فوق وجهها ، فتلفتت حولها تستطلع أعين الناس قلقة ، ثم أدارت ظهرها له ، فمشى متمهلا وراء الطفل .

وعند اقتراب الغريب من بائع الحلوى ، تساءل هذا :

ـ ماذا تريد من الدكان ؟

قال الغريب :

ـ سلامتك .

قال البائع :

ـ الدكان مقفلة .. صاحبها في المدينة .

وتوقف الفتى مستديرا الى محدثه :

ـ كيف ؟ اني على موعد معه .

ـ اذا كنت لاتصدق فاذهب وتأكد بنفسك . لن يرجع قبل العشاء ، انا اعرف هذا .. لقد ذهب الى المدينة .. لم يعد لدى الناس نقود يشترون بهـا ، وهو لم يتبق في دكانه من البضائع الا القليل الذي لايباع .. إي نعم ، في اليوم

الأخير من العيد تكون النقود جميعها قد تبخرت من جيوب الناس .. اين تذهب ؟ لا احد يعلم .

فقال صاحب الصور :

ـ بلى .. انا اعلم .. انت وامثالك من اليهود يجمعونها .

ـ إني اعمل بشرف ، هلا سددت حلقك .

وسأله الغريب :

ـ أأنت يهودي .

ـ لا يارجل ، انه يكذب هذا العجوز الكافر . فضحك صاحب الصور ، واشار بيديه الى سحنة بائع الحلوى قائلا :

ـ انت تشبه اليهود على كل حال ، مارأيك ياسيد ؟ انت ابن المدينة واسع الاطلاع ، ألا يشبه اليهود ؟

قال ابن المدينة ضجراً :

ـ احقاً انه في المدينة ؟ اعني صاحب الدكان .

قال بائع الحلوى في حماسة :

ـ إي والله ، كما قلت لك . ذهب يجدد شبابه .

وغمز بعينه ...

ـ ماذا تريد منه ؟

ـ سيقدمني لاحد المزارعين ـ انا سائق جرار ، كنت ابحث عن عمل فوعد بتقديمي الى مزارع هنا يحتاج الى سائق جرار .

ـ هم . هل انت قريبه ؟

ـ نعم ، يمكنك ان تقول ذلك .

ـ انعم واكرم .

ودوى الطبل من جديد .. فاستدار الغريب . كانت حلقة راقصين من الرجال والنساء

تتشكل . والتقطت نظرته الساخرة غازية وهي تتقدم المشاركة في الدبكة ، فابتسم ، وظل يتطلع اليهــا وحدها . .

وحينما دار الراقصون بحلقتهم المفتوحة نصف دورة ، شاهدت غازية الغريب وهو يرمقها، فغطت عينيها بأهدابها . . . ثم فكرت : هذا ابن مدينة قد اعجب بها ، بل هو قد فتن بها ، فما بال علي ؟ لماذا لم يأت ليراها في العيد ؟ لقد جاهدت في سبيل أن تتهيأ للقائه في ثيـاب جديدة . هذه هي ، ثياب جديدة ترتديها من أجله ، وكم تفننت في تكحيل عينيها وتزيين شعرها كل صباح وكل ظهر ، من كل يوم من أيام العيد هذه التي مرت . . من أجله هو . فهل سحرته بنات المدينة حقا ؟ ليته يرى ابن المدينة كيف ينظر اليها إذن ليته سمع كلماته الحلوة تلك !

وفجأة اهتز صدرها . . . كانت موجة من البكاء هناك . فتركت ذراعي شريكيهــا ، وهربت . . . الدنيا تتقلص الآن . . الدنيـا لم تعد دنيا . . انها قفص صغير . . مجرد قفص صغير . وكانت الشمس توشك على السقوط خلف القرية . العيد يولي . انتهى العيد . وتوقفت خطواتها العمياء عند زاوية كوخ متداع . مهجور . . ولكنها لم تتردد طويلا ، فدلفت الى الداخل ، واسندت جبينها الى الجدار وشهقت ، فتفجر النحيب بحدة ، وتدفقت دموعها ، تغسل الكحل .

لما اختفت غازية من مجال بصره ، اقترب الغريب من صاحب الصور ، وسأله :

ـ أهذا ما يسمونه بصندوق الفرجة ؟

ـ نعم . . أتحب أن تتفرج ؟ سترى عجائب القصص وغرائب الزمان .

ـ طيب . . دعنا نر . . .



أحبك

شعر الدكتورة عاتكة الخزرجي



أحِبُّكَ فوق الذي يحسبونْ

هوى لا كما يزعم العاشقونْ

أحار بما بي وحسبي أني

عرفتُ من الحبّ ما يجهلونْ..!

أحبك وليشهد العالمون

أحِبُّكَ وليُنكر المنكرونْ..!

ألا إنّك الفَرْد في عالمٍ..

تباركتَ..وليخسأ المشركون



دعوتك حين تجنى الزمان ... فلبيت تقتص لي من خؤون
ولذت ببابك أرجو حمى ... لضعفي فكنت حماي المصون..
تعاليت سبحت يا قدرة ... تقاصر عن وصفها الواصفون
أحسك في وفي ناظري ... تباركت يا ألقاً في العيون..
ونوراً يضيء دجى وحشتي ... فأصبح في جنة من فتون
تباركت ربي أعني على ... أناس بغيهم يعمهون..!
أراهم على الشر قد أقسموا ... أما من سبيل به يهتدون؟!
أعوذ بك اليوم من عالم ... مريض به لوثة من جنون..!
أراه يعب سراب المنى ... على ظمأ مورد للمنون..
تكالب تغريه أطماعه ... ألم يكفه المال.. ثم البنون..؟!
ألا خسأت طينة خلقها ... أثام ولؤم وشر وهون..!
تباركت ربي.. جبلت الورى ... على الإثم..؟ إنهم آثمون
على اللؤم إذ روعوا الآمنين ... على الشر.. إنهم مجرمون
على الذل للجشع الأشعبي ... عبيداً ترى العز في أن تهون
تباركت ياأرحم الراحمين ... أيامن يلوذ به اللائذون
أجرني من الخلق خذني اليك ... الى كنف فيه مايشتهون
الى كنف آمن وادع ... باجوائه يخلد الآمنون



السيول

شعر علي كنعان



« يحكى أن فأرة خرقت سد مارب فانهار ودفع بالقبائل العربية الى الهجرة » .

١ ـــ قبل الهجرة

كانت الأرض لنا داراً ... وكنا في ذراها نقطف الشهد ونصطاد الوعول

سورها .. لو هاجت الريح تحدّاها له منا رماحٌ وخيول

نحمل الصيف الى خدر العناقيد ، نخبّي في هوانا كل أسرار الحقول

وعلى أدراجنا يساقط الثلج ، يغطّي ريشه البض روابينا ..

فنعدو فوقه حتى يزول

تدفىء الليل حكايانا فيصغي ... نار كأنجاته تهب ابتسامات الصغار

وفراشات على درب المواعيد وحول البئر يغزلن النهار

. . . .

ثدييَ أمّ حافلاً كانت لنا الارض ... وفردوساً ودار .

ـــ « ثم ماذا ؟

موجك المحموم لم يقذف على شطآننا غير المحار ! »

ثم ماذا ؟ ... أأفول ؟

(مأربُ) أنهارَ وما زلنا نعاني غصص العيش المدمّى

تحت أنقاض السيول !

حشرجاتُ في سراديب الهوى المخمور ، حتّى .. وصديد
وعلى السطح غرابان – من التربة الثكلى – يحومان على قبر جديد
عالم يخبو ...

أما من برعم حيّ ؟ أما من حبة تحت الجليد ؟
لِمَ لا تخضرّ في أوراق تشرين دمانا (١) ؟
ومتى ساقية الأحزان تختار سوانا ؟
لِمَ لا تبقى على أرصفة الشارع آثار خطانا ؟
ولماذا تنطفي من حولنا الأرض ؟ ...

ويكمدُ – نحاساً صدئاً – وجه السماء الطفل ، نيسان الوعود؟!
صلوات .. ضلت الدرب الى الله ، وكهان أرادوه فكان
نقشَ دينار ، فراشاً أنثوي الدفء .. كان
وغريبان يلوبان على مأوى من القش ، غدير لم يلوث ،
عنب بكر المذاق

غرقا في حمإ الليل ، وشمطاء المدينة
جدعت أنفيهما : لن يقرفا من لحم أفعى ...
سلبتها النار حتى ورقة التوت وألقتها دخانا ورماد
لن يبوحا كيف تصطاد الرفاق
ماتت الكلماتُ بالحمى فما جا في طقوس الليل غابات هجينه

---

(١) ان ما يسفحه الفلاح في أيام الخريف من جهد هو الذي يعود عليه بالمواسم الربيعية والصيفية الطيبة .

عاد (أوديب) بصيرا
ورمى أحزانه السود ، رماها خلف أسوار المدينه
لن يبوحا كيف عاد ...

٣ ــ حوار

ــ شد لي جرحي
● بلا جدوى ، بلا جدوى ، تعبنا
وانتهت أشرعة الحوف بنا في غربة روحية ... حيث بدأنا
ــ لم أعد أقوى على حمل سلاحي
● ألقه في اليم ، لن نحتاجه بعد ، سيكفي جبهة التاريخ
من أمجادنا أنّا هزمنا
وعلى أبخرة الأعشاب عشنا وصلينا .

ــ لم لا نرتاح قبل التجربة ؟
● يستوي (القبل) هنا (بالبعد) والتفاح بالدفلى .
سرير العرس ـ تابوت القتيل !

ــ جف ريفي
● ليس في أحداقنا غيمة بشرى ، أو بأيدينا اختراق المستحيل
يبست أنهارنا الخضراء ، جف الطحلب النامي على آبارنا قبل الرحيل
يبست حتى شرايين السماء
ــ تأكل النار عروقي ...
في فمي من غبرة البيدر سمٌ ، تربٌ مر ، وفي رأسي دوي ونقيق

ضمني ، لاتبتعد عني ، في هذا الحريق

● لا أطيق !

– احك لي عن أمسيات البيدر

عن قطيع راح يثغو للصباح الأخضر

● . . . .

– احك لي كيف السنونو غمست منقاوها في عرق ماء

كيف . . . كيف

يرضع الزهر الندى

● . . . .

– غن لي عاد المطر

● لا أطيق

لا أطيق

– هذه الساعة لي ، وحدي سأبلوها ، أما تلمح في الشط شراعا؟

وبداً تومي فيزهو خلف إيماءاتها قوس قزح ؟

وصدى ينهل ، بوح الغيث للأوراق ، غابي الفرح ؟

ساعتي دقت . . . وداعا !

● لاتغب ، لا لم تحن ، لا يا أخي . .

– هبت الريح . . . وداعاً . . .

● هبت الريح ؟ !

وداعا . . يا أخي

. . . . والى أن نلتقي في سكرة الريح غدا

---

* من مجموعة « مساكب الزبد » المعدة للطبع .

من ادارة (المعرفة)

١ — اهداءات

ترجو ادارة المعرفة من اصدقائها الاساتذة الذين ترسل اليهم المجلة هدية في سورية أو في الوطن العربي او المهاجر أو البلاد الأجنبية ، ان يتكرموا باعلامنا كتابياً ، عن وصول المعرفة اليهم بانتظام ، وإلا فستكون الادارة مضطرة الى التوقف عن ارسال المجلة ، بسبب الشك في صحة العنوان المرسل اليه .

٢ — المقالات

لاترد المقالات الى اصحابها ومرسليهـا ، نشرت أم لم تنشر ونرجو مراسلينا قبول عذرنا .

الى المؤلفين وأصحاب دور النشر

ان تحرير (المعرفة) لن يقصر في أداء واجبه نحو المطبوعات العربية التي تصدر في أي بلد عربي ، ويسعده في كل حين أن يقوم بهذا الواجب الثقافي القومي خير قيام . على أنه من الواجب أيضاً أن ندعو الأساتذة المؤلفين وأصحاب دور النشر الى مساعدتنا وتذكيرنا بمؤلفاتهم ومطبوعاتهم ، واهدائها لمجلة المعرفة — اذا أمكن — ليتيسر لنا الاطلاع الكامل على النتاج العربي والمشاركة في تقييمه وتقديمه لقرائنا .

— مجلة المعرفة — دمشق

الفنون

الكتاب والموضوعات

- مدينة الخالدين

لماكس ايستمان

تعريب صبحي زخور

- صاحب السعادة الطائر

للأديب الألماني كورت غوتز

ترجمة محمد حرب فوزات

مدينة الخالدين

بقلم ماكس ايستمان
تعريب صبحي زخور

انّنا نحس بأن التحري عن الجمال هو الشغل الشاغل لهذه المدينة ، وهو سر عبقريتها .



قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية وزعت القيادة العليا الحليفة على جيوشها جداول تحتوي على أسماء التحف الفنية المنتشرة عبر أوربا والتي ينبغي المحافظة عليها وذكرت القيادة العليا فيما يتعلق بفلورنسا ما يلي :

« هنا يجدر أن تصنف مدينة فلورنسا كلها بين التحف الفنية ذات الاهمية العظيمة جداً » .

وكاد يكون ذلك تعبيراً عن الحقيقة . فلا توجد مدينة أخرى خلال تاريخ الانسانية — ربما باستثناء أثينا في العهد اليوناني القديم — جمعت في مساحة صغيرة جداً مثل هذا العدد العظيم من التحف الفنية . ان فلورنسا التي تقع على ضفاف نهر الارنو في شمال ايطاليا الوسطى تمتد في حويض تحيط بـه روابي التوسكان ذات المنحدرات السهلة التي تكسوهـا أشجار الزيتون والكروم التي تنتج خمر كيانتي المشهور . ولا يوجد على مقربة منها أي مرفأ بحري ولا أي سبب ظاهري يمكن أن يفسر تفجر مثل هذا الخصب في الزراعة في هذا المكان المحدود . يعتقد البعض بأن أخلاق سكانها وحبهم لمدينتهم يفسران هـذه الظاهرة . فمستوى الفلورنسيين العقلي كان دوماً عالياً وطبعهم رييباً وبديهتهم حاضرة ولاذعة . انهم يستعملون اللغة الايطالية باتقان لا يضاهى في اسبانيا والبرتغال الى حد اصبحت معه كلمة «فلورنسي» في مادة قواعد اللغة والنطق ترادف كلمة «صحيح» .

وأيا كان هذا التفسير فالشيء الأكيد هو ان عـدد النجوم اللامعين من الفئة الاولى من الشعراء والرسامين والنحاتين والعلماء والمهندسين والمعماريين الذين أضاؤوا سماء فلورنسا بين ١٢٥٠ و ١٦٠٠ هو عدد اسطوري . وقد ساور الناس الاعتقاد بأن عصر النهضة لم يكن له ان يقوم ، بدون فلورنسا .

وتستطيع اليوم أيضاً أن تشهد هذه المعجزة اذا زرت المجموعات الشهيرة لهذه المدينة وخاصة مجموعات مقصورة الشمار وقصر بيتي .

هنـــاك تسير في استئناس واعجاب بمحاذات بوتيشللي الذي بلغت نسخ صورتيه (الربيع) و (ميلاد فينوس) اقاصي الارض ولوقا ديلاروبيا الذي طارت شهرة الملائكة التي صنعها من الآجر المشوي الى أماكن بعيدة جداً أيضاً ، والرسام البهيج فرا فيليبو ليبي الذي أدرك الهائم الصوفي رؤى فرا انجليكو السماوية ،

وأخيراً رفائيل الذي أشجت لوحاته الفاتنة الوادعة عن (السيدة العذراء) قلوب كثير من الامهات خلال العالم المسيحي . . ان رفائيل رغم انه ولد في اوربينو — المجموعة التي تبعد مائة كيلو متر عن المدينة التوسكانية الكبيرة — قد صنع في فلورنسا نفسها عدداً كبيراً من لوحاته . ويكاد لا يبالغ البابا بونيفاسيو الثامن عندما كان يسمي فلورنسا — «العنصر الخامس» (الارض والهواء والماء والنار.. وفلورنسا !) ولا توجد مدينة أخرى ، غير فلورنسا ، بمثل أهميتها — أو شبيهة بأهميتها — تضم ذكريات لعـــدد وافر من الرجال العظام ففيها عاش دانتي شاعر القرون الوسطى العظيم وبوكاسيو مؤلف القصص الكورسيكية الخالد ذلك الذي اشتهر أيضاً في حياته كعلامة وأديب رقيق واستطاع أن يشرح لجمهور غفير (الكوميديا الالهية) لدانتي كما عاش فيها شاعر كلاسيكي آخر فلورانسي الاصل هو بيترارك الذي اشتهر بمقطوعاتـــه الشعرية التي فجرت الحب الروحي كما اشتهر بوكاسيو بقصصه الماجنة ولا بد أن نذكر ايضاً، بين الفلورنسيين الخالدين ، الرسام جيوتو الذي فاز في مباراة في الهندسة المعارية عندما قدم الى البابا ، بكل دهـاء ، دائرة كاملة رسمها بالريشة وبده مرفوعة . ويبـدو جيوتو الرسام ودوناتيللو المثال في تاريخ الفن كأنهما المصدر الذي تفجر عنه عصر النهضة .

تجتمع في كنيسة (سانتا كروس) وحدها من هذه المدينة ، أضرحة ميكل انج النحات والرسام والمهندس المعاري والشاعر . وغاليليو الذي ساعدت اكتشافاته الخارقة علم الفيزياء على الانطلاق والتقدم . ونيقولا ما كيافيل صاحب العقل الواقعي الذكي المتدله بحب الحقيقة والذي يحتل مكانة رفيعة في ميدان العلم السياسي (لهذا الاسم وقع شيطاني قليـلا على آذاننا ولكنه في فلورنسا مفخرة لمدرسة كبيرة) .

من بين الفلورنسيين المشهورين ذلك الذي يذكرنا اسمه بأقوى الشخصيات وأشد العطاء دهشة هو ليوناردو دي فنشي الرسام والمثال والمعماري والمهندس والعالم والموسيقي والمخترع والعالم الرياضي والخرائطي ومنظم المشاهد ، لاشك أنه العبقري العالمي الذي لم يكن له مثيل أبداً . وكان ، مع جمال طلعته وقامته ، مشتهر أعناقب الفارس القوي الذي كان يستطيع — كما يقولون — أن يلوي بيديه الماربتين نعل الفرس . فرائعته الخالدة لوحة (الجوكندا) هي أشهر صورة في العالم . أما مجموعاته العديدة التي تتضمن ملاحظاته عن اختباراته فانها كانت تسبق بأجيال عديدة أكثر الاكتشافات العلمية ثورية .

انها احدى متع فلورنسا ان يستطيع السائح الذي تجذبه تحف كثيرة كهذه ان يشاهد معظمها في الهواء الطلق . فالأبواب البرونزية المذهبة لمقصورة المعمودية ـ والتي نحت احدها لورنزو غيبرتي بفن رائع الى حد أثار حماسة ميكل انج فقال عنها أنها « جديرة بأن تكون مدخل الجنة » تطل رأساً على الشارع على بعد عشرين خطوة من مكتب التبغ ومخزن للمنسوجات . وعلى مرمى حجر تقريباً تنتصب على ارتفاع ١٠٦ امتار قبة « دوومو » الكاتدرائية الضخمة التي بناها فيليبو برونيلليشي . (ان هذه القبة كانت قد صممت عليها الى درجة انها شيدت بدون ركائز) والى جانبها البرج المشهور « برج جيوتو » الذي وصفه الشاعر لونجفيللو بـ (زنبق فلورنسا المتفتح في الحجر » يقوم وسط دوامة السير اليومية كأن اسمى مخترعات الفن كانت عادية للفلورنسيين أكثر مما هي لنا اليوم مصابيح الشوارع والرايات .

تستطيع وانت تتلذذ في ارتشاف قهوتك على سطح بياتزا ديلا سينيوريا المهيب ان تتمتع على بعد خطوتين منك بمشاهدة التمثال الذي ندين به للنحات

دوناتيللو ، تمثال جوديث الذي يمسك بالسيف ليضرب به عنق هولوفيرنو وكذلك جواب ميكل انج وهو تمثـــال (داود) العظيم الذي صنعه من الرخام الابيض و (بيرسي) أيضـا ، ليني فونوتوجيلليني ، وهو يحز رأس ، مدوسه ، احدى الجنيات الثلاث ، الفتاة الشابة العارية المتهالك جسمهـا على قدميه ، ان (بيرسي) لا يستطيع ان ينظر في عيني ضحيته حتى الميتة لان هاتين العينين لهـا القدرة على تحويل الرجال الى حجارة ، ولكن « مدوسة » كانت جميلة ونظرة المنتصر لاتجاوز من تبكيت الضمير . انك جالس هناك الى طاولاتك الصغيرة وقصر فيكيو العظيم الذي ينسب الى ارنولفودي كامبيو يشرف عليك بكل علوه . بني في ذروته برج لا تزال ساعته يتحرك عقربها الواحد ليحدد مواعيد عمل الناس وشؤونهم كما كانت عليه في زمن لوران الكريم الذي كان منذ خمسمائة سنة تقريباً حاكم المدينة الواسع الثروة الى درجة الخيال والاسطورة ونصيراً سخياً للفنون .

ويمكن ان نلاحظ أخيراً جانباً من نظام عملي صرف : ان كنوز فلورنسا الفنية هذه هي قريبة بعضها من بعضها الآخر فالمدينة تمد حوالي ٤٠٠,٠٠٠ نسمة بما فيها ضواحي الوادي والتلال ولكن يمكن تحديد المدينة القديمة أيضـــاً لان ابوابها الثمانية الضخمة لا تزال قائمة ، فاذا انتقلت قليلا بين اسوارها اكتشفت جميع امجاد وآيات النهضة الإيطالية .

ان حب الفن تتأجج جذوته دائماً في قلوب الفلورنسيين . ففي عام ١٩٤٤ عندما انسحب الالمان من فلورنسا نسفوا جميع الجسور القائمة على نهر الارنو ماعدا (الجسر القديم) الذي هو حقيقة اقـــدم جسر في المدينة . وبعد الحرب استبدلت جميع الجسور القديمة ذات القناطر الضعيفة بإنشاءات عضوية صرفة . ولنلاحظ ، مع ذلك ، الجهد المبذول في سبيل جسر (سانتا ترينيتا) هذا البنـاء

العزيز جدا على قلوب الفلورنسيين لدرجة انهم ارادوا ان يعيدوا بناءه كما بني أول مرة عام ١٥٦٩ ودون أن يزيلوا من جانبيه تماثيل الفصول الاربعة التي تزين كل مدخل وقد استغرق انتشال قطعه واجزائه من النهر طوال احدى عشرة سنة . واخيرا فقد أعيد كل شيء الى مكانه باستثناء رأس الربيع الذي لم يستطيعوا العثور عليه رغم عرض المكافآت ورغم التنقيبات الواسعة .

في عام ١٩٦١ عثر بعض العمال مصادفة على هذا الرأس مدفونا في اكوام من الرمل على بعد ١٠٠ متر من الجهة السفلى من مجرى الماء ، فجرى عرضه خلال شهور في دار البلدية ، وفي الربيع الذي تلاه أعيد وضع رأس الربيع من جديد باحتفال فخم على كتفي التمثال احتراماً لاطلال ماضي فلورنسا الخالد .

* * *

لقد كتب اندريه سواريس الكاتب الفرنسي في كتابه (رحلة كوندتيير) عن فلورنسا :

ينبغي أن تدخل الى فلورنسا وانت في العشرين من عمرك في لحظات الليل الاخيرة وتتلقى الفجر متورداً من شفة محبة . اننا نحس بأن التحري عن الجمال هو الشغل الشاغل لهذه المدينة وهو عبقريتها فلتكن لنا فلورنسا مقدسة لأنها المكان الذي يعبق جوه بالابداع .



صاحب السعادة الطائر

صورة مسرحية من مشهد واحد
للأديب الألماني المعاصر كورت غوتز

ترجمة محمد حرب فرزات



الأشخاص :

السيد صاحب السعادة : طبيب ، وجيه ، صاحب لقب ارستقراطي رفيع .

السيدة زوجته : شابة ، ساذجة ، ريفية المنشأ .

المريض : شاب حيي .

السيد مورس .

كورت غوتز ، من اكبر كتاب الملهاة المعاصرين في اللغة الالمانية ، عرف كيف يتعامل مع الجمهور بنجاح ، بما يمتاز به انتاجه من النقد النافذ ، والاسلوب الأخاذ ، والسخرية الانيقة الحلوة ، وبما يميل اليه من كشف لجوانب الذكاء والدهاء في الانسان ، وهو يريد بهذا كله ، كما قيل ، ان يجعل الجرائم التي تخلفها غباوة الانسان عديمة الاضرار !

وقد استطاع في تبنيه للمسرح الساخر ان يصمد امام اتجاه الجمهور العنيد نحو المسرح الجاد . وقد عمد المسرحي الكبير غوتز منذ بداية عهده بالكتابة الى طبع اعماله بالروح المحببة بدلاً من النقد الجارح السام .

وهو يقول في تبرير وجهة نظره: «لقد تعلمنا كثيرا ، اما ما ينقصنا فهو الفرح ، وما نحتاج الا الى الامل ، وما نتوق إلا الى الطمأنينة ، وما نتعطش إلا الى الحب ...»

وهو يقول ايضاً : « لست أدري ، ما اذا كان الحب هو السعادة ، ولكنه على كل حال هو ألطف شقاء يصيبنا ! »

وفي ملهاته « الكاذب والراهبة » يرى الكاردينال « ان اعظم ما خلقه الله هو الحب ، اذ لابد أن يكون الله في يوم من أيام الاحد قد أبدع أشياء رائعة عمل بها على تقريب المخلوقات بعضها من بعض » .

ينحدر غوتز من اسرة عملت في الثقافة والمسرح ، وقد كان جده لأمه كاتباً وممثلاً مسرحياً في « برين » . وقد بدت عليه علائم النجابة منذ حداثته ، وكان في المرحلة الثانوية عندما حفظ ملحمة هوميروس «الاوديسة» عن ظهر قلب .

من أجمل مسرحياته واشهرها «الطبيب دكتور بريتوريوس» وهي في سبعة فصول ، وقد قدمت على مسرح «هيبل تياتر» في برلين الغربية عام ١٩٦١ .

لقد ودع الفيلسوف الساخر الدنيا فجأة في ليل من ليالي شهر ايلول من عام ١٩٦٠ ، تاركا أثرا لايمحى ، ونتاجا مايزال يشغل مكانا ممتازا في المسرح الالماني المعاصر .

المكان : غرفة عيادة طبيب ، فيها أثاث مناسب ، يضم جهازاً لضبط توتر الصوت .

صاحب السعادة الطبيب في الخامسة والخمسين من العمر . يوحي مظهره لأول وهلة انه هو صاحب السعادة نفسه . يفحص — وقد ترك المرآة الطبية مثبتة على جبهته — شاباً حيياً وقف أمامه وقد عرى الجزء الاعلى من جسمه .

صاحب السعادة : تنفس عميق ! — مرة أخرى من فضلك ! — بعمق ! — مرة أخرى ! — ارتد ثيابك! — الرئة سليمة . (وهو يتجه الى طاولة مكتبه) — منذ متى تشكو المرض ؟

المريض : منذ ثلاثة اشهر .

صاحب السعادة : هل كنت تحت العلاج من قبل ؟

المريض : نعم سيدي .

صاحب السعادة : ماذا وصف لك ؟

المريض : بحر الشمال .

صاحب السعادة : هل كنت هناك ؟

المريض : نعم سيدي — ولكن حالي صارت أشد سوءاً من ذي قبل بشكل واضح.

صاحب السعادة : هذا ماتراءى لي للوهلة الاولى (ينظر اليه من فوق نظارتيه) — قل لي — من هم أولئك الاغبياء الذين ارسلوا بك الى بحر الشمال ؟

المريض : (متردداً) ـ السيد صاحب السعادة نفسه .

صاحب السعادة : (وقد فوجىء بالجواب ـ بعد فترة صمت طويلة ـ يتمخط في منديله) متى ايـ . . . ـ تقدّر انه ربما يكون قد حصل ذلك؟ (يتصفح كرّاسه).

المريض : في الرابع عشر من حزيران .

صاحب السعادة : هـ . . . م ـ نعم ـ صحيح ـ في ذلك الوقت ـ ها هنا (ينظر في كراسه) « شيركه » هو اسم حضرتك ـ اليس كذلك ؟

المريض : نعم سيدي ـ اسمي « شيركه »

صاحب السعادة : هـ . . . م ـ ارتد ثيابك على مهل ـ أي نعم ـ كما يبدو لي من مفكرتي، كان مانصحتك به آنذاك ، الشيء الوحيد الصحيح . في حالتك السابقة،

كان كل شيء مفهوماً تماماً . أي نعم ، لم يكن المرء ليتوقع انك ستواجه حضرتك هناك جواً عاصفاً ـ عند بحر الشمال .

المريض : (مستغرباً) ولكن كان الجو هناك ـ بالواقع ـ صحواً .. حتى ليمكن القول ـ انه لم تتحرك نسمة ريح واحدة .

صاحب السعادة : هذا ماأعنيه تقريباً . انك لم تنل أي نصيب من هواء البحر ـ لاشيء على الاطلاق ـ بل ربما اصبت قسطاً من رياح البر ـ أليس كذلك ؟

المريض : (متردداً) نعم ـ كلا !

صاحب السعادة : اذن ، انظر : ـ ليس في هذا طبعاً مايدعو للعجب . عـــدا عن ذلك فالتأثير يأتي عادة ـ ايضاً ـ فيما بعد .

المريض : (وقد انتهى من تسريح شعره) نعم ـ وهذا هو ايضاً ما آمل به .

صاحب السعادة : طبعاً ! ـ التأثير يحدث دائماً ، بعد فترة من الوقت ـ لابد من أن يؤثر ،

نعم ـ والآن هلا تفضلت بالجلوس . ـ

هكذا . (يدخل المنظار الضوئي في انفه) رأسك الى تحت ـ هكذا ـ هـ . . م ـ أرى بحالتك تبـدو هنا سيئة جداً ـ انك لاتستنشق أي هواء من انفك !

المريض : كلا .

صاحب السعادة : هـ . . م ـ الآن ، أريد أن اخمن رأسك ـ من انفك ، مد لسانك ـ امسكه بمنديلك ـ هكذا ـ هكذا ـ (يدخل في فمه المرآة الخاصة بفحص الحنجرة)

هيـــيـــه ـ ـ ـ ـ هيـــيـــ ـ ـ ـ

المريض : هيـــيـــه ـ ـ ـ كر و و و ر . .

صاحب السعادة : تنفس بهدوء !! ـ من الانف !!

المريض : (يتكلم كلاماً غير مفهوم) كا تا تا يا بلا . .

صاحب السعادة : ماذا تقول ؟

المريض : من انني لااستطيع ان اتنفس ـ انا مصاب بزكام .

صاحب السعادة : هـ . . . م ـ مدمو عمك ؟

المريض : الفناء .

صاحب السعادة : ها ! ها ! ه ـ ايه ـ هذا يسبب لك ازعاجا كبيرا ، ولا شك .

المريض : اوه ـ نعم . اضطررت لأخذ اجازة .

صاحب السعادة : هـ ... م ـ نعم ثم اريد ان اقول لك . سأصف لك شيئا . تناوله اليوم ـ وغدا ايضا او بعد الغد ـ تابع استعماله و ـ هكذا ـ وبعدئذ تفضل لعندي بعد غد مرة اخرى . مع السلامة .

المريض : ولكن ياصاحب السعادة ، اردت ان تكتب لي شيئا ما !

صاحب السعادة : ها ها . نعم (يفعل ذلك) ـ والآن ...

المريض : شكرا جزيلا ! ـ وداعاً ياسيدي !

صاحب السعادة : وداعا ، وداعا ـ اذن الى الغد ـ الى اللقاء .

المريض : بعد غد ـ !

صاحب السعادة : طبعا ! ـ (يدعه يخرج من الباب الأيسر ، ثم يفتح باب غرفة الانتظار) ـ التالي من فضلك !

مورس : (يدخل ـ السيد مورس لايترك انطباعا حسنا ـ له رأس صغير كجوزة الهند ، ووجه ، كذلك ، صغير جدا . ملابسه سوداء ، لسترتــه كمان طويلان ، تختفي فيهما يداه) .

صاحب السعادة : (يراقبه وعليه علائم الاستغراب) هل ترغب حضرتك في الجلوس ؟

مورس : شكراً (يجلس)

صاحب السعادة : (وراء مكتبه) اسمك ؟

مورس : مورس !

صاحب السعادة : (مكرراً) كيف ؟

مورس : مورس .

صاحب السعادة : هـ ... م ـ واسمك الأول ؟

مورس : هاين .

صاحب السعادة : كيف ؟

موريس : ماذا ؟

صاحب السعادة : اذن هايتريش .

موريس : (يومىء برأسه ، موافقاً)

صاحب السعادة : عمرك ؟

موريس : لا أعرف بالضبط .

صاحب السعادة : لاتعرف بالضبط ؟؟ (يرمقه بنظرة ، وموريس ينظر اليه ايضا)

صاحب السعادة : هـ ... م هل أنت متزوج ؟

موريس : كلا .

صاحب السعادة : هل عندك أولاد ؟

موريس : كلا .

صاحب السعادة : مم تتألم ؟

موريس : انني مصاب ببرد .

صاحب السعادة : اخلع ملابسك !

موريس : آ ـ ... لا ...

صاحب السعادة : وكيف ذلك ؟

موريس : لا أرغب في هذا ـ انني استحيي ، انني ضئيل الجسم جداً . ياصاحب السعادة الطبيب ـ لن تجد في شيئاً .

صاحب السعادة : (ينظر اليه) .

موريس : (ينظر اليه ايضا)

صاحب السعادة : كما تريد ـ افتح فمك اذن !

موريس : (يفعل ذلك)

صاحب السعادة : (ينظر فيه ـ ينهض . ثم يتنحنح ثم يمعن فيه مرة أخرى) ماهـذا ؟ أنت تشكو ـ اي ـ من التهابات مزمنة في اللوزتين ! ؟

مورس : (موافقاً) م . . . م .

صاحب السعادة : هل تعمل ايضاً ؟

مورس : بين آن وآخر .

صاحب السعادة : منذ متى تشكو من هذه المتاعب ؟

مورس : لا أعرف بالضبط .

صاحب السعادة : (يريد أن يبدو بمظهر المؤنب ، ولكنه لا يستطيع الى ذلك سبيلاً ، وبدون أن ينظر اليه) لاتعرف تماما ! ماهو الشيء الذي تعرفه بالضبط اذن ؟!

مورس : لا أريد أن اثير دهشة صاحب السعادة ، ومع ذلك فانه سواء اعرفت أم لم اعرف !

صاحب السعادة : يبني ، ارجوك ، ارجوك ، الا تخجل من موقفك ابداً ؟ ـ انا مضطر ان اقول لك بأن تصرفك الشاذ ـ

مورس : ماهو عمر سيادتك ؟

صاحب السعادة : ماذا يعنيك في هذا ؟

مورس : (اخرج مفكرته ، واخذ يقلب صفحاتها) انك ياصاحب السعادة أتيت الى هذا العالم في ٣٠ ايلول ١٨٥٨ .

صاحب السعادة : تماما .

مورس : في الساعة الرابعة بعد الظهر .
هذا مسجل عندي هنا ـ بهذا تكون قد بلغت الخامسة والخمسين من العمر .
هل فكر صاحب السعادة المحترم مرة ، بساعة موت سعادته ؟ ؟ .

صاحب السعادة : (يجفف عرقه) اسمع ياعزيزي ! لعلك تعمل ، مثلا ، في شركة تأمين ؟

مورس : (يهز رأسه بالنفي) لست كذلك ، لست كـــذلك ـ ولكنني أرى بأن هذا الموضوع يثير صاحب السعادة ، لذلك افضل الا اقول ما اعرف .

صاحب السعادة : لاتخف عني شيئاً !

مورس : لاضرورة للاستعجال .

صاحب السعادة : (يهب مغضبا) هل تريد ان تقول لي اخيرا لأى سبب قدمت انت الى هنا ، ام لا ؟ !

مورس : هـ ... م ـ ـ يبدو لي بالواقع ، انني مستعد ان اضمن لك عشر سنوات اخرى . اذا ـ

صاحب السعادة : اذا ؟ ؟ ـ ـ ـ

مورس : سعادتك عازم على التنازل عن عيادتك ؟ هذا ما سمعته ؟ !

صاحب السعادة : نعم ـ تقريبا .

مورس : اذن ، فانني اضمن لك عشر سنوات اخرى اذا لم تتنازل عن عيادتك .

صاحب السعادة : (ينظر اليه مشدوها)

مورس : (ينظر اليه ايضا) اليد الواحدة لا تصفق .

صاحب السعادة : (يهب واقفا) يا سيد ! ! ـ اسمح لي ، اقل لك : هذه سخافة ! !

مورس : حقا ، انه لنكران للجميل ، ان يتصرف الانسان ـ هكذا ـ تجاه انسان عزيز عليه ، يقدم له مساعدة قيمة ـ ارجو المعذرة .

صاحب السعادة : (يعض على شفتيه) واذا تنازلت عن عيادتي ؟

مورس : عند ئذ اكون في حل من تعهدي بأخذ صاحب السعادة معي .

صاحب السعادة : (يمشي مضطرباً في غرفته جيئة وذهابا ، في الوقت الذي يدير فيه مورس قبعته بيديه) .

صاحب السعادة : (وقد اتته فكرة جديدة) هـ ... م ـ انتظر يا سيدي قليـلا ! ـ لحظة واحدة ! ـ ـ نعم ـ اذن ، اسمح من فضلك . ـ (يجلس) بهذا الشكل ، لا استطيع الموافقة على الصفقة .

مورس : لا توافق ؟ !

صاحب السعادة : لا !

مورس : (يرفع كتفيه)

صاحب السعادة : بهذا الشكل ، لا ـ ولكنني ساعرض عليك اقتراحا : لنترك الحديث عن

طوال محدود الامد ! اتوافق على انني اقدم اليك خدمة جليلة ؟ !

مورس : بدون شك .

صاحب السعادة : وماذا ، اذن ؟ — اذن ، لنقل ببكل بساطة : تبقي علي ، ما دمت لا اتخلى عن عيادتي . هل توافق على ذلك ؟ .

مورس : طبعا يا سعادة الطبيب النبيل . أنا لا اجادل في هذا مطلقا .

صاحب السعادة : (مهدئا ، مادا اليه يده) طيب ، اتفقنا !

مورس : (مشيرا بيده محذرا) حذار ! (يضع يده على ظهر صاحب السعادة)

صاحب السعادة : ها ها .

مورس : (يهز رأسه) ولكن اي اخلال بالاتفاق سيكون مدعاة للريبة .

صاحب السعادة : هـ ... م . هل تجمل الموضوع خطيا بشكل ما ؟ .

مورس : كلمتي تكفي — فانا عند قولي . الى اللقاء .

صاحب السعادة : الى اللقاء — (مستدركاً) وداعا ! وبشأن التهاب اللوزتين ، اعمل غرغرة بقليل من ملح مدينة « امس » . (يوصله الى الباب) .

مورس : صحتك هي عندي مهمة جدا ، يا صاحب السعادة المحترم . وربما يحسن ان تستشير بشأن حنجرتك احد الاخصائيين المعروفين . (يذهب) .

صاحب السعادة : (يلقي بنفسه على كرسي — يهدأ قليلا — يقوم ، يمشي في الغرفة جيئة وذهابا عدة مرات ، ثم يتجه الى الباب الايسر ، يفتح الباب) فاليسكا ! (يصرخ) فاليسكا !

السيدة زوجته : (من خارج الغرفة — الصوت يسمع من الجهة اليسرى) : نعم — نعم ماذا تريد ؟ .

صاحب السعادة : تعالي الى هنا (يبتعد عن الباب — في الغرفة جيئة وذهابا ، اذ ان زوجته لا تأتي حالا) فاليسكا ! !

السيدة زوجته : (تدخل — انها من مدينة « هاللبه » . لهجتها تثير صاحب السعادة — بحضورها تغدو كل مظاهر الوجاهة بدون معنى ، بتأنيب ليّن) : ياسيدي ، لاتصرخ بهذا الشكل — يارجل ! ماذا سيظن بنا الناس !

صاحب السعادة : لاقيمة لظنون الناس عندي !

السيدة زوجته : ماذا هنـــالك اذن ؟ بالله عليك !؟ لاتكن مثيراً للاعصاب ، ياأوتو ! ماهنا الهواء الفاسد ؟ (تفتح النوافذ) .

صاحب السعادة : اجلسي قليلا هنا !

السيدة زوجته : (وهي تحاول التخفيف عنه) ياإلهي ، أوتو ! ! كيف تبدو لي ؟ هل حدث لك شيء ما ؟ ياأوتو !

صاحب السعادة : عليك أن تجلسي هنا قليلا !

السيدة زوجته : (خائفة) نـ ـ نعم ـ ـ (تجلس)

صاحب السعادة : انصتي اليّ بهدوء !

السيدة زوجته : طبعاً ـ

صاحب السعادة : (باصرار) دون ان تقاطعيني مطلقاً ! ! وعدا عن ذلك ، ارجوك ان تبقي هادئة تماماً !!

السيدة زوجته : ياإلهي ! ، ياأوتو ـ ـ !!

صاحب السعادة : اذن ـ ـ ! ! الموت كان هنا !

السيدة زوجته : (لاتفهم تماما) من كان هنا ؟ ماذا كان يريد ؟

صاحب السعادة : الموت ، الموت !

السيدة زوجته : يارجل ! مابك ؟

صاحب السعادة : اسمعي لي معروفا واحدا ، ولا تنظري الي هكذا ببلاهة !

السيدة زوجته : ولكن يارجل ! ـ

صاحب السعادة : (يقترب منها ، بلطف) يابنتي ! ارجوك ان تصدقيني ، بصورة استثنائية لمرة واحدة ودون نقاش : الموت كان هنا !

السيدة زوجته : (تنظر اليه بدون وعي ، ثم بدأت تجهش بالبكاء وقد تركت نفسها على سجيتها وهي تلكن بلهجتها) ياآلهي ! قلت لك مرات ، يلزمك نصيب اكبر من الراحة ! لقد اصبحت عصبيا تماما !

صاحب السعادة : والآن ، هل تريدين ان تكوني لطيفة معي ... و ... ـ

السيدة زوجته : كان عليك ، منذ زمن ، أن تستغني عن هذه العيادة المشؤومة ! منزمان! ولكنك لاتستمع الي .

صاحب السعادة : انك تريدين اذن ـ

السيدة زوجته : انت تركب رأسك دائماً ! ـ هل افرطت في الشراب مرة اخرى ؟

صاحب السعادة : (وقد استولى عليه الغضب بشكل لايوصف ـ يصرخ في وجهها ، وهو يضغط على كل حرف من حروف كلماته) الموت كان هنا !

السيدة زوجته : (تصرخ مذعورة) : بالمصيبة ! (تهب واقفة وتريد الذهاب) .

صاحب السعادة : (بلغت ثورته حدها الأقصى ، يمسك بزوجته ، تحاول الافلات) اذا لم تهدئي تماما في الحال ، وتجلسي هنا ، ايتها الانسانة البلهاء ، فانك سترين بام عينيك ، انني سأجن فعلا ! هل فهمت ؟ ! .

السيدة زوجته : (تنهار) اوتو !

صاحب السعادة : كوني هادئة ! ـ اذن ، الموت كان هنا ـ بلحمه ودمه هنـا ـ جالس هناك على الكرسي ـ ياليتني لو أنك تكفين عن التحديق في بعينيك ، هاتين.. أ كون ممتنا لك تماما !(مغضبا) شيء ما من ... ـ (يضرب بكفه على جبهته في الموضع الذي تثبت فيه المرآة) ـ حسناً ـ الآن ـ اذا لم تكوني قادرة على أن تستوعبي الموضوع،فلا بأس في أن تتصوري ، بأنني حلمت . ولكن اسمعي ! وصدقي ! ولا تنظري الي هكذا ـ هـذا مالا أحتمله !

السيدة زوجته : انني اريد ان اصدق كل شيء تقوله . اوتو ! ـ

صاحب السعادة : اذن ، الموت كان هنا ، متخفيا بزي مريض زائر ، لقد تبادل معي الحديث بكل بساطة ـ فمن تعدين اذن !؟؟ ـ

السيدة زوجته : انك لم تؤمن على حياتك بعد .

صاحب السعادة : (وقداستبدبه الغضب يتجه الى الزاوية يريدان يحرق شيئا)ياآلهي!ـ ـ ـ

السيدة زوجته : (بلطف) لاتزعج نفسك بهذا الشكل ! اوتو !

صاحب السعادة : (يذهب الى النافذة ــ يتجه ببصره نحو السماء ــ يعب الهواء) يا آلهي الرحيم ! ــ لقد تحادث معي ، اذن ، وقال لي ــ وقال لي ــ

السيدة زوجته : يارب ؟ الطف بنا !

صاحب السعادة : وقال لي : ربما قد حان أجلي ! ــ

السيدة زوجته : اوتو ! ! !

صاحب السعادة : (بصوت مرتفع) فعلا قد حان ! ــ ولكن ، الآن ، اسمعيني ! ــ

السيدة زوجته : انني اسمع يا اوتو (بدا عليها التأثر)

صاحب السعادة : نظفي انفك! ولكن ــ ولكنه يريد ان يبقيني على قيد الحياة ــ بشرط !؟؟

السيدة زوجته : ما هو ؟

صاحب السعادة : انتظري ــ بشرط ــ بشرط ــ ان ــ

السيدة زوجته : اوتو ! ـ

صاحب السعادة : ان لا اغلق عيادتي .

السيدة زوجته : (مندهشة) الى الابد ؟

صاحب السعادة : نعم سيدتي !

السيدة زوجته : وبعد ! ــ لماذا اذن ؟ لماذا يبغي الا تتركها ـ واذا تركتها بالرغم من ذلك ؟

صاحب السعادة : يأخذني معه حالا !

السيدة زوجته : أهكذا ؟ !

صاحب السعادة : نعم هكذا ! ــ فلو ان الامور سارت على هواك لكنت الآن ميتاً منذ زمن !

السيدة زوجته : اوتو ! ! !

صاحب السعادة : لا تصرخي بهذا الشكل !

السيدة زوجته : (بصوت منخفض) ولكن لأي سبب ؟

صاحب السعادة : اما زلت تسأليني لماذا ؟؟ ــ هكذا ــ هكذا (يذهب نحو النافذة)

السيدة زوجته : اوتو ! ارجوك ــ جسمي كله يرتجف ــ أستحلفك ان تتكلم !

صاحب السعادة : لو انك تستطيعين ان تتخلي ، فقط ، عن لهجتك !
السيدة زوجته : لماذا يريدك ان تبقى على قيد الحياة ، اذا لم تترك عادتك ؟
صاحب السعادة : يقول ، يعني — ان اليد الواحدة لاتصفق !
السيدة زوجته : لاأفهم ماتقول —
صاحب السعادة : يريد أن يقول ، بانني — — اعمل معاونا له بين يديه (يدع نفسه يهوي متثقلاً في مقعده)
السيدة زوجته : (بعد صمت طويل) اوتو — لماه . . . —
صاحب السعادة : (يحدق في الزاوية — يتنهد)
السيدة زوجته : عزيزي اوتو !
صاحب السعادة : ماذا إذن ؟
السيدة زوجته : ماذا يمكن أن يحدث ؟
صاحب السعادة : (وهو يجمع نفسه) لقد حدث ماحدث وانتهى الأمر !
السيدة زوجته : حدث ؟
صاحب السعادة : لقد وعدته .
السيدة زوجته : من ؟
صاحب السعادة : الموت
السيدة زوجته : مالك يااوتو ؟ !
صاحب السعادة : (بهدوء) اتفقت معه : مادمت لاأتخلى عن عادتي ، لايحق له أن يأخذني.
السيدة زوجته : وماذا بعد ؟
صاحب السعادة : (بهدوء) لن اتخلى عن عادتي ! — لن اتخلى عن عـــادتي مطلقاً مهما حدث !
السيدة زوجته : ولكن — ولكن — ياعزيزي اوتو —
صاحب السعادة : ماذا — اذن ؟

السيدة زوجته : اعني ــ لربما كانت له سلطات سوى ذلك فيحاسبك في مسائل اخرى، ــ ــ يارباه ، اوتو ــ انه غاشم ــ ولكن ربما كان يحق له أن . . ــ ، أيمكن القول عندئذ . . ــ ربما وقعت في خطيئة ــ

صاحب السعادة : انني اقول لك ــ لقد كنت تعهداً معه ! دعيني اتحدث (بصوت خافت) انني لاأرى من الناس الذين يأتون الى عيادتي الا حلوقهم وأنوفهم ــ وهنا لايمكن أن يسبب لهم أضراراً ، فكيف ترين ؟

السيدة زوجته : هذا لا اعتقد به ابضاً .

صاحب السعادة : وفيما عدا ذلك فانني ادعهم في امان . .

السيدة زوجته : ثم انهم ربما يستردون صحتهم .

صاحب السعادة : هذا ممكن .

السيدة زوجته : وعيادتك ستصبح أكبر . . . عليك دائماً أن تعود مرضاك ، وان تموت ابداً !

صاحب السعادة : ــ على كل حال ليس قبل أن يحين الأجل .

السيدة زوجته : ولكن ــ ياأوتو ! اذا ماحدث مثلا مالا يمكن دفعه ، فالخطر اذن هو في ان الانسان المريض الذي يزورك قد يموت ــ ؟ ؟

صاحب السعادة : انك تتكلمين بلهجة غير مفهومة ، أين ؟ متى ؟ ــ في مثل هــذه الحالة ، ارسل الشخص المقصود الى طبيب آخر ! هــنا استطيع ان افعله ، كما تعلمين ــ هذا ، كثيرا مايحدث ، بسبب كثرة الاعمال ، ولكن عيادتي لن اتركها لأي سبب من الأسبــاب ــ لن ادع نفسي أموت . (يقرع الباب بشدة من غرفة الانتظار ــ الاثنان يضطربان .)

صاحب السعادة : آه ! ! لقد احتدت امزجة الناس ــ نفد صبر المرضى ــ اذهبي الان !

السيدة زوجته : نعم (تتجه نحو الباب الايسر ــ عند الباب تقف وتنادي) اوتو !

صاحب السعادة : (وهو يرتب ادواته) هـ . . . م ؟

السيدة زوجته : انك تبدو لي ــ ــ انك تبدو لي تائها (الدمع ينفر من عينيها) ــ كذلك الهولندي الطائر !! (تخرج)

صاحب السعادة : (يتوقف هنيهة ثم يفتح باب غرفة الانتظار) : التالي من فضلك !

ــ ستــــار ــ

سلسلة

كتب قومية

تصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي ، سلسلة كتب قومية ، تهدف الى اغناء ثقافة المواطن العربي بالبحوث التي تمس اهم شؤونه ومرافقه ، ومشاغله الفكرية والقومية . وتوزع بأسعار زهيدة رغبة في تعميم الفائدة منها ، وتحقيقاً لهدف اساسي من اهداف الوزارة .

وفيا يلي بعض البحوث التي تصدر في هذه السلسلة الجديدة ، خلال الاشهر القادمة من عام ١٩٦٥ :

التسيير الذاتي والتجربة اليوغسلافية للدكتور صلاح وزان

« صدر في الحلقة الاولى »

التخطيط الاشتراكي للدكتور عبد الله عبد الدايم

« صدر في الحلقة الثانية »

المغتربون العرب في امريكا الشمالية للدكتور جورج طعمة

« صدر في الحلقة الثالثة »

ادب الوحدة العربية لفؤاد الشايب

الفن والقومية للدكتور عفيف بهنسي

الموقع الاستراتيجي العربي (حلقتان) لهيثم الكيلاني

القومية العربية في القرن التاسع عشر للدكتور توفيق برو

وسيشترك في تأليف كتب قومية لحلقات تالية كل من الاساتذة : الدكتور جميل صليبا ، الدكتور احمد السمان ، اديب اللجمي ، شاكر مصطفى ، انور الرفاعي ، سلامة عبيد ، خليل هنداوي ، وعبد الله مكسور



كتاب المعرفة

عصر النبي عليه السلام

وبيئته قبل البعثة

صور

مقتبسة من القرآن الكريم

و

دراسات وتحليلات قرآنية

تأليف

محمد عزة دروزه

عرض وتلخيص خليل الهنداوي

من المألوف أن هذا البحث ليس بجديد ، لأن ماكتبه المؤرخون من عرب ومستشرقين عن عصر النبي وبيئته كثير ، وقد أفاضوا في هذا الموضوع ، فرسموا الجزيرة العربية ، وحددوا معالمها ، ووصفوا امناخها ، كما انطلقوا الى عصر النبي ، وما سبقه من الحياة التي اصطلح على الكشف عنها المؤرخون الذين عنوا بالحياة الجاهلية .

ولكن الجديد في الكتاب أنه لا يعتمد في دراسته على معلومات منقولة ، ولا على مصادر سابقة . ولكن المؤلف يقفز هذه المرة الى تصوير هذه البيئة ، وتبين ملامح ذلك العصر ، معتمداً على نصوص القرآن ذاته . شأنه في ذلك شأن المؤرخين العالمين بالآثار الذين يجعلون مصادر دراستهم ألواحاً مدفونة ، ونقوشاً خرجت من بطون الثرى .

والقرآن هو الكتاب المبين الذي تنزل على قلب محمد الأمين ، جامعاً لاصول رسالته الدينية . وهو أحد الكتب السماوية التي يمثلها قبله الزبور والتوراة والانجيل ، وبحسب هذا الكتاب كان الاسلام احدى الديانات السماوية .

ومما يتميز به هذا الكتاب الفني انه لم يلتزم ناحية واحدة ، بل هو ، كما نعت نفسه ، لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، بمعنى أنه تناول كل مايتصل بالحياة ، والمجتمع ، وبناء الدولة ، وتكوين الفرد والجماعة ، وتشريع الأحكام اللائقة لها ، مضافاً الى ذلك أسلوبه المتميز الرائع الذي جعله في الذروة من حيث الشكل الفني الذي لم يسبق اليه كتاب !

وبدهي أن يتسع القرآن لموضوعات كثيرة ، مادام الشمول من ميزاته ، ولذلك تعددت موضوعاته ، وتنوعت اشاراته ، وتناول البعيد والقريب ، وأحسن مخاطبة العقول والقلوب ، حتى أعجزها عن محاكاته .

ومن هذه الناحية انفرد القرآن بقيمة منفردة اختص بها في تصوير ذلك العصر بأمانة ، ورسم تلك البيئة التي خالطها رسماً واضحاً دقيقاً .

ولئن استلهم بعض المؤرخين نصوص القرآن في التدليل على الحياة العقلية العربية والاجتماعية فان استلهامهم كان محدوداً ، بينما هذه النصوص لو استوحيت بالشكل الدقيق الناضج لأعطت مرآة أمينة صادقة تعكس وجه ذلك العصر .

والنصوص ، في الدراسات الموضوعية الحديثة ، تعد أهم مرجع لتمثيل العصر والبيئة . وليس ببعيد عنا ماتركته النصوص المكتوبة ، والآثار المنقوشة التي جلا المكتشفون عنها التراب ، في اعادة تصوير ملامح عصرها ، وكتابة تاريخ أصحابها مرة ثانية . وكثير منها بدل كل ماتوارثناه عن طريق المؤرخين . لان المؤرخين الذين يعتمدون الرواية والنقل ، قد يصيبون مرة ويخطئون مرة ، بينما

النصوص الموروثة تبقى أصدق شاهد ودليل على روح العصر .

ولا ينكر أحد ما كان لهـذه النصوص التي اكتشفت حديثاً من أثر في اعادة كتابة تاريخ الامم مرة ثانية على ضوء هذه النصوص ، وقـد كفانا شاهداً ما أحدث اكتشاف قراءة الابجدية الهيروغليفية في القرن التاسع عشر ، في الكشف عن حضارة مصر ، وكتابة تاريخها كتابة ثانية تختلف كثيراً مما توهمه المؤرخون السابقون .

فالعودة الى استقراء النصوص انما هي عودة حية للتاريخ !

والاستاذ المؤرخ ـ محمد عزة دروزة ـ الذي اشتهر بكتاباته الاسلامية ، يأتي في كتابه هذا هذه التجربة الحية ، ويحاول ، جهد المكنة ، أن يرسم لنا عصر النبي وبيئته من خلال نصوص القرآن ، دون أن يستعين بنصوص أخرى الا ماتلاءم منها مع نصوص القرآن . لان القرآن ـ عنده ـ هو الاصل . وما جاء من تلك النصوص انما هو تبع له .

والكتاب سفر ضخم يقع في ٨٤٨ صحيفة ، وهو أثر ناطق يمثل المجهود التي بذلها صاحبه ، وشاهد يمثل العناء الذي لقيه في دراسة القرآن على ضوء الغرض الذي نصب نفسه له .

ويراه ، في المقدمة ، يغمز من قناة اولئك الذين كتبوا السيرة النبوية قديماً ، ولم يهتموا بعصر النبي وبيئته ، غير ملتفتين الا الى شخصية الرسول ، وما يتصل بها ، كأنما تلك الشخصية تحيا وحدها ، دون أن يكون لها جذور متصلة بعصرها !

مع أن النوابغ ، مهما أفردوا انفسهم عن بيئتهـم ، فانهم لايستطيعون أن ينفضوا عن عصرهم ومجتمعهم مادامت رسالاتهم تنبع من عصرهم ، وتتجه الى أهل هذا العصر ومجتمعه . ولذلك ظلت دراستهم فقيرة من تقديم الحالات الاجتماعية والعقلية والاقتصادية والدينية والسياسية التي تفجرت خلالها رسالة الاسلام على يد الرسول .

بل أراد بعضهم ـــ بداعي التحيز ـــ أن ينكر على الحياة الجاهلية كل ظاهرة عقلية واجتماعية وحضارية ، مع أن نصوص القرآن التي خاطبت هؤلاء الجاهلين ، وجادلتهم ، تصور لنا عقلية متفتحة في الجاهلية ، بعيدة عن الجهل والانحطاط .

كما أراد المؤلف أن يغمز من قناة مؤلف كتاب « فجر الاسلام » المرحوم احمد امين ، وهو الكتاب الموضوعي الاول الذي عرض للحياة الجاهلية قبل الاسلام ورسم خطوطها رسماً واضحاً . إخذ عليه المؤلف أنه أهمل في كتابه بحث أديان العرب وعقائدهم قبل البعثة ، ولم يشر الى ما كان عندهم من كهانة وسحر وأساطير وتقاليد وعادات ، مكتفياً فيه بذكر اليهودية والنصرانية والفلسفة اليونانية ، وأثرها في تلك الحياة ، في العصر الاسلامي الاول .

على أن المؤلف يعترف لصاحب « فجر الاسلام » بالفضل ، باعتباره اول دارس عربي يتعمق في دراسة تلك الحقبة المجهولة !

ولكن نقده له تبقى له مبرراته ، من حيث أن المؤلف لم يختص بحقبة معينة ، ولا بعصر محدود ، وانما كان وكده أن يؤرخ للعقل في ظل الجاهلية والاسلام منذ تفتح حتى ركد ... ولذلك كان

من الحق أن تتقاص البحوث وتتكشف المعارف، فلا يؤتى منها الا بما يحيط بالاطار، دون الاسهاب فيا يضم الاطار. ولعل فضل صاحب « فجر الاسلام » يعود الى أنه نبه الانظار الى ما كانت تتمتع به الحياة الجاهلية من خصائص عقلية واجتماعية ودينية وسياسية واقتصادية بدلت كل ما كان يرويه الرواة عن قحطها العقلي، وجدبها الاجتماعي، وعزلتها المقطوعة.

ويعرج المؤلف على فئة المستشرقين الذين ابتدعوا — ولا شك — طرائق جديدة في البحث والاستنباط، تعتمد على التحليل، والامعان في المقارنة والمقابلة، مما ليس له شبيه في دراساتنا. لكن الكثير منهم لم يستطيعوا التحرر من الهوى الديني، والتعصب القومي، فارادوا الاساءة الى العرب بما ارتكبوه من خلق التشويش، والاعتماد على نصوص ضعيفة الاسناد، لم يحملهم على الاخذ بها الا ميلهم الى الاساءة، وامثال هؤلاء كثير، كما أن الذين انصفوا منهم كثير، حتى بتنا نسأل الذي ينشد الحقيقة: أين هي الحقيقة؟

أمام هذه الشكوك، وازاء هذا النقص، وبعد قراءة واعية للقرآن حفظا وتلاوة وتمعناً وتدبرا ألقى المؤلف على نفسه هذا السؤال الذي كان فاتحة عمله الجليل:

— لم لا يكون القرآن مصدرا لتصويرهذا العصر والبيئة، وفيه ما فيه من هذه الآيات؟ وهو بعد هذا كله يعد اوثق واصدق واقوم ما يمكن ان يستند اليه كاتب او باحث.

بل يمكن أن يقال على هذا الاعتبار، ان ما يمكن الاستدلال بمتنه على ما كان عليه عصر النبي وبيئته قبل الاسلام هو فوق كل مظنة وأسمى من أن تصل اليه شبهة، او يرقى اليه شك.

من هذا المنطلق راح المؤلف يتتبع آيات القرآن، ويبوبها على مواضيع متنوعة، ماضياً في محاولة رسم هذه الصور اقتباساً من القرآن الكريم، ومجردة من الروايات الا حيث تكون مفسرة، او شارحة، او شاهدة على صحة الاستدلال والاقتباس.

وقد احتوى الكتاب اربعة ابواب منسقة من حيث البحث والتأليف. تناول اولها الاقليم والسكان ومعاشهم وأصولهم، وثانيها حياة العرب الاجتماعية، وثالثها حياة العرب العقلية، ورابعها الأديان والعقائد التي كانت منتشرة في ذلك العصر، وتلك البيئة، وبهذا غدا الكتاب — كما عرفه المؤلف — مجموعة دراسات وتحليلات قرآنية، بما تناوله من درس الآيات وتحليلها، والتنويه بدلالاتها، والاشارة الى ما تلهمه من ظروف نزولها ومناسبتها، وعلاقة ذلك بما قبل البعثة.

ولعل — هنالك — من يدعي بأن مثل هذا العمل يضيق من حدود القرآن، أو بالاحرى، من رسالة الاسلام التي تتصف بشمولها، ويجعل من القرآن أثراً محلياً لايمتد الى ابعد من حدود الجزيرة وأهلها. ولكن هذا الادعاء يمكن رده بسهولة، لأن الرسالة — وان تكن شاملة — لاتستطيع أن تهمل شأن من تتنزل عليهم، لأنهم المقصودون بها اولاً. ولذلك كان لابد لها أن تعترف بالواقع، وتساير العصر والبيئة، وتخاطب الناس بلسانهم، وتحكي شؤونهم، ولو فعلت غير

ذلك لذهبت الرسالة في مدارج الهواء ، دون أن تترك لها أثراً .

والامثلة على ذلك ناطقة في الرسالات والديانات السابقة ، التي لم يستطع اصحابها انيهملوا واقعهم ومجتمعهم وتقاليد بيئتهم .

وماهي الانسانية بعد ذلك ؟ مشاكل واحدة تعترضها ، متمثلة في كل انسان ، ماثلة في كل مجتمع ... حتى اذا انشأت مجتمعاً جديداً وجمعت انصاراً يؤمنون به استطعت ان تنطلق من هذا المجتمع الى كل مجتمع ، واستطعت ان تعالج كل المشاكل المتشابهة في كل مكان .

ولذلك ، ما كان للقرآن ان يخرج على هذه الطريقة ، وما كان له ان يهمل البيئة التي نزل فيها ، فهو خاص بكل معنى هذه الكلمة ان شئت ، لتعلقه بتلك الارض وتقاليدها . وهو عام بكل معنى هذه الكلمة لانه يخلق هداة يبشرون برسالة في مناكب الارض وطوائف الانسانية .

١ ـ اما في القسم الاول فالمؤلف يرسم لنا بيئة الحجاز وأهله ، وما كانت عليه هذه البيئة من جدب في ناحية ، ومن خصب في ناحية ، يعود الى بعض العيون والينابيع ، ومجاري السيل المألوفة . ولم يكثر القرآن من ذكر الامطار وأمواه السماء إلا لأن تلك البيئة كانت تعتمد على مطر السماء . ويحق كانت الامطار معجزة ناطقة بما تتركه في الارض الميتة من خضرة وبهجة وحياة .

وفي القرآن صور شتى تدل على ازدهار الحياة التجارية والاقتصادية التي تعتمد لها طرقاً ومسالك في البر والبحر . والبحر يرد ذكره كثيراً لأنه يمثل مظاهر الرهبة حين يثور ، ويجد الانسان نفسه فيه عاجزاً مستسلماً ، كما يمثل طرائق الحياة حين يسهل ركوبه وتسخيره لمآرب الانسان .

وفي هذا الفصل نطلع على ظواهر الحياة الحضرية التي تعتمد المدن التي ذهبت مذهباً واضحاً في ترفها وحضارتها ، وظواهر الحياة البدوية التي كانت مظهراً للجفاف والقسوة والحرمان .

وهذا فارق لايزال قائماً بين اهل الحضر الذين تصير اليهم امور التجارة والصناعة والتبادل ، والتنقل ، وبين اهل البدو الذين يكسبون بشق النفس من القفر وسائل حياتهم الجافية .

وبدهي ان يتمسك اهل الحضر بمتزلتهم وحياتهم ومدنيتهم ، ويعملوا ما في وسعهم من اسباب الحماية والتحصين ضد اولئك البدو الذين لايجدون أسباب الحياة الا في الغزو والسلب .

٢ ـ وفي فصل الجنسية العربية يركز المؤلف فكرته على ان الجنسية العربية كانت حقيقة قائمة بنفسها ، قد

اثبتها القرآن في اكثر من موضع ، حين جعل القرآن نفسه عربياً ، والحكم عربياً ، والرسول عربياً لاينطق إلابلسان قومه. وفيه اشارة صريحة الى مايفرق العربي عن الاعجمي. وهذا برهان قوي على استقرار معنى اسم «الامة العربية» أو «الجنسية العربية» شاملا لمن كان يتكلم باللغة العربية في الجزيرة، ولمن ينتسب اليها، ويتصل بها في المنشأ والأنساب والارحام من العرب الذين كانوا في اطراف الجزيرة ومهاجرها، سواء منهم المتحضرون او البدو.

وهنا، كان لابد للمؤلف، ان يلم باصول النسب العربي، أو بالاحرى، اصول العرب المستعربة. فيأخذ برواية القرآن التي ترد هذا النسب الى اسماعيل الذي هو ولد ابراهيم النبي... وخلاصة الرواية ان ابراهيم توجه هو وزوجه هاجر وولده اسماعيل نحو ارض الحجاز، حتى بلغ مكة، ورفع قواعد البيت فيها. واقام اسماعيل في مكة، وبلغ مبلغ الرجال، وأصهر في قبيلة جرهم، فكان من نسله العرب...

والآن، يبدو لنا هذا السؤال:

— ألم يكن أبناء جرهم عرباً من قبل اسماعيل؟ ألم يكن هنالك من عرب غير أبناء جرهم؟

سؤال وضع المؤرخين والباحثين في حيرة، الباحثون العرب، والباحثون المستشرقون سواء في ذلك.

وهذا الكاتب الفرنسي «فولتير» يتصدى في «معجمه الفلسفي» الى هذا الموضوع، ويعالجه بشيء من التشكك والسخرية، شأنه في كل مايكتب، ونورد نصه على سبيل الاطلاع:

«ابراهيم من الاسماء البارزة في آسيا الوسطى، وفي الجزيرة العربية... والعرب يزهون بأنهم انحدروا من سلالة ابراهيم، بواسطة اسماعيل. ويعتقدون بأن هذا الاب الجليل بنى مكة، ورفع قواعد البيت فيها، وقضى نحبه فيها.

وفي الحق ان ابراهيم ترك ذريتين: ذرية يعقوب التي لم تملك الا قطراً صغيراً لم تلبث أن ضيعته، وأما ذرية اسماعيل فقد ملكت قطراً واسعاً من آسيا وأوروبا وافريقيا، وأسست مملكة أوسع حدوداً من مملكة الرومان، وطردت اليهود من كهوفهم التي يطلقون عليها اسم «ارض الميعاد».

واذا ناقشنا القضية بحسب طريقة مؤرخينا الحديثة، نجد من العسير أن يكون ابراهيم والد ذريتين مختلفتين.

انهم يقولون ـ في التوراة طبعاً ـ انه ولد في أرض كلدانية ، وانه كان ابن رجل فقير يعمل خزافاً ، يربح معاشه من صنع اوثان صغيرة من الطين . فكيف تأتى لهذا الولد أن يؤسس مكة ، وهي على بعد ثلاثمائة مرحلة من منشئه ، تحول بينه وبينها صحارى يصعب اجتيازها ؟

فلو كان فاتحاً كان عليه ان يعبر الى الارض الآشورية الخصبة ، وان كان فقيراً ـ كما يرسمونه ـ فانه لا يؤسس ممالك خارج ارضه .

ان التوراة تقص انه خرج من بلد وثني الى بلد وثني هو « سكيم » من ارض كنعان في فلسطين . فلماذا ذهب اليها ؟ ولماذا ترك ربوع الفرات الخصبة الى أرض مقفرة بعيدة ؟ هل كان لسانه الكلداني يختلف عن اللسان « السكيمي » . والمكان ، بعد هذا ، ليس بموضع تجارة ، وهو بعيد عن أرضه زهاء مائة مرحلة ، ولكي يصل اليه ينبغي له أن يجوز صحارى .

ولكن الله قضى له هذه الرحلة ، واراد ان يريه الأرض التي ستشغلها ذريته من بعده عصوراً طويلة .

ولكن العقل الانساني يدرك ، بعناء ، اسباب مثل هذه الهجرة ! .. »

وهكذا نرى « فولتير » يقف موقف المتشكك أمام هذه الأسفار . وليس لنا أن نشك في رحلة من رحلاته أوردها القرآن بتفصيل ، وهي الرحلة التي نزل بها ابراهيم أرض مكة ، حيث بنى فيها قواعد بيت الله بوادٍ غير ذي زرع ، ومعه زوجه هاجر ، وابنه اسماعيل الذي كبر وترعرع ، وتزوج في تلك الربوع ، وكان منه تلك الذرية المعروفة بالعرب المستعربة .

ولكن هذا الاعتقاد لا يبطل السؤال ، وانما يحوله في اتجاه آخر :

ـ ألم يكن هنالك من عرب قبل وفود ابراهيم ؟ وما هي جنسيتهم ؟ ومن هم الذين صاهرهم اسماعيل وولد منهم تلك الذرية الضخمة ؟

الحق أن الجواب ينبغي أن يتجه بنا الى أبرز عمل قام به ابراهيم في تلك الارض ، وهو رفعه لأعمدة البيت الذي ظل مقدساً تهوي اليه افئدة الناس ، وضربه للعبادة الوثنية ، ودعوته الى عبادة الاله الواحد ، قبل أن تكون هنالك يهودية او نصرانية .

ومن هنا يخطر لي أن العمل العظيم ينحصر في هذا العمل ، باعتبار ان ابراهيم لم يكن تاجراً ، ولا مسافراً وانما كان صاحب رسالة يبشر بها ، وقد نزل بهذا المكان ، وأقام معالم الرسالة في هذا البيت ، فكان أباً روحياً لتلك الجماعة التي آمنت به .

وفي مدلول الآية « ملّة أبيكم ابراهيم حنيفاً وهو سماكم المسلمين من قبل » مايشير الى ان القربى تتصل بالملة او بالرسالة . فهل نستطيع أن نفهم منها أن القربى لم تكن الا قربى روحية ؟

خواطر شتى يمكن أن تثور ، أضعها بين يدي المؤلف لاستعادة دراستها على ضوء هذا التساؤل، كما أضعها بين ايدي المختصين ، للوصول بها الى نتيجة منطقية . وبذلك نعود « بالجنسية العربية » الى أصلها الطبيعي ، الا أن يتبين لنا غير ذلك .

٣ ـ والقرآن لايمكننا أن نجد فيه الا كتاباً مألوفاً عند العرب بلغته وأسلوبه، وليس من المنطق أن يكون الا مألوفاً، لأنه لايعقل منه أن يخاطب أناساً بما لايفهمون .

والقول الفصل أن لغته كانت هي اللغة الدارجة بمفهومها ، لايبعدها عن ذلك ابتداع ألفاظ جديدة، لها مدلولات جديدة تقتضيها طبيعة الدين . وليس لهذه اللغة ، في عالم الأدب ، أن تعبر عن المعاني إلا بالشعر ، أو النثر الفني . وهكذا كان . . وأنى للسامعين أن تفيض اعينهم من الدمع اذا لم يؤثر في أعماق نفوسهم ؟

وقد احسن صنعاً الدكتور « زكي مبارك » في كتابه « النثر الفني » اذ جعل من القرآن كتاباً مألوفاً، لايخاطب الا رجالاً يفهمون أسلوبه ومراميه . وان لم يكن الأمر كذلك ، فكيف إذن ، حدثت المعجزة ؟ وهو بهذا تنكب طريقة الكهان والمتنبئين الذين كانوا يستعينون بالتمتمات المبهمة للتأثير في الناس . . فكان كتاباً عربياً ، واضحاً ، لاينطق عن الهوى ، يستثير العقول ، ويستخدم الجدل ، ويركن الى البراهين المنطقية، لأن المنطق وحده هو الذي يظهر على المنطق !

٤ ـ وفي مبحث الحركة الاقتصادية والمعايش ، يثبت المؤلف أن هنالك حركة اقتصادية واسعة ، تحرك أصحابها من مكان الى مكان طلباً للتجارة والربح. ولنا في وضع مكة والمدينة ـ كمراكز اساسية للقوافل العابرة ـ مايدل على هذه الحركة الاقتصادية المزدهرة .

وحين يثبت هذا التنقل يثبت معه اختلاط العرب بغيرهم من الامم . لأن الحركة الاقتصادية تحمل معها حركات اجتماعية ، وعقلية ، وسياسية .

ووراء الحركة الاقتصادية لابد أن ينمو نشاط صناعي وزراعي ، بحسب ماتقتضيه ظروف كل قطر .

ولكن المؤلف يتالي كثيرا في وصف استقلال النشاط الصناعي عند العرب ، مع انه نشاط لابد أن يتميز بتعاونه مع النشاطات الصناعية عند الأمم الاخرى التي كانت أسبق في هذا المضمار ، كما هي الحال في عصرنا الحديث ، وان في نسبة صناعة الرماح والسيوف والدروع الى اقطار مختلفة

« كالسيوف الهندية ، والسيانية ، والمشرفية » ما يدل على هذا .

كما يرى المؤلف في استكثار القرآن من التشابيه والصور « والأسورة الذهبية والفضية والياقوت والمرجان » ان العرب عاشوا عيشة ترف ، واستخدموا هذه الموصوفات في حياتهم . ولكن ... ألا يرى المؤلف ان هذا الاستكثار في تلك البيئة القاسية المحرومة ، انما يرمي الى تصوير روح الرغبة الناشئة عن الكبت والحرمان؟ وان لنا في اضفاء هذه الصور على عالم الجنان ، ما يريد أن يعوضهم عما تتوق اليه نفوسهم المحرومة ، فهم ليسوا بغرباء عن مشهدها، ولكنهم كانوا محرومين منها ، وهم يتمنونها .

ولذلك ، نرى القرآن حين يتعرض للثروة الحقيقية التي تعرفها الجزيرة « كالثروة الحيوانية في الانعام ، والثروة النباتية » يشيد بهذه الثروة ، ويمن عليهم ان سخرها لهم ، وهيأ منها طعامهم ولبوسهم وشرابهم ومراكبهم . كما يمن عليهم أن يجدوا في بعض أقطارهم الثروة النباتية التي يجدون فاكهتهم فيها !

ولو ان هذه الحلية المدنية شائعة لديهم ، قريبة من أيديهم ، لما جعلها من اسباب الترف التي وعد بها أهل الجنة ، « حيث يحلون فيها أسورة من ذهب وفضة ولؤلؤ » .

٥ – وفي فصل « الجاليات الأجنبية في الحجاز » يذكر المؤلف ما كان لهذه الجاليات من أثر في الحياة العربية ونحن لانعلم – يقيناً – أسباب توارد هذه الجاليات على الجزيرة العربية ، ولكنها لابد ان تكون ذات أثر في الحياة العربية ، بما تحمله معها من تقاليدها وعقائدها ومعارفها وصناعاتها ، قدمت بها من مواطنها الأصلية التي هي أعرق نسباً في الحضارة .

ويبدو أن هذه الجاليات كانت بعيدة الأثر في الحياة العربية ، بدليل ما يختص القرآن بأحاديثه اليها ، ومجادلتها ، لأنها كانت تمثل الجانب الأكثر وعياً في الحياة العقلية والدينية . ولئن أكثر القرآن من التحدث الى اليهود فما ذلك الا دليل على ما كان لهذه الجالية من أثر في الحياة العامة .

ولا يهمل القرآن أن ينقل الجدل الى الخصومة الطبيعية بين اليهودية والنصرانية ، وهذا يدل على ما كان بين الجاليتين من طموح ونزاع .

وهذه الجاليات برغم حياتها واستيطانها في الجزيرة منذ عهد طويل ، كانت تشعر بأنها طوائف ، خاصة وهذا ما كان يدفعها الى ان تعيش جماعات في أماكن خاصة متقاربة خشية على أنفسها . ولعل الجالية اليهودية كانت اكثر من خوفاً ، بحيث كانت تتعصب لنفسها ، وتختار لسكناها الاماكن المحصنة، والصياصي المنيعة ، درءاً للغزو العربي ، بينما كانت الجالية المسيحية أبعد عن التكتل ، اما

افلشها، واما الأنثى اكثر طواعية للتسامح والاختلاط.

٦ - وفي الحياة الاجتماعية : يعقد المؤلف فصولاً تتناول حياة الاسرة والعصبية الاجتماعية ومظاهر الحج ونظام الحكم والطبقات . ولاشك ان الاسلام تناول هذه الحياة بالاصلاح ، ولاسيما ما يتعلق منها بالمرأة ، مما كان يصيبها من حيف وارهاق واعنات في حياتها المادية والمعنوية ، وقيمتها الاجتماعية .

والعصبية الاجتماعية ، وهي أساس النظام الجاهلي ، نراها تشتد عواملها في البدو اكثر من اشتدادها في الحضر . ولكن المدينة ، مع ذلك ، لم تستطع أن تنجو من هذه العصبية ، والعصبية هي تعصب افراد الوحدات التي كان يتألف منها المجتمع اذ ذاك ، كالقبيلة والبطن والفصيلة والعائلة ، لبعضهم فيما يكون بينهم من مصالح مشتركة ،

والعصبية ، وان تكن قوة متماسكة في الداخل فانها ضعف وانشقاق في الخارج ، لأنها لاتترك حرمة للقانون ، ولا هيبة للدولة ، ولا تلافياً في الاحداث . ولعل ما نال العرب من اوزار العصبية جعلهم يدفعون ضياع الامبراطورية ثمناً لهذه العصبية ، ومجتمعنا - لاسيما ما كان منه بدائيا - لا يزال يعاني منها الكثير .

على أن القرآن دعا الى عصبية جديدة ، جماعية لاتعتمد على جذور العصبية السابقة ، منها الاعتصام بحبل الله جميعاً ، ومنها جعل الايمان ووحدة العقيدة أساساً للنصرة .

ولكننا ، مع هذا ، لانستطيع أن ننكر أن العصبية أدت أحيانا الى مزالق خطيرة ، والرسول نفسه الذي تألب عليه خصومه أفادته عصبية أسرته . ولولا خوف الذين عزموا على قتله ليلة الهجرة لما أقروا أن يكون هذا القتل بسيوف عدة ، تهوي عليه مرة واحدة ، ليضيعوا دمه هدراً ، خوفا من عصبية أسرته .

وفي المعارك الاسلامية طالما انتخت هذه العصبية ، وأفادت من الناحية القومية والناحية الدينية .

ولكن الاسلام دعا الى تبديل مفهوم العصبية ، وتوسيع مدلولها ، حتى تنتقل من عصبية في النسب والقبيلة الى عصبية في العقيدة ... ولكن الجذور العصبية الاولى - برغم هذا كله - لم تمت .

ويذهب المؤلف - في صميم بحثه - الى مازعم أنه تصحيح لخطأ يقع فيه بعض الباحثين في وصفهم العرب بالفردية . لأن هذا يتناقض مع طبيعتهم الاجتماعية .

ولا اخال المؤلف الا مغالياً في التركيز على هذه الطبيعة الاجتماعية . لأن هذه الطبيعة لم تكن نابعة الا من شدة غلوهم في الفردية . واذا لم يكن للفرد من قيمة الا بنسبة ارتباطه بالجماعة ، فان الجماعة نفسها لم يكن لها من قيمة الا بنسبة

ارتباطها بالفرد وحمايته ، فكأنما هذه الطبيعة الاجتماعية - عندي - صورة لتلك **الفردية الكبرى** (١) .

والى هذا التناقض يعود سر التفكك السريع في كيان هذه الأمة التي لم يعرف التاريخ لها مثيلا في سرعة تكوينها ، واتساع مداها ، في عمر لايكاد يتجاوز عمر الأفراد ، ثم أسرعت في الانهيار والتمزق بوجود هذا التناقض الملح في شخصيتها الفردية والجماعية .

والعصبية - عندهم - أنواع ، منها عصبية الأقارب وذوي الارحام ، وعصبية القبيلة ، وعصبية الاحزاب ، والتحالف القبلي ، وعصبية الولاء ، وعصبية الجوار ، وعصبية التقاليد .

٧ - ولعل قيام الكعبة والبيت الحرام كان من أعظم مآثر الجاهلية ، لأن قيامها مثل «منطقة الأمن» في ذلك الخضم المتلاطم ، المشحون بالخصومات والأحقاد . وفي هذه المنطقة كانت شؤون كثيرة تبرز للحل والتفاهم ، وقد اعتمد عليها القرآن وشدد على حرمتها ، لتكون كذلك في الاسلام مركز قوة وتجمع وتعاون . كما أنه أعطى سكان مكة امتيازات خاصة نحو حق الحرمة ، والميزة على العرب ، ليكون منهم قادة المستقبل ، وحكام الشعوب ، بحكم هذه الأفضلية . وبذلك ظلت هذه المنطقة على حرمتها عند من آمن خالصاً ، وعند من لم يؤمن !

٨ - وفي كل مجتمع - مهما أفرط في التفكك - لابد أن يكون فيه مظهر من مظاهر الحكم . أما في الاسلام فقد رد الأمر الى وجوب طاعة الرسول وأولي الأمر ، بينما كان الامر في الجاهلية يعود الى تقاليد قبلية ، تجعل من القبيلة أشرافاً وعقلاء يحكمون ، ورعية تؤمر ، وتتبع .

ولكن المؤلف يريد أن يستدل على أنه كان في مكة حكومة شيوخ الأشراف وأن سلطتها كانت دينية ومدنية معاً . على أن الحقيقة تنبئ أن السلطة الدينية لم تكن الا مظاهر وتقاليد موروثة ، مشلولة ، بينما السلطة المدنية كانت تستمد من التقاليد الاجتماعية .

وحين جاء الاسلام كانت هنالك شعائر الموروثات الدينية في أيدي بني هاشم ، وموروثات الحكم في أيدي بني أمية . وعلى هذا الزعم ذهب بعض المؤرخين الى ان الهاشميين ظلوا في الاسلام رجال دين لايحسنون الحكم ، وان الامويين رجال دنيا وسياسة .

---

(١) ليس من اليسير نقض نظرية الاستاذ دروزة ، بهذه السرعة وبهذا الايجاز . فالموضوع شاق وجليل ، وجدير باهتمام المؤرخين وعلماء الاجتماع . وبهذا نطرح الموضوع للتبصر - المعرفة -

وهذا التمييز مما كان ينبغي للمؤلف الاشارة اليه!

هذا ما كان في الحضر ، وأما في البدو فان سلطان الحكم يرتبط بتقاليد العشيرة والقبيلة ، حيث كان يفرض « ميزان القوى » نفسه في احترام الحقوق على قدر الامكان .

٩ — وأما نظام الطبقات فهو نظام قائم في الجزيرة ، شأنه في ذلك شأن غيره من الأنظمة في مايشبه تلك المجتمعات ، على أن القرآن حاول ، بقدر استطاعته أن يقرب بين هذه الطبقات ، ويجعل الجميع سواء في الحقوق .

ومن ذلك ذهابه في محاربة الرق مذهباً انسانياً ، والرق كان منشوراً في الجاهلية ، وللرق نظام خاص في المعاملات والعلاقات الاجتماعية .

دعا الاسلام الى الرفق بالرقيق ، والعمل على عتقه ... فكانت دعوته دعوة انسانية لعلها تمثل أصدق الوجوه الانسانية في ذلك العصر ، وفي كل عصر .

١٠ — أما الحياة العقلية فلانستطيع أن ننكر وجودها ، في ذلك المجتمع البدائي ، كما لانستطيع أن نقارنها بالحياة العقلية عند بعض الأمم المتقدمة ، كالأمة اليونانية مثلا .

والحياة العقلية عند العرب كانت أشتاتاً من تأملات ذاتية ، أو تأملات مقتبسة من الحركات والتيارات الفكرية التي كانت تنصب على العرب بمقدار .

ولكن القرآن ، وما ورد فيه من مجادلات ومناقشات حادة حول أمهات المسائل والمشاكل لايدل الا على وجود حركة عقلية نشيطة تتصف بالحياة والنضج والشك ، والتساؤل .

ولعل لغة القرآن أكبر دليل على هذا النضج ، لانها اتسعت — لاول مرة — للتعبير عن هذه الخواطر والمشاكل ، وان لم تعطها « وحدة الموضوع » لان الآيات كانت تمثل الحوار العنيف بين عقليتين مختلفتين ، أكثر مما تمثل « بسطاً » لاحد المواضيع .

ولما كان هذا العمل جديداً في الشكل والموضوع كان من مزايا القرآن أن يتحدى من يستطيع محاكاته في أسلوبه وأغراضه ، باعتباره أسلوبا جديدا ، لاهو الى الشعر المألوف ، ولا هو الى النثر المعروف .

ولهذه الخصائص مجتمعة عد القرآن أول كتاب في النثر العربي الفني .

والقرآن ، بعد هذا كله ، كان مظهراً رائعاً للغة العربية ، والعلوم والمعارف وفنون الادب ، ترك أثره في الادب العربي والاسلوب العربي ، كما ترك أثره في تكوين العقلية العربية الجديدة ، والحياة الاجتماعية :

وفي القرآن نفسه لفتات متعددة مع القصص التاريخية ، ولاسيما ما يتعلق منها بقصص الانبياء ،

والمرسلين ، ولكنه كان مبدعا في روايتها، تختلف روايته لها عما ورد في التوراة ، اذ عالجها بايجاز واعجاز وحكمة ، بحيث تـــاول كل قصة من الجانب الذي يساعده على ابراز الحكمة الخاصة منها. وهو على رغم تكريره بعض مشاهد هذه القصص للتذكير لم يفقد روعة التعبير !

ولعل أبرز مظهر لهذه العقلية ارسال الحكم، والاعتراف بوجود الحكماء والعقلاء ، وقد رأينا في الأدب الجاهلي كثرة تمثل هذا الاتجاه . ومنها كذلك وجود المعارضين ، والمجادلين الذين كانوا يعارضون إما بسبب كشف الحقيقة ، وإما بسبب العناد والحسد والأنانية والمصالح الذاتية .

وطبيعي جدا ان تكون الحياة العقلية قوية ، ترفدها عقائد الوثنية الموروثة وما يتبعها، وعقائد اليهوديه والنصرانية التي كانت تتحرى منافذ لها ، والطقوس والعادات والافكار الدينية . وهـذا كله يدل على ما كانت تتمتع به تلك البيئة من نشاط عقلي ، وتحفز لمعرفة الحقيقة .

ونضيف الى هذه المظاهر العقلية الطريقة التي اتبعها القرآن في توطيد الرسالة ، حيث جعل منطلقهـــا من « ملة ابراهيم » ، وماهي ملة ابراهيم ؟ انها مـلة تعترف بوجود الله ، وتنفي عنه المظاهر الوثنية ، ولاتمت الى اليهودية والنصرانية بشيء ، وبقدر ما كانت هذه العقيدة بسيطة ، أراد القرآن أن تكون رسالة واقعيـة بسيطة ، وفي مثل هذه العقيدة لايحتاج الوسول الى مظاهر ترقى به عن البشرية : بل كان هم الوسول أن يكون بشرا ، ولايرى فيه الناس الا بشراً . وبذلك حالف الاسلام الواقعية ، وجعل معنى النبوة واقعياً ، لا يحتـاج الى الخوارق غير الطبيعية ، لأن النبي بشر ، قبـل أن يكون شيئاً آخر .

ومذ أعلن الرسول الدعوة الى هذه الرسالة اصطلحت على خصومته الوثنيـة واليهودية . أما الوثنية فقد هاجت بحـكم العصبية للتقاليد والعادات ، وأما اليهودية فقد كانت ألد اعداء الاسلام ، يدفعها الى ذلك أنانية رؤسائها ، واعتقادهم بأن كل نبوة وحكمة و كتـاب لايمكن ان يكون الا فيهم ، وبينما كانت في سلم مـع الوثنيـة التي لا اتصال بها ، اذا هي في حرب ضروس مع الاسلام الذي يجتمـع مع اليهودية في مبدأ التوحيد ، لأن الخلاف كشفته المصلحة ، لا العقيدة .

وفي احد المباحث من كتاب « اللغات السامية » يرى مؤلفه اليهودي « اسرائيل ولفنسون » أن اليهودية أخطأت خطأ فاحشاً يوم انتصرت للوثنية الجاهلية على الاسلام الذي يجمعه معها بعض التشابه

ولا سيما التوحيد. وبذلك خانت اليهودية عقيدتها، ودلت على أنها في كل ما تعتقد به لا تصدر الا عن أهواء خبيثة، ومنافع مادية.

وأمام هذه الخصومات العنيدة والمؤامرات الغادرة كان لابد للاسلام أن يمحي أمر الوثنية واليهودية معاً، لأنهما متحالفتان على الغدر، والعناد.

وأما المسيحية فقد لقيت من الاسلام صدراً رحيباً، وتلقت منه دعوة تمثل التسامح والاخاء مع اهل الكتاب « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألاّ نعبد الا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ». كذلك مدح الاسلام صدق المودة في افئدة الذين قالوا « إنا نصارى »، بل يذهب الاسلام، في تمثيل الانسان الصالح، مذهباً انسانياً، يجمل فيه كل انسان ما يحسنه، دون النظر الى معتقده. ومن ذلك مثله الآية: « ان الذين آمنوا، والذين هادوا، والنصارى، والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ».

أما مبدأ نزاع الاسلام مع المسيحية فلا نعلمه قبل غزوة « مؤتة » حيث كان الصدام الاول مع كتائب الروم، ثم انتقلت عوامل هذا النزاع على « صعيد سياسي ».

١٢ — ويلقي المؤلف في نهاية مباحثه هذا السؤال: « هل من ترجمة للكتب السماوية في الجاهلية؟ » ومن رأيه أنه لابد من أن يكون بعض أسفار العهد القديم والجديد، ان لم يكن جميعها، قد ترجمت الى العربية قبل الاسلام، وضاعت فيما ضاع من آثار عربية مدونة في غمرات الثورات والفتن والفتوح، لأنه لم يردنا أية ترجمة تمت الى ما قبل البعثة.

ربما كان هذا الرأي صحيحاً ما دامت عليه سمة الافتراض. ولكنه، لو كان صحيحاً كلياً لما فاتنا أن يأتينا من هذه الترجمات شيء، ومثل هذه الترجمات عادة تكون في الاديرة، والاديرة أكثرها ظل في منجاة من الأحداث، ولذلك يصح القول عندنا أن هذه الكتب لم تترجم بداعي أن أصحابها كانوا يؤثرون أن يتلوها بلغاتها الأصلية. واذا ترجموا بعض أقوالها وقصصها آثروا أن يكون ذلك في معرض الحديث والخطابة، لا الكتابة.

وفي الحق أن ما ترجم لها لم يردنا الا في العصر الاسلامي الاول، وفي «عيون الاخبار» لابن قتيبة، قبسات من هذا المترجم الصحيح الرائع.

والآن، بعد هذا المطاف الذي أظنه طويلاً، لا لأني أحببت أن يطول، ولكن طبيعة الكتاب، وضخامة

الموضوع اقتضانا مني ذلك . وليس لي، بعد الانتهاء من مطالعة هذا السفر الضخم الذي صحح كثيراً من معارفي، وأغناني بمعارف جديدة الا أن أشكر المؤلف ، وأبارك له هـــذه الجهود الصادقة، الثابتة، الحريصة على التنقيب عن الحقيقة ، تنقيباً دءوباً بعيداً عن العصبية ، والهوى ، والغرض ، وهذا مايتصف به كل مؤرخ يحترم حقائق التاريخ وعقول الناس .

ولعل الجدير مني بالتنويه ، بل بالمدح، هذه الطريقة الجديدة المشكورة التي اتبعت مبـــدأ العودة الى النصوص ـ الينابيع الحقيقية ـ واستخراج الحقائق منها ودراسة العصر والبيئة، والحياة ـ بجميع أنواعها ـ على ضوء ماتعطيه هذه النصوص .

وما أجدرنا بأن نتبع هذه الطريقة في دراسة تاريخنا مرة ثانية ، بل في دراسة كل موروثاتنا الفكرية والادبية . لأن ومضة نص صادق تساوي الف ومضة من رواية زائفة ! واذذاك نفتح صحيفة جديدة لفكرنا يبرز عليها واضحاً ، ونخلق تاريخاً جديداً قائماً على دعائم متينة !

واني لأستميح المؤلف عذرا اذا خالفته ، في بعض نتائج هذه الرحلة ، لاحباً بالخلاف ، وأنا على اتفاق معه على الطريقة ، ولكن مصدر هذا الخلاف يعود اكثره الى حيث يحتمل النص تأويلاً آخر ، أو الى حيث تتشابك النصوص على حقيقة واحدة .

وجزى الله المؤلف عن الحقيقة الجزاء الأوفى

التقديم والمقابلة مع :

الشاعر المغترب جان زلاقط

بقلم : عيسى فتوح



الاستاذ جان زلاقط

بالرغم من ان الحرف العربي وراء البحار اوشك ان يلفظ انفاسه الاخيرة ، بعد ان غيب الموت اعلامه الاوائل ، وزواده الذين شعشعوه ايام كان ينوس في مهده ، ويعاني من العنت والارهاق والضغط القاتل مايعاني ... بالرغم من ذلك كله فان هذا الحرف لايفتأ يتألق من حين لآخر ، ويومض فيصيب سماواتنا بقبس منه ، يعيد الينا الذكرى ، يجعلنا نؤمن بأصالته، بقدرته على الاستمرار والبقاء .

وقبل فترة شرد نجم أدبي لألاء من اقصى اراضي جمهورية التشيلي ، من سانتياغو ، وارتمى في الوطن الأم ... انه الشاعر الزجلي جان زلاقط الذي استمع اليه جمهور دمشق في المركز الثقافي العربي مساء ١٩٦٤/١١/١٨ يتحدث عن الحركة الادبية في تشيلي ، واعلامها ، وبعيد صدى الاحداث التي مرت بالامة العربية شعرا وطنيا لاهبا .

والاستاذ زلافط من مواليد زحلة في لبنان ، تخرج من الجامعة الوطنية في عاليه سنة ١٩٢٩ . وكان يود دراسة الحقوق في سورية ، الا انه لسبب ما سافر الى المهجر ، فوصله مطلع عام ١٩٣٠ . بقي هناك عامين شعر خلالهما برغبة جارفة وحنين صارخ للرجوع كيما يدرس الحقوق . وبالفعل عاد سنة ١٩٣٢ . الا انه لم يتمكن من الالتحاق بالجامعة ، فانصرف الى الادب ، والنقد بخاصة ، وكان ينشر مقالاته النقدية في « المكشوف » . ثم قصد للمهجر ثانية سنة ١٩٣٩ واستأنف اعماله التجارية ، بالاضافة الى اشتغاله بالادب والصحافة ، حيث كان يصدر جريدة (الوطن) التي استمرت اربع سنوات.

وبعد احد عشر عاما اي سنة ١٩٥٠ قدم الى الوطن مرة ثانية ، وثالثة سنة ١٩٥٥ ورابعة سنة ١٩٦٢ .

ساهم في الحركة الادبية هناك ، والقى عدة محاضرات عن العرب وتاريخهم وأدبهم في كل من « بوليفيا وتشيلي » وترجمت قصائده الى الاسبانية ونشرت اكثر من مرة باللغتين معا ، وترأس عدة مؤتمرات عقدت في اميركا ... وهو الآن يعد ديوانه الاول للطبع وكتابا آخر عن رحلته الى البلاد العربية على غرار « انطباعات مغترب » المرحوم عبد المسيح حداد .

سألته ان يحدثني عن بعض ادباء تشيلي من العرب فقال :

— هناك داود مجاعص الذي ترجم الى الاسبانية كتابي (المجنون والسابق) لجبران ، والفيلسوف السوري موسى موسى الذي ترجم له أيضا كتاب (النبي) ، وجبيل شوحي وقد نشر هذا الاخير خمسة عشر كتابا آخرها كتاب اسمه (سورية) ، ورافؤول بازجي صاحب (نافذة على الحياة) وماري بني عطا الله صاحبة مجلة (منيرفا) التي ترجمت الى العربية تاريخ تشيلي .

— قلت : ماهي الصحف التي كانت تصدر في تشيلي ؟

— قال : أول صحيفة عربية هي (الوطن) التي انشأها داود مجاعص ، ثم (الشبيبة) لجميل شوحي ، والمشرق ، والوطن التي اصدرتها بعد غياب سميتها — . والآن تصدر جريدة (العالم العربي) بالاسبانية يشرف عليها جورج أبو صباح وكانت تصدر بالعربية باسم (الاصلاح) .

— قلت : هل كان عندكم جمعية ادبية على غرار (الرابطة القلمية) و (العصبة الاندلسية)؟

— قال : كان لدينا في تشيلي جمعية هي جمعية (اصدقاء الادب العربي) وكانت شبه أكاديمية ، يشترط بكل من ينضم اليها ان يلقي محاضرة ، يقدمه فيها المحاضر السابق ، ثم تنشر المحاضرات في كتب خاصة ... بلغ عددها السبعة ، أما مكان المحاضرات فهو قاعة الشرف في جامعة تشيلي .

— قلت : ودراسة العربية ؟

— قال : هناك معهد لتدريس العربية في جامعة تشيلي ، يضم الادباء العرب ، وأكابر ادباء تشيلي ، وفيه تعقد الندوات للبحث والمناقشة بالعربية .

— قلت : احب ان تحدثني عن ماري بني عطا الله

– قال : شهرة هذه السيدة تعود لتلك الايام التي كانت تصدر فيها مجلة (منيرفا) ، وهي الآن في خريف العمر . تؤازرنا قولاً وفعلاً في جميع تظاهراتنا الوطنية ، . . وقد اهدتها حكومة تشيلي مؤخراً وسام الاستحقاق . تقديراً لكفاحها الأدبي والفكري .

– قلت : هل تصلكم مجلات او جرائد عربية؟

– قال : غالباً لايصلنا شيء اللهم الا مجلة (الوطن الأم) التي تصدر عن وزارة الاعلام السورية .

– قلت : والسفارات العربية ألا توزع عليكم شيئاً من ذلك ؟

– قال : عندما نطلب بأنفسنا ، ولذلك ترانا نعيش في عزلة أدبية خانقة ، وعندما يستلم أحدنا مجلة عربية آتيـة من الوطن يحول استمرائه في أعماله دون تعميمها على بقية زملائه .

– قلت : ماهو عملك الآن ؟

– قال : وهل هنالك غير التجارة ، إلا أنها لاتلهيني ... علي الكبيرة اني مقل ، وزاهد في الشعر . . اللهم الا بعض قصائد ابعث بها لمجلة « الشرق » البرازيليـة لموسى كريم ، ولمجلة « المواهب » في الارجنتين ليوسف الصارمي ، ومجلة « العربي » الكويتية ، واحيـاناً ابعث بانتاجي الى جرائد حمص .

– قلت : لماذا اوقفت جريدتك !

– قال : لفقدان من يقوم بعملية صف الأحرف في حين لم يكن باستطاعتي ادخال طباعة اللينوتيب ، ناهيك عن أن قراء العربية اصبحوا يعدون على الأصابع . . ولذلك انقطعت بعد أن استمرت اربع سنوات تعنى بالسياسة والأدب والاجتماع .

– قلت : ماهي نشاطات الجالية العربية حالياً؟

– قال : نشاطاتنا تتبلور في رفع اسم الوطن عالياً ، وخاصة عنـدما تدعو الحاجة . فعندما سافرت غولدا ماير وزيرة خارجية اسرائيل أقمنا عدة اجتماعات ومؤتمرات تقلل من اهمية مجيئها الى تشيلي . كما اننا نحتفل بأعيادنا الوطنية في صالة الشرف في جامعة تشيلي احتفالاً أدبيا ، غير أن الاحتفالات التي تقيمها على حـدة تكون في نوادينا العربية ، وقد توصلنا لأن يطلق اسم كل بلد من البلدان العربية على مدرسة رسمية ، فاتنا أن تعرف الطلاب التشيليين على بلادنا ، لذلك تراهم ينشدون أناشيدنا الحماسية في أعيادنا الوطنية وبلغتنا !

– قلت : كم عدد افراد الجالية العربية في تشيلي؟

– قال : حوالي أربعين الف مواطن .

– قلت : الاحظ أن زوجتك تتكلم العربية بصعوبة .

– قال : زوجتي تشيلية الاصل ، ولدت هناك وهي بالاضافة الى كونهـا طبيبة متخصصة في الأطفال نائبة رئيسة جمعية السيدات العربيات وقد علمتها العربية ، كما علمت ابنتي الصغيرة الوحيدة .

– قلت : من يشرف على تدريس العربية في جامعة تشيلي ؟

– قال : لقد اوفدت الجمهورية العربية المتحدة الاستاذ لطفي عبد المجيد – وهو يجيد الاسبانية – ليلقي دروساً بهذه اللغة عن أدبنا العربي . وهناك مدارس عربية ليلية في النوادي ، والاقبال عليها كبير جداً .. وقد ساهمت الجالية العربية مؤخراً ببناء الجناح العربي في الجامعة التشيلية ، بجمع



عبد المعين ملوحي يقدم
الاستاذ جان زلاقط

الأموال خصيصا لذلك ، وتشرف عليه لجنة من النساء العربيات برئاسة السيدة وجيهة اللبان .

وأخيراً سألته ما اذا كانوا يسمعون الاذاعات العربية فاجاب :

— نسمعها أكثر الأحيـان ، الا عندما يكون الطقس رديئا ..

مختارات من شعره

المغترب

صوت البلاد بمسمعي
صوت أبح .. الا ارجع
كف التـلاقي لم تزل
ممـدودة لمودع
والابتسام لعائـد
مازال خلف المدمع
والنظرة الحيرى تطوف
على الجهات الاربع
فبكل افق عالق
أمل الاب المتوجع
كم مدّ للقيا يـداً
ومشى ولكن لايعي
نادى بصوت خافت
وقضى ولمـّا نسمع
وامام كل كنيسة
او جامع او مركع
أمّ جثت تتلو الصلاة
بحرقـة وتخشع
وبكت كأن وحيدها
يأتي ببحر الادمع

. . .

جرح البلاد بمن نأوا
جرح غزير المنبع
وقفت على أطلالهم
ولهى تـدل بأصبع

ليت الوفاء يعيدهم
ظلي ذاك الموضع
. . .
صوت البلاد بمسمعي
رغم الفضاء الاوسع
مهما بعدت وطلت عهدا
لم تزل في اضلعي
اسعى النهار مجاهدا
فكأنها تسعى معي
واذا أويت لمضجعي
الفيتها في مضجعي
كم بت ملء الليل في
نجوى المحب المولع
وحييت ماضي الحبيب
بلذة المتمتع
. . .
وطني هجرت ربوعه
حبا بتلك الاربع
وحملت آلام الغريب
بعزة وترفع
وفتحت ابواب الغد
المجهول اسبق مطمعي
ونشرته في الخافقين
مع الشذا المتضوع

وطني لأجلك ما عملت
وما اقول وأدعي
كم شدت باسمك ملجأ
وفتحت كف موزع
ونشرت آيات النبوغ
على الجبين الانصع
زودتني بدمي وفيه
هناف ماض أروع
فمشيت استبق الزمان
الى المكان الأرفع
. . .
أنكرت ما حولي وما
جمعت يداي وما معي
والشوق ملء جوارحي
ولواعجي لم تهجع
والذكريات بخاطري
والى هناك تطلعي
دين علينا ان نعود
على عصا المتسكع
فلننتزع يوم الاياب
من الزمان المسرع
مالذة الدنيا سوى
يوم اللقاء المزمع

كتاب الجامع
في اخبار أبي العلاء المعري وآثاره

تأليف محمد سليم الجندي

تحقيق عبد الهادي هاشم

عرض وتحليل منير العمادي

لقد كان من أغلى أماني المرحوم العلامة محمد سليم الجندي على نفسه أمنية لكم تمنى أن يظفر بتحقيقها في حياته، تلك هي ، طبع مؤلفه الشامل عن أبي العلاء المعري الذي اشتغل بتدوينه سنين طويلة ، وانتقل منذ عشر سنوات الى جوار ربه وظلت أمنيته مطوية في الاوراق حتى قيض الله اخوان صدق للأستاذ الراحل أتقياء بررة أرفياء « أهل المجمع العلمي العربي بدمشق » فقد تعهدوها ورعوها أكرم رعاية ، فأبرزوها تميس بأجمل حلة وأبهى لباس، ولولا قرآن لقلت انها « خير كتاب أخرج للناس »

وهذا الكتاب وقد صدر منه مجلدان ينطويان على ١٢٣٥ صفحة من القطع الكبير ، أراني مما تحيرت من طوائف الكلم وجماهير الألفاظ لكي استطيع له وصفاً انقلب وانياً عن ادراك ما أورد .

ولعلي فيما أقتطف مما أورده الاستاذ عبدالهادي هاشم في تمهيده أبلغ القصد وأدرك الغاية من ذلك ، وهو حي . قال الاستاذ هاشم :

(*) نشر في العدد الماضي في زاوية « المكتبة العربية » عرض لكتاب « حول المكتبة » ، والكتاب – نقد وتعريف – ألفه الأستاذ عبدالله الجبوري . ولا بد من التنويه بأن الاستاذ خليل الهنداوي هو الذي قام بنقد الكتاب وتعريفه في مجلة المعرفة .

« وقد كتب في أخبار المعري وآثاره كثير من الأفاضل على توالي العصور ، واختلف في أمره الباحثون والناقدون ، على أنه لم يظهر الى يوم الناس هذا ، كتاب جامع لذلك كله يتسم بالنصفة ويتصف بالاستقصاء ويزن ماقال المعري وماقيل فيه بالقسطاس المستقيم مثل هذا الكتاب الذي خلفه الاستـــاذ المرحوم سليم الجندي ، فقد قضى في تأليفه سنين طوالاً ، وتوفي بعد أن فرغ أو كاد من تبييضه ، ولم يقيض له الأجل أن يدفعه الى الطبع ، فشــاء المجمع العلمي العربي - وفاء بحق الزميل الراحل ، وخدمة للبــاحثين والدارسين - نشر هذا الكتاب ... »

ولقد عهد المجمع العلمي الى الاستاذ عبد الهادي هاشم النظر في مخطوطة الكتاب وضبط شواهدها والتعليق عليها والاشراف على طبعها ، فقام ، وله الشكر باسم العلم والأدب والبــاحثين ، بأفضل جهـــد في سبيل اخراجه ، والحق ان الاستاذ هاشم اضاف الكثير من الشروح والحواشي والتفاسير بحيث لاتخلو صحيفة من صفحاته الاوله فيها اثر الضبط لجميع ماورد من شعر ، الى ذلك حواش وتفسير أضفى على الكتاب الكثير من التسهيل على المطـــالع ، وحسبك أن تعلم انه استمان ، فوق اطلاعه الواسع ، بعشرات من المصنفات والتواليف والمعـــاجم .

وبعد فان هذا الكتاب يعد موسوعة عقلية تبحث عن رهين المحبسين اشتمل على تاريخه واخباره مع دراسة « تحليلية » صحيحة لأشعاره وأدبه وتحقيق واف بحيط ؛ كتب ابو العلاء - مما وصل الى ايدي الناس - وفيما نسب اليه ممـــا أخذه عليه المتنطعون والمتطعنون ، وتصحيح لكل ذلك ، هذا الى أنه - واعني الكتاب - يجمع الى ذلك لبذاً تاريخية هامة تبحث عن الدول التي كانت قائمة في عصر المعري والأحداث التي سادت تلك الحقبة من التـــاريخ ، الى أنواع العلوم والفنون ومجالس العلم والأدب ، واسماء الأعلام ومصنفاتهم وقد شغلت ستين صفحة ، والى غير ذلك مما لاسبيل لتفصيله ولا لاختصاره في هذا المقام ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالجيد ، وعندي أن هذا الكتاب لايجوز أن يستغني عن اقتنائه أي كاتب بحاثة وعـــالم فقيه وأديب عريق ومتأدب سالك في الطريق ..

وفي مطالعتي لهذين المجلدين - وثالثهـــا في طريقه للظهور - اتفق لي ان وقفت على بعض الهنيات خلت وما اهتدت سبيلها فتى كها الاستاذ الجندي رحمه الله . ولا أقول انها عميت عليه، فمنها ماوضع بحذائها اشارة استفهام ، ومنهـــا ما اعترف انه لم يجد لها تفسيراً في المعاجم ، كما يأتي بيانه . وقد سيبها الاستاذ هاشم ، قناعة بل اعتماداً على دقة الأستاذ الجندي ، وغير هذه من الهنات التي ذكرتا مما سنأتي على تصويب لبعضه والتفسير للبعض الآخر .

* * *

ورد في الصفحة ٥١ في ترجمة أبي العـــلاء ونسبه وأسرته في المعرة وسبب تسمية المعرة ، ومن كني فيها بأبي العلاء بعد أبي العلاء وانه لم يلقب غيره بهذه الكنية الى المعرة ، على أني

وقفت على علم آخر يحمل هذه الكنية يسبق زمين المحبين بأكثر من مائة سنة ، اما الى اي معرة ينسب فلا اعلم بلداً يحمل اسم المعرة الا معرة النعمان هذه كما أتحقق .

جاء في الجزء ١٢ ص ٧ من الأغاني في ترجمة كلثوم بن عمرو التغلبي المعروف بالعتابي قال صاحب الاغاني ، اخبرني الحسين بن القاسم الكوكبي قال ، حدثنا ابو العيناء قال ، حدثني ابو العلاء المعري قال عتب عبد الله بن هشام بن بسطام التغلبي على كلثوم بن عمرو التغلبي في شيء بلغه عنه فكتب اليه

لقد سمتني الهجران حتى اذقتني
عقوبات زلاتي وسوء مناقبي
فها انا ساع في هواك وصابر
على حد مصقول الغرارين قاضب
ومنصرف عما كرهت وجاعل
رضاك مثالا بين عيني وحاجبي

توفي ابو الفرج الاصبهاني صاحب الأغاني في ذي الحجة سنة ٣٥٦ هـ وتوفي ابو العلاء المعري في ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ .

وهذه الرواية تدل على ان صاحبها من اهل النباهة والمعرفة بدليل صحبته للعتابي الشاعر البليغ والمتكلم الضليع «١»

وفي حاشية الصفحة ٥٣ يقول عن الأحص موضع بحلب عن القاموس ، وهو عذر واضح ، ولكنه تعريف يحتاج لبعض الايضاح ، وذلك لأن الفيروز آبادي ليس في كل ما اورده في القاموس عن الاعلام صحيحاً، وليس هو كذلك ثبتاً في كل ما يرويه ، فالأحص جبل يقع جنوبي حلب ، يمتد نحو ١٥ كيلو متراً او هو هضبة واسعة مترامية الأطراف تشمل ستين قرية او اكثر ، ومدينة قنسرين لاتزال بعض خرائبها واطلالها ظاهرة هناك قرب قرى المطخ ، واسمه مطخ قنسرين ، حرفت بعهدنا الى اسم «المضخ» وكانت هذه المنطقة ذات الهواء الطيب والارض الخصبة من املاك السلطان عبد الحميد ، وقد ورد اسم جبل الأحص في صبح الاعشى للقلقشندي ج ٤ ص ٢٣٤ وفي اول السطر

---

(١) العتابي واسمه كلثوم بن عمرو التغلبي عاصر الرشيد وله في الرشيد مدائح تعد من الشعر الممتاز وهو من رأس عين في الجزيرة جزيرة ابن عمرو وله من قصيدة .

مستنبط عزمات القلب من فكر ... ما بينهن وبين الله معمورُ
فت المدائح الا ان انفسنا ... مستنطقات بما تحوي الضمائرُ

ووفد على المأمون وكان المأمون يجله ويحترمه ، وكان مرة في مجلس المأمون وكان قد أسن فلما اراد القيام ، قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون فما زال ينهضه رويداً رويداً حتى انه نهض

قال يحيى بن خالد البرمكي لولده ، ان قدرتم ان تكتبوا انفاس كلثوم بن عمرو العتابي فضلا عن رسائله وشعره فلن تروا ابداً مثله .

٨ من ص ٦٢ وقعت كلمة يتفق واحسب انها ينبغي ان تكون ينفق لما يقتضيه سياق الحديث الذي هو موضوع شراء كتاب.

وفي س ١٠ و ٢٠ من ص ٧٧ وردت كلمتا صالح بن مدراس خطأ وصوابها صالح بن مرداس.

وفي س ٢٣ من ص ١٠٨ وردت كلمة « وطاقات طغرلبك » خطأ وصحتها « وجاقات طغرلبك » والكلمة تركية اصلها « اوجاق » « Odjak » وتعني مركزا او مقرا او عشا، واختصت بالجند اصطلاحاً وفي س ٥ ص ١٩٤ وردت كلمة شيرز بتقديم الراء المهملة على الزاي المعجمة خطأ والصواب شيزر بتقديم المعجمة على المهملة.

وفي س ٥ ص ١٩٤ عند ذكر انطاكية يقول، وخطر له ان النَّطَك وهو اللفظ الذي يجب ان يشتق منه انطاكية لو كانت عربية مهملة لم يحكه مشهور من الثقات

والحق ان انطاكية ليست من النطك. فان اصل تسميتها انطيوخيا بناها سلوقوس وهو واحد قواد الاسكندر — كان نصيبه بعد هلاك الاسكندر بابل وما يليها — نحو سنة ٣٠٠ ق م وسماها على اسم ابيه انطيوخس وصارت عاصمة مملكته.

وفي س ٩ ص ٢٣٦ وردت كلمة عروبة، وعروبة هو يوم الجمعة في الجاهلية، ولها معان اخرى.

وفي اول الصفحة ٢٣٨ وفي س ٤ اورد هذا البيت:

سالته قبل يوم السير مبعثه
اليك ديوان تيم اللات ماليتا ؟

ووضع علامة الاستفهام على « ماليتا » ولعله رحمه الله ظن ماليتا كلمة واحدة على حين أن « ما » هنا نافية، و « ليتا » فعل ماض من لاته حقه يليته ليتاً وألاته نقصه والاولى أعلى، وفي التنزيل « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يَلِتْكُمْ من اعمالكم شيئاً » اي لاينقصكم، ويقصد انه اعاد اليه ديوان تيم اللات لم ينقصه شيئاً. وقد وردت في ص ١٤٨ من كتاب الفصول والغايات المعري قوله، ولاتت القوم اللات، ويفسرها بذاته بقوله ولاتت القوم نقصتهم حقوقهم وظلمتهم

* * *

وفي س ٣ من ص ٢٥٧ قوله

ان لي غيرة عليك من اسمي
انه دائم يقبل فاك

ويضبط الـ « غيرة » بكسر الغين، والصواب بفتحها وسكون الياء المثناة وفتح الراء، من قولك غار الرجل على أهله والمرأة على بعلها غَيرة ... الخ وفي س ٩ من ص ٣٣٩ وردت كلمة « زعمت عوادي الطير .. » وصحتها غوادي الطير بالغين المعجمة كما في الاصل من سقط الزند ج٢ ص ٣٨ وفي س ٤ من ص ٣٠٧ قوله عجز بيت « حيم الماء فاقدم باسباطٍ » بفتح الدال من « فأقدَم » واحسب ان الصواب هو بكسر الدال المهملة. ولها وجه آخر بضم الدال، وفي س ١٠ من ص ٥٨٢ ورد هذا البيت:

خففي الهمز في النوائب عني
واحمليني على قراءة ورش

ولم يعين من هو ورش ولا قراءة ورش ، واذ احسب بذلك بعض الفائدة والضرورة ، اقول ، ورش هو عثمان بن سعيد المصري ولقبه ورش وهو أحد رواة الأمام نافع أحد ائمة القراآت السبع ، وأما الهمز فقراءتها ان الهمزة اذا سكنت وكانت فاء من الفعل فأن ورشاً يبدلها حرف مد ولين، ولا تبدل الا بهذين الشرطين أحدهما كونها ساكنة والثاني كونها فاء الكلمة، فتبدل بعد الفتحة ألفاً وبعد الكسرة ياء وبعد الضمة واواً ، وتعرف الهمزة التي هي فاء الفعل بثلاثة اشياء، احدها ان يقال كل ما كان وقوعه بعد همزة وصل فهو فاء الفعل ، ... نحو إئت فتقرأ إيت وبالمؤن تقرأ تالون والمؤمنون تقرأ والمومنون ... الخ وباب هذه القراءة واسع جداً .

* * *

وفي س ١٥ من ص ٦٢٠ يذكر زقفونه، اوردها فيما يقول الاستاذ الجندي رحمه الله « وقد رأيت في كلام ابي العلاء بعض كلمات لم اجدها فيما لدي من كتب اللغة، ولا فيما رأيته من الكلام الفصيح »

وهذه اللفظة ليست عربية صرفة ، بل تمت للعربية ببعض الصلة فهي من مخترعات المعري ، وهي فارسية عربية او عربية فارسية ، وقد عالجنا هذه الكلمة بما نشرته هذه المجلة في العدد (٢٤) شباط ١٩٦٤ من مقال لي عن رسالة الغفران ، قلت « وقد عصيت على جميع من عالجوا الغفران بالشروح ولم يفسر لها احد شيئاً، فقد وردت عن لسان ابن القارح عند عبوره الصراط قبل دخول الجنة ، فقال للجارية التي أمرتها الزهراء ان تجيزه

ستّ ان اعياك امري
فاحمليني زقفـــونه

فقالت وما زقفونه، قلت ان يطرح الانسان يديه على كتفي الآخر ويمسك الحامل بيديه ويحمله وبطنه الى ظهره، أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفرطاب

صلحت حالتي الى الخلف حتى
صرت امشي الورى زقفونه؟

فقالت ما سمعت بزقفونه ولا الجحجلول ولا كفرطاب الا الساعة .. الخ » فزقفونه خليط بين الفارسية والعربية ، فان حرف الزاي في الفارسية حرف جر جاء به قبل كلمة قفا ومصدرها « قفو » وجاء بعدها بـ « نه » الفارسية وهي أداة او عامل النسبة في الفارسية ، فكانت « زقفونه »(١) تعني « القفوي » أي الحمل على القفا ، وهي من مخترعات المعري ، كما اخترع اسم الجحجلول ، وقد اخترع قبله بشار بن برد كلمة « الشيفران »

وفي س ٣ من ص ٧٢٢ وردت كلمة «المَصّنة » في هذا النص من امثلة كتاب خطبة

---

(١) وقد ذكر لي قداسة البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك السريان الأرثوذكس ان الكلمة سريانية ، وتعني الصلب والمصلوب أي ان الجارية تحمله كأنه مصلوب .

الفصيح « الشعر اذا جعل مكسباً لم يترك للشاعر حسبا ، وان كان لغير مكسب حسَّن في الصفات والنسب مالم تسبّ المحصنة ، وتُعدّ لمار الريّبة ، واذا رأيت الشاعر فلا تقل « والشعراء يتّبعهم الغاوون » فأن الآية وصلت بالأستثناء ، وتجنى السيئة شر الجنّي ، لا تجهلوا فضيلة الشعر ، فأنه يذكر الناسي ويحل عزمات الفاتك ، ويعطف مودة الكاشح ويشجع الجبان :

وان أشعر بيت انت قائله

بيت يقال اذا انشدته صدقا

وفي الهامش اشار الجندي رحمه الله على كلمة « المصنة » بقوله كذا في الأصل ، وفي اللسان « عصن » أعصن الرجل اذا شدد على غريمه وقيل اعصن الأمر اذا اعوج وعسر .

وفي س ١ من ص ٧٥٤ وردت كلمة الحلم بالحاء المهملة ، وفي الهامش كذلك بالمهملة مفسرة بالصاحب والصديق ، والصحيح هي الخلم بالخاء المعجمة بكسرها وسكون اللام ، جاء في اللسان « الخلم : الصديق الخالص ، وهو خلم نساء ! يتبعهن والجمع أخلام وخلماء ، والمخالمة المصادقة والمغازلة ، قال ابو العباس المبرد حكاية عن البصريين كانوا لا يعدون المتفتنة حتى يكون لها خلمان سوى زوجها » .

وفي س ١٧ من ص ٧٦١ يذكر الدرب ، واحسب انه كان يحسن أن يؤتى له بتفسير ، وهو الدرب الذي عناه امرؤ القيس بقوله :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه

وايقن انا لاحقان بقيصرا

ويقع بين جبال طوروس ، وله ذكر طويل في المعارك ، ويعرف اليوم في تركيا باسم « كولك بوغازي » Keulek اي القالب ذي المروتين ، او فم القالب ذي المروتين .

وفي حاشية ٢ من ص ٨٦٣ عند ذكر ابي الهندي غالب بن عبد القدوس بن شبث وردت بياء مثناة والصحيح بباء موحدة « شبَث » وهو دويبة كثيرة الأرجل عظيمة الراس من احناش الأرض وقيل غير ذلك ، وفي س ٢ من ص ٧١٧ ورد بيت :

تذود علاك شراد المعاني

اليّ فمن زهير أو زياد

واحسب انه قد يحسن التعريف بزهير وزياد فزهير هو ابن ابي سلمى واما زياد فهو النابغة الذبياني .

وفي الصفحة ١١٦١ اورد الجندي رحمه الله قوله في المتن « لا الذكر الى في « لزوم مالا يلزم » وجدت لحناً في الاعراب الا أن يكون خطأً من طابع الديوان ، أما من جهة الاشتقاق والصيغ فقد ذكر « تلاف » بمعنى تلف في مواطن من شعره منها قوله :

تلافيناهم بالقول فيه

فجاءهم التلاقي بالتلاف

وقوله :

وهل المرء الا رَمٌ من شَعَثٍ

وقد لحت تلافي في تلافيكا

وقوله

لوكان جسمك متروكاً بهيئته
بعد التلاف طمعنا في تلافيه

وقوله

تلاف امرك من قبل التلاف به
فغاية الناس في دنياهم التلف

ويقول المرحوم الجندي « وقد رجعت الى « المصباح » و « الأساس » و « النهاية » و « الفائق » و « مفردات الراغب » و « المجمل » و « الصحاح » و « اللسان » و « تاج العروس » وغيرها من كتب اللغة فلم اجد في شيء منها « التلاف » بمعنى التلف وأنا استبعد ان يكررها ابو العلاء في مواطن من شعره من غير ان يثق بصحتها »

هذا ما اورده المرحوم الجندي ويبدو انه اعتمد في مراجعته في المعاجم التي عددها فاته بحث عن « تلف » ولم يتعدها لاعتقاده ان المعري يقصد بالتلاف ، التلف ، والحق اني تأملت طويلا بهذه الأبيات فلم ار ان غرض المعري هو ماذهب اليه المرحوم الجندي الذي لو أنه تحول الى اللفيف — اللفيف هو الكلام المعلول اي ذوات الواو والياء — وقد خصه صاحب لسان العرب بمجلدين — لوجد ضالته وادرك بغيته وبرأ المعري حبيبه في « لفا » قال اللسان ... والفى الشيء : وجده ، وتلافاه : افتقده وتداركه ، والتَّلفى الشيء المطروح كأنه من الفيت وتلافيت ... يقال الفيت الشيء ألفيه إلفاء : اذا وجدته وصادفته ولقيته ... الخ وانشد :

يخبّرني اني به ذو قرابة
وانبأته اني به متلافي

ونعود لتفسير الابيات اعتمادا على ذلك . وهو جهد المستطاع :

تلافيناهم بالقول فيه
فجاءهم التلافي بالتلاف

لعله يقصد ، تفقدناهم فجاء « التلافي » اي تفقدنا أياهم ، بالتلاف اي بطرحه اوطرح قولنا من التلفى ، وهو الشيء المطروح :

وقد لحت تلافي في تلافيكا

يعني اني حين افتقدك وأتداركك كنت انت تلافي امرك وتتداركه والأصل « تلافيَّ » مشددة كما يبدو لي فخففت ضرورة ، ويجوز القول كذلك ان تلافي تلافى في تلافيكا اي بطرح تلافيَّ اياك ، واهماله :

لو كان جسمك متروكاً بهيئته
بعد التلاف طمعنا في تلافيه

واحسب أنه يعني من قوله « بعد التلاف » أي ان جسمه بعد ان يكون لقىً ، اي مطروحاً ، لو كان يظل على هيئته ، لطمع في تلافيه اي في تفقده وتداركه، ولكنه اي الجسم وهو متروك مطروح تنقصه الروح قبل كل شيء ، ثم انه ينحل ويصبح رميماً ، الى غير ذلك مما يجوز معه التفسير .

وقد أورد المعري غير هذه الأبيات التي

اوردها الاستاذ الجندي واعرب عن شكه بما قال في اللزوميات :

ومن اطال خلاصاً في مودته
فهجره لك خير من تلافيه

وقال :

وتلاف أمرك من قبل التلاف به
فغاية الناس في دنياهم التلف

وبعد ان دفع الموضوع الى المطبعة عثرت في مطالعتي على هذه النبذة التي قد تكون لها علاقة بتفنن أبي العلاء المعري بأنواع العلوم العربية، ولا سيما الشعر واوزانه ، مما افرد له المرحوم الجندي بياناً واسعاً فأحببت ان اضيفها الى ماتقدم من القول ، فهي اطروفة نادرة ما احسب انها تخلو من بعض الفائدة .

في تاريخ ابن خلكان – قال حدثني من اثق به ان شخصاً قال له رأيت في تأليف أبي العلاء المعري ماصورته :

« اصلحك الله وأبقاك لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم الى منزلنا الخالي لكي يحدث لي أنسك يازين الأخلاء فما مثلك من غيّر عهداً او غفل » وسأله من أي الأبحر هو ؟ وهل هو بيت واحد أم أكثر ؟ فان كان اكثر فهل أبياته على روي واحد أو مختلفة الروي ، قال ، فأفكر فيه ثم أجابه بجواب حسن ، قال ابن خلكان فقلت للقائل ، اصبر حتى انظر فيه ولا تقل ماقاله .

فأجاب القاضي شمس الدين بن خلكان بعد حسن النظر بما أجاب به عنه الرجل وهذه الكلمات تخرج من بحر الرجز وتشتمل على أربعة ابيات في روي اللام ، وهي على صورة يصوغ استعمالها عند العروضيين ومن لايكون له بهذا الفن معرفة ينكرها لأجل قطع الوصول منها ، ولا بد من الاتيان بهذا لتظهر صورة ذلك وهي :

أصلحك الله وأبـــ
قاك لقـــد كان من الـ
واجب أن تاتينـــا الـ
يوم في منزلنـــا الـ
خالي لكي يحـــدث لي
انســك يازين الاخلْ
لاءِ فمـــا مثلك مـن
غيّر عهـــدا أو غفلْ

من ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ، هامش المستطرف ج ١ ص ٩٩ – ١٠٠

ولعلي بهذا ادركت بعض الغاية والله من وراء القصد .

تأليف روم لاندو ـ تعريب منير بعلبكي

عرض وتحليل علي الحسيني — الحلة

لسنا نجد في تاريخ الاستشراق الغربي (الاوربي) باحثاً أكثر انصافاً وتقديراً للدور الذي لعبه العرب والمسلمون في تاريخ الحضارة العالمية من المستشرق الانكليزي المعروف روم لاندو Rom Landau الذي كتب سلسلة من الابحاث التاريخية كان من أهمها كتابه «الاسلام والعرب» Islam and Arabs(١) الذي ترجمه مؤخراً الاستاذ منير البعلبكي ونشرته «دار العلم للملايين» في طبعة أنيقة متقنة .

وأهمية هذا الكتاب لاتعود الى عظيم تقدير المؤلف واهتمامه الفائق بالدور اللامع الذي قام بأدائه الأفذاذ العرب في مختلف حقول المعرفة الانسانية وحسب ، وانما تتعدى ذلك الى دراسة التسلسل التاريخي الزمني للدول العربية والاسلامية مع دراسة الجوانب الحضارية في حياة العرب والمسلمين . فبعد ان يتتبع المؤلف تاريخ العرب السياسي ابتداءاً من النظام القبلي الذي كان سائداً في الجاهلية حتى نهاية الدولة العثمانية ونهوض العرب المعاصر (وهو في خلال ذلك يفرد فصولاً خاصة لدراسة تاريخ المغرب العربي ، والحروب الصليبية ، وتاريخ اسبانيا الاسلامية) يبتدىء بدراسة مركزة وموجزة للانجازات الرائعة في كل من حقول الشريعة والفلسفة والعلوم والآداب والفنون ، كما يهتم بأثر هذه الانجازات في نشوء النهضة الاوربية (الرينيسانس) ، وهو يقر في هذه الأبحاث ان الانجازات العربية هذه هي صاحبة الفضل الاول والاهم في نهوض اوربا ، بينما يرد بعض المستشرقين سبب النهضة الى بعث التراث الاغريقي .

وبمناسبة ذكر التراث الاغريقي فان المؤلف يتذاكر مدى اثره في الحضارة العربية ـ الاسلامية ، ولكنه لايميل الى تضخيم هذا الاثر والمبالغة فيه ، أي انه لايميل الى تجريد العرب من انجازاتهم الحضارية الرائعة على أساس من انها انعكاس للانجازات الاغريقية . فاذا قارنا في هذا المجال بين « روم لاندو » وبين المستشرق «دي لاسي اوليري» نجد الفرق شاسعاً . ذلك لأن اوليري يحاول في كتابيه « كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب ؟ » و « الفكر العربي ومكانه في التاريخ » رد معظم الانجازات العربية ـ

(١) من اهم الابحاث الاخرى التي كتبها « لاندو » كتاب « الرياما المراكشية » وكتاب « فن الزخرفة العربي » ومقالة عن ابن عربي .

الاسلامية الى مؤثرات يونانية . ليس هذا فحسب بل انه لايميل الى تسمية النشاط الحضاري في القرون الوسطى في العالم العربي بـ « الحضارة العربية» بل الى تسميتها باسم «الحضارة المكتوبة باللغة العربية » مستنداً في ذلك الى ان عدداً من رجال هذه الحضارة وأفذاذها لاينتمون بصلة الى القبائل العربية ، وهذه دعوى باطلة تشير الى روح لاموضوعية عند « اوليري » .

وعندما يتحدث المؤلف عن انتقال علوم اليونان الى العرب (في الفصل المكرس لدراسة الفلسفة الاسلامية — العربية) يرى ان هذه العلوم انتقلت عن طريق القسطنطينية وفارس وعن طريق الترجمات المباشرة ، ويذكر كذلك الدور الذي قام به النساطرة في نقل التراث اليوناني الى اللغة السوريانية ثم الى اللغة العربية بعد ذلك . والمؤلف لايذكر الدور الذي لعبه اصحاب الطبيعة الواحدة (وهي احدى الفرق المسيحية) في نقل التراث اليوناني الى العرب ، وكذلك لايشير الى تأثير البوذية حيث كانت وسيطاً في عملية الانتقال مارة الذكر .

ويسبغ « لاندو » تقديراً فائقاً على العلماء والمفكرين العرب ، وهذا ماينتظره القارىء من باحث موضوعي ، اذ طالما رأينا المستشرقين الاوروبيين يتجاهلون الدور الهام الذي لعبه مفكرو وفلاسفة العرب والمسلمين في نهوض اوربا الحديث ، وطالما رأيناهم منتقصين من انجازاتهم العلمية اللامعة ، مختلقين مبررات لاتستند على أساس من الحقيقة التاريخية لرد كل هذه الانجازات الى جذور أغريقية او بوذية او فارسية .

ومما يلفت النظر ويثير الاستغراب في كتاب « لاندو » هـذا ، ان المؤلف يتحدث عن المذاهب الاسلامية ويقصرها على المذاهب السنية الاربعة المعروفة ، متجاهلاً في ذلك المذهب الجعفري ، وليست المسألة — بالنسبة لي — مسألة تعصب أو تمذهب ، ولكن الأمانة التاريخية والحقائق الموضوعية تفترض أن لايتجاهل باحث قدير من مثل «روم لاندو» مذهباً هاماً من مذاهب الاسلام . واذا قلت ان الأمر يثير الاستغراب فلأني افترض — ومن حقي أن افترض — ان « لاندو » يعتبر الشيعة الامامية فرقة مناوئة للمبادىء الاسلامية ، وفي الكتاب اشارات تنازبالصراحة حيناً وبالغموض حيناً آخر تؤكد هـذا الافتراض وتدعمه ، ويلفت النظر كذلك ان الاستاذ المترجم لم يشر الى تجاهل « لاندو » مار الذكر ، كما انه لم يتكرم بوضع هامش متواضع يشير الى الدور الكبير الذي لعبه فقهاء الشيعة الامامية في تاريخ الفقه الاسلامي ، مع ان بامكانه أن يعود في بيان ذلك الى الاستاذ محمد جواد مغنية ، أو على الأقل احالة القارىء الى كتاب « تاريخ الفقه الجعفري » للأستاذ هاشم معروف الحسني ، واني لأرجو — مخلصاً — أن لاتكون الطبعة القادمة من هذا الكتاب القيم خلواً من كل ذلك .

ويجب أن نعترف هنا ان المؤلف لم يستطع ايفاء الأدب العربي حقه من الدرس في الفصل

←

للشاعر القروي

عرض وتحليل جعفر الخليلي

بغداد —

قبل مايقرب الخمسين سنة كان رشيد سليم الخوري في عنفوان شبابه ، وفي دور يعنى الشاب فيه بنفسه ، وأناقته ، واهوائه ، اكثر من أي شيء آخر ، فاذا ماخرج شاب على هذه القواعد الطبيعية شذ في طريقه عن الطرق العامة ، والشاذ اما ان يكون فوق المستوى أو دون المستوى .

وشذ رشيد سليم الخوري فوق المستوى شذوذا تنكب فيه الطريق المألوف عند الشباب فكان في عداد القلة الذين نسوا طبيعة دورهم كشبان ونسوا حيوية شبابهم فيما يخص أنفسهم ، وعلق منذ ذلك اليوم بهوى العرب والعروبة ، والحرية والاستقلال .

وكانت البلدان العربية ترزح يوم ذاك تحت نير الاستعمار ، وترسف في قيود الذل ، وان الكفاح ، والجهاد ، والعمل للخلاص من تلك المحنة كان في اول ادواره ، وكان مقتصراً على عدد قليل من اولي الادراك والمشاعر والمفاهيم الوطنية ، وكان رشيد سليم الخوري شاعرا ، كان شاعراً يحس بمحنة العرب ويفهمها ويتحمس لها ويشتد به الحماس حتى ليتفجر صدره حمماً وينحسر شعره عن اعاصير يدفع بها الايمان الصادق وهو بعد لم يكمل العشرين :

ليت فيهم منصفاً يخبرهم
انني شاعرهم رغم الجحود
قبل أن أجتاز عقدا ثانيا
زنت جيد الدهر بالعقد الفريد

→

المكرس لدراسة هذا الموضوع ، ولا يعود السبب في ذلك الى عدم قدرة المؤلف على تحقيق مثل هذا الهدف ، بل يعود الى سعة تاريخ الأدب العربي نفسه ، بحيث يكون من المتعذر على أي باحث ان يتكلم عن هذا الادب ويفيه حقه من البحث في صفحات قلائل لاتكفي حتى لدراسة شخصية فذة من شخصياته .

وعلى أي حال ، فان هذه الملاحظات لايمكنها أن تنقص من قيمة الكتاب ، فهو – كما يقول الاستاذ بعلبكي – « من أنفس المختصرات التي وقعنا عليها في تاريخ العرب والحضارة الاسلامية وأدناها الى الانصاف » ولا ريب ان الاستاذ بعلبكي قد وفق غاية التوفيق في ترجمة هذا الكتاب .

والحق ان رشيد سليم الخوري قد زان جيد الادب بشاعريته الفياضة ، كما قال ، وطلع اول ماطلع هلالا في سماء الادب ودنيا الوطنية ، ثم لم يلبث أن صار بدراً ، البدر الذي لايعتريه خسوف ، ولا يلحق به محاق ، ومن أين يأتيه الخسوف ويغشاه المحاق وقد اسلس الشعر له قياده ، وامتلك من روائع الفن زمامها واستمد من الوطنية الصادقة ايماءه ؟ وهو اذا تواضع وقنع باسم الشاعر القروي فلن يغير ذلك حقيقته كأكبر شاعر للعرب والعروبة ، فلقد بكى الحمية الضائعة ، وبكى العروبة الاصيلة ، وبكى الحرية المفقودة ، حتى افنى شبابه وكل حيويته استنهاضاً للعرب ، وهياجاً لغيرتهم وحميتهم .

ثم نفخ من روحه الوثابة في النفوس الضعيفة المستكينة ، ورثى الخلق السمح الكريم حين خاطب الاثرياء الخاملين قائلا :

ولكن غناكم ماحل ما أفادكم

سوى أنه أغوى الغريب فسادكم

أقول لعل القول هز فؤادكم

رأيت يهودا يشترون بلادكم

فيا ليت كنتم في السخاء يهودا

وطالما قرع آذان اللاهين بالمآتم والاسماء عن نداء الوطن ، والعميان عن رؤية الحرية وهي تداس في وسط بلادهم ، فأسمعهم أفانين ألوان التقريع والتوبيخ في قوافي تحرك الصخر الاصم ، وتهز الطود الشامخ اذ يقول :

سل الساجبين ذيول النعم

عما سلخوا من جلود الغنم

ألم تبق فيكم بقية دم

ألا تشعرون بجمر الندم

ألا تبصرون شقاء الوطن

* * *

ويا ناعمين ببذل القيود

ويا سادة في هوان العبيد

أمن أجل تقبيل رجل العميد

وبوي الذقون لفرط السجود

غدرتم بشعب وبعتم وطن

* * *

ومن ابدع واروع ماصاغ من القوافي لاحتقار الخانع الذليل الذي يتلقى اهانة الغاشم المستعمر بالمسكنة والانكسار ماقاله الشاعر في صحافي لبناني عرف بمجاراة السلطات المحتلة حين صفعه احد الموظفين الفرنسيين ايام الاحتلال الفرنسي للبنان فابتلع الصحافي هذه الاهانة كأن لم يحدث هنالك شيء ولم تمس كرامة الانسان بشيء ، يقول الشاعر :

جار العزيز على الذليل بصفعة

تركت بصحن الخد طابع خمسه

ومضى العزيز يحك راحة كفه

ومضى الذليل يحك جلدة رأسه

ويبلغ الحماس الوطني عند الشاعر القروي

– أستغفر الله بل عند شاعر العروبة – حدا يجعلك تؤمن بان الموت بجميع ضروبه اهون على النفس الابية الكريمة من العار الذي يلحقه به ذل الاستعمار وان فردا واحدا وهو يعطي الحرية حقها من القدسية لخير الف مرة من الف امـــة لاتقي وزناً لنفسها وحياتها ووطنها فيقول :

فموتوا، ألاموتوا، فما الموت سبة
وان الردى في العار لا العار في الردى
وخير لهذا الكون من الف امة
ارقاء حر يملأ الكون مفردا

ويثور حين يستنهض لبنان في وجه الفرنسيين دون ان يسمع جوابا وما اكثر قصائده في لبنان يوم كانت فرنسا تضيق الخناق على هذا البلد الامين وهو ساكت بلا حراك فيقول والالم يحز في نفسه :

لبنان يالبنان بل ماضرني
لوقلت يابلدا بلا سكان

وحين دخل الحلفاء سورية في الحرب العالمية الاولى عز عليه ان يرى بعض السوريين يلقون باسلحتهم ويتخذون للجيش الفرنسي فقال :

عجبا لسوري يحقر نفسه
والخلق يسجد للتراب السوري

هذه الغيرة على العرب والعروبة ، وهذا الحماس الذي يزجيه الايمان في شعر هـــذا الشاعر لم يقتصر على قطر دون قطر من الاقطار العربية فقد اخذت منه فلسطين واخذ العراق واخذت سورية نصيبا كبيرا في كثير من المناسبات الشعرية .

ولقد احسن في محاسبة الانكليز ووعود بلفور حين قال :

بالشـــاما بعهدهم
لم يقـم عذر واثق
كلكم جد آفك
كذبونا بصادق
وعد بلفور حجة
للمماري المماذق
او تنفي وثيقـــة
عشرات الوثائق
اين منكم وفاؤنا
يوم عقـد المواثق
رب وعد بامـــة
ووعـــود بدانق

ويقول عن اسرائيل :

كلب يهددنا بناب ترومن
آنا وآونة بظفر تشرشل

وهكذا اخذ الدروز واخذت ثورتهم الشيء الكثير من شاعرية هذا الشاعر الفحل ، وقد كتب كثيرون عن ثورة الدروز وما اراقوا من دماء زكيـــة في ميدان الحرية والاستقلال ولكن ذلك لايعادل بيتا واحدا من ابيات رشيد سليم الخوري فيهم لان شعر

الخوري منبعث من اعماق احاسيسه الصادقة ولانه صورة معبرة عن الواقع الذي لم يدرك وقعه غير المكتوي بناره ، واي شاعر اكثر اكتواء بنار الوطنية وواقعها من هذا الشاعر الذي ظل يحمل علم العروبة الخفاق خمس سنة فوق قمة الفن ، واذا كان الواجب يفرض على العرب ان يحفظوا ديوانه في صدورهم فان على الدروز ان يحفظوه ويلحنوه ويتغنوا به ويعلموا اولادهم آياته ، فما احد واهم حقهم كما وفاهم هذا الشاعر الكريم الذي يقول عن سلطان الاطرش وهو يزحف على البيداء لانقاذ الاسير الذي قبضت عليه السلطة الافرنسية في بيت سلطان الاطرش :

خففت لنجدة العاني سريعا
غضوبا لو رآك الليث ريعا
وحولك من بني معروف جمع
بهم — وبدونهم — تغني الجموعا

الى أن يقول فيه وفي سيفه :

كأن به الى الافرنك جوع
وسيفك مثل ضيفك لن يجوعا

ثم يقول مقدسا القوة — وهو تقديس طالما يلمسه القارىء في الكثير من قصائده — ماضيا في قصيدة الاطرش :

اذا حاولت رفع الضيم فاضرب
بسيف محمـــد واهجر يسوعا
(احبوا بعضكم بعضا) وعظنا
بهـــا ذئباً فمـــا نجّت قطيعا

وفي مناسبة اخرى يذكر لسلطان الاطرش مواقفه الوطنية المشرفة فيقول فيه :

فلا كفيت به سؤال الناس من
تعني ؟ وهل اعني سوى سلطان ؟

وفي منفى سلطان الاطرش في الصحراء قال من قصيدة عامرة يخاطب بها الاطرش :

كل ما في آثارنا من خـلود
هو تأريخ ساعة من جهادك
كل امجـــادنا بناتك يامن
قد اضفت المنفى الى امجـادك

ويتجلى — الى جانب هذه الوطنية الحارة التي خلدها الفن في ابدع صفحاته وحكاها الشعر في اروع قصيـــدة — خلق الشاعر الرفيع العالي في ثنايا هذه القصائد فتعرف مما تقرأ اي شخص تواجه ، واي وجه تقابل ويكفيك من ذلك الكثير الدال على كرم النفس ورقة القلب قوله عن المشكويين وهو يحضر احدى حفلات تكريمه السخية بالمآكل والمشارب :

والله ماظفرت يداي بلقمـــة
الا عراني خاطر رجـــاف
وتمثلت لي في المضارب صبية
خمص البطون كأنهم اطياف
لهم الصحارى والمجاعة والصدى
ولنا الندى والخمر والارياف

أما شاعرية الخوري ومواهبه الادبية وعظمته في صياغة الفكرة فهي على رغم وضوحها في هذا

←

في افريقيا الغربية

تاليف نعيم قداح
عرض وتحليل محي الدين صبحي

اصبحت افريقيا في السنوات العشر الاخيرة مسرحاً لصراع القوى العالمية جميعها ، الاساسي منها والثانوي . وتعاظمت اهمية التوغل فيها حتى اصبحت الدول النامية تعلق الآمال وتتسابق على انشاء الصلات مع الدول الافريقية الحديثة واكتساب ودها .

والعرب في افريقيا جذور عرقية واصول حضارية وصلات انسانية ترجع — او تكاد — الى عهود ماقبل التاريخ ، وقد كان شمال افريقيا مرتبطاً في اغلب الاحيان بنوع من الوحدة السياسية او الحضارية مع شواطيء مصر وسورية والعراق فلما جاء الاسلام والهجرة العربية طبعت تلك المناطق بطابعها النهائي وامتد اشعاع العرق العربي والحضارة الاسلامية من شمال افريقيا الى غربها . وظل المسلمون والعرب حاملي اشعاع هذه الحضارة طيلة فترة القرون الوسطى . وظل

→

الديوان فانها أوضح في ديوانه العام وفي (قروياته) ، ولديوانه العام وقروياته حديث طويل يحتاج الى درس وبحث عميقين .

وبعد فهذه لمحة خاطفة اختطفتها من ديوان الاعاصير ، والاعاصير كما يقول الخوري عنها : مجموعة من العواطف الزاخرة بالحماسة والغضب والألم وقد سماها بالاعاصير لما كان يعصف بين جوانحه عند نظمها من التنهدات والدموع بسبب ماعانت البلدان العربية من شقاء وظلم واستبداد.

ولقد احسن الشاعر كثيراً في تقريعه لأولئك الذين قد تأخذهم الشفقة والحنان على الغرباء وهم في اقصى الدنيا ولا يحرك ساكنهم مايقع تحت انظارهم من مناظر البؤس الذي يعانيه اخوانهم فيقول في مقدمة ديوانه :

«. . . ان الذي يغضب لحق هضم في الصين أولى به أن يناضل لدفع حيف نزل ببلاده ، والذي ينفر الى نصرة مظلوم في آخر الدنيا لحري به أن يذود عن ضعيف يصرعه البغي بين شماله ويمينه . . . »

الاسلام نبراس الضمائر الافريقية حتى خيم الظلام الاستعماري عليها مع مجيء الرجل الابيض الاوروبي الذي بذل جهده في محاربة الاسلام ، لاحباً بالمسيحية ، وانما خوفاً من روح الاخوة والتعاضد والمساواة التي يبشر بها الدين الحنيف .

وكتاب « حضارة الاسلام وحضارة اوروبا في افريقيا الغربية » يضم قصة هذا الصراع بسعة تتجاوز التفصيلات لتضم الخطوط الرئيسية لمظاهر الحياة الافريقية في الدين والحضارة والسياسة والاقتصاد ، والتغييرات التي طرأت عليهـــا في السودان والنيجر والتشاد والكاميرون والخليج الغيني . فقد كان لهذه المناطق،منذ فجر التاريخ ، ديانات وثنية تقوم على الرمز (التوتم) وعبادة الاجداد وقوى الطبيعة اما الدول فقد تركزت في تشاد التي استغلت المعادن وبرعت في صناعة الفخار ، وفي الكاميرون حيث ابتكر السكان حضـــارة متقدمة في تعدين الحديد والنظم الاقتصادية ، وقد قضى الاستعمار البرتغالي وتجارة الرقيق على تلك الحضارة منذ القرن السابع عشر . وهناك حضارة اليوروبا في جنوب النيجر ، وقد امتازت بسعة مدنها وكثافة سكانها ، وكانت الحصون الدفاعية تقام قرب المدن لتحمي حدودها . وكانت أسواق المدن تتميز بالتناسق والضخامة . وكان الفن في هذه المنطقة عنواناً للفن الافريقي وعلماً عليه ، وبخاصة في صنع اللوحات البرونزية والعاج . وقد كشفت حفريات ١٩٠٧ و ١٩٣٩ عن روائع من مصنوعات النحاس والطين المحروق ، بحيث ذهب بعض العلماء في دهشتهم حيالها الى نسبتها الى قارة أتلانتس المفقودة بالرغم من طابعها الافريقي الاصيل الذي اكتمل بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وأما في الداهومي ـ غربي النيجر ـ فقـد أشارت المكتشفات الى وجود قصور مزينة بالنقوش والرسوم التي تكرس الانتصارات الملكية والضحايا البشرية والسلطة المطلقة ، وفي غانا وساحل العاج قامت حضارة الأشانتي التي لعب الدين دوراً هاماً في توجيهها . وقد دخل الاسلام غانة في القرن العاشر الميلادي فصارت المدن قسمين المسلمين والوثنيين .

وتكتمل صورة الحضارة الأفريقية في ذهن القارىء بالفصل الذي عقده للمؤلف عن فن النحت الأفريقي الذي أدهش الأوروبيين بقدرته على التعبير عن العواطف وفي كونه يدفع الفنان الى الاستمتاع بالمادة الخام بحد ذاتها . والفن الأفريقي يجنح الى التجريـــد الذي لايهتم بالتفاصيل ، ولكن بالمعنى الحقيقي البعد المخفي وراء الأثر الفني ، وهو في هذه النقطة يلتقي مع بيكاسو وموليائي وبسام معهما في خلخلة القواعد القديمة للفن العالمي ، بالرغم من أن الفن الافريقي ليس أكثر من ثقافة تتلاشى بالتدريج لصالح احدى الحضارتين : الاسلامية أو الاوروبية .

والحضارة الاسلامية تمثل في غرب أفريقية أول فتح حضاري مثمر تعرضت له المنطقة في القرن العاشر الميلادي على أيدي المرابطين الذين كانوا دعاة ومحاربين في وقت واحد . وقد انطلقوا في نشر الدعوة الاسلامية من موريتانيا الى السنغال فغـــانة والنيجر ، حيث تأسست أكبر عاصمتين اسلاميتين في افريقية ، بنشوء تومبكتو قرب نهر النيجر في القرن الثاني عشر ، ومدينـــة جنة في الثالث عشر . وتم انتشار الاسلام بظهور مملكة

مالي القوية في السيراليون وساحل العاج وساحل الذهب. وفي نيجيريا وتشاد والفولتا وجالوت ظهرت مملكة اسلامية قومية استمرت الى القرن التاسع عشر حين قضت بريطانيا على استقلالها وألحقتها بالتاج.

ويذكر المؤلف دور الفرق الدينية القادرية والتيجانية والمهدية والسنوسية في نشر الاسلام ومقاومة الاستعمار.

وفي رأيي أن أهمية الكتاب وقيمته القومية تأتيان من هذا الفصل الذي يبين دور الدعوة الاسلامية في تقدم البلاد الحضاري والاجتماعي والثقافي في ممالك كل من غانا (القرن ٤ ـ ١٣) ومالي (القرن ١٣ ـ ١٦) والسونراي (القرن ١١ ـ ١٦).

فقد حمل التجار والفقهاء والدعاة العرب والبربر الاسلام من شمال افريقية ومصر الى هذه المناطق الوثنية المتأخرة. وحملوا مع الاسلام حضارته وتشريعاته ونظمه التي أعطت المسلمين الجدد رسالة ومعنى لحياتهم فانطلقوا يجاهدون الوثنية ثم الاستعمار. وقد قرب الدين الاسلامي الى نفوس الوثنيين شعار الاخوة بين جميع المسلمين قولاً وفعلاً. على حين ظل المبشر المسيحي ينادي بالاخوة ولا يستطيع اقناع قومه البيض بتحقيقها. كما أن طابع الاسلام الواقعي يجعل الحقائق تأخذ شكلا ملموساً في حياة الافريقي الذي لم يتعود أن يغوص في مشكلات اللاهوت. يضاف الى ذلك أن دعاة الاسلام نشروا رسالتهم عن طريق الرفق والتجارة دون بنادق أو خراب. ثم ان التشابه في الروح الجماعية بين الاسلام والحياة القبلية الوثنية سهل على الافريقي أن ينتمي الى الفرق الدينية ويصلي جماعة في المساجد، هاجراً الحميات الوثنية والتضحيات البشرية. وكانت حصيلة القرون العشرة في نشر الدعوة الاسلامية أن بلغ عدد المسلمين ٢٥ مليونا من اصل ٦٦ مليونا يقطنون افريقيا الغربية، وتوزعت الاديان للسكان بالنسب التالية:

٤٥٪ وثنيون
٣٥٪ مسلمون
٢٠٪ مسيحيون

ان المسلم الافريقي حيثما وجد بنى مسجداً، والمسجد يتحول الى مدرسة.. بالرغم من أن فن البناء الافريقي لم يترك مساجد فخمة. ولا بد من القول ان السنغال المسلمين قد صرفوا كثيرا من الجهود للاحتفالات الدينية.

ان الاسلام بتوحيده للقبائل الافريقية أسس قوة ازعجت المستعمرين لذلك جعلت دولة كفرنسا نفسها قواعد واصولا وتراثاً موروثاً في محاربة الدعوة وتشجيع الخلافات بين الفرق. ويذكر المؤلف من مظاهر مقاومة الاسلام حرمان المساجد من المياه، ووضع العراقيل امام الحجاج، واغلاق المدارس التي تدرس القرآن بالعربية، وحرمان المسلمين من وظائف الدولة أو متابعة التعليم في القاهرة او المغرب. ومن اعجب صور المقاومة أن بريفيه حاكم السودان اقترح مواجهة الاسلام باحياء الاديان الوثنية وتنظيمها !! ويرى بريفيه أن الاسلام يهدم النظام القبلي، لذلك بدأ يشيع بين الوثنيين ان الاسلام يهدم التساند الاجتماعي الافريقي !!

أما بريطانيا فقد هادنت الاسلام نسبياً وان

كانت قد سممت لبشريا في نيجريا بتغذية عقول الناشئة الوثنيين والمسلمين والمسيحيين على السواء، بأفكار سيئة خاطئة عن الدين الحنيف والرسول الكريم .

وقد استطاع الاسلام ، كحضارة راقية ، أن يثبت وجود المدنية الافريقية وأن يطورها . وكان أحد العوامل الرئيسية في ازدهار اقتصاديات غرب افريقية ابان العصور الوسطى وبعدها . وكان تقدم المسلمين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي رداً بليغاً على افتراءات الاستعمار حين زعم أن افريقيا بلد متوحش همجي . فقد كان التاجر المسلم أول من أخرج الافريقي من عزلته يضاف الى ذلك نظافته وعلمه وتسامحه ، مع ماتنتج عن ذلك من نشوء الممالك وبناء المدن وتنشيط التجارة والاعتناء بالزراعة على أيدي تلاميذ المرابطين . وفي الصناعة شجع الاسلام ارتداء الملابس فنشطت صناعة النسيج . كما أن حماية الاسلام اقتضت تطوير صناعة المعادن في الأسلحة والزراعة ، وتطوير فنون البناء الافريقية ، بالاضافة الى فنون الادارة والصلات الدولية ونظام سك النقود وايقاف التناحر القبلي ومحو الأمية ونشر الخط العربي في أمم ليس لديها حروف أبجدية . ولعل أفضال الاسلام لاتنكر في تخفيف الرقيق بل وتحريره ، فالافريقي المستعبد لدى المسلم يعيش حياة أفضل من حياة الافريقي المستعبد لدى الأوروبي . ولعل من انجازات الاسلام العظيمة في هذا المجال تحرير المرأة والحث على احترامها وحصانتها مما رفع سوية الأخلاق العامة لدى الأفريقيين .

وفي فصل التبشير والمسيحية في غرب افريقية يبين المؤلف ترامل التبشير والاستعمار مما شوه جوهر العقيدة المسيحية في نظر الافريقي ، يضاف الى ذلك ان الاخوة التي نادى بها الدين المسيحي قد تحولت الى تبرير لجلب الرقيق طيلة ثلاثمائة عام . وكان صيد الرقيق في الكنغو وأنغولا وغينيا عملية تشرف عليها حكومة البرتغال وفرنسا مما فرض على الأهلين أن يعيشوا في توتر نفسي رهيب فأهملوا الزراعة والصناعة وتشردوا لاهثين أمام مصيرهم بين العبودية والموت والهرب .

وحين ألغي الرق بدأ الاستغلال الاقتصادي وسياسة التجهيل التي جعلت افريقيا تتوقف أربعمائة سنة عن التطور الذي حمله الاسلام اليها . ان سياسة تحديد التعليم وابعاد المتعلمين عن وظائف الدولة أهم ملامح السياسة الثقافية الاستعمارية ، فضلا عن تفتيت المجتمع الافريقي بفرض اللغة الاجنبية على المثقفين ، والبغاء والادمان على سواد الشعب .

ان هذا الكتاب بالغ الأهمية من حيث انه :

١ ـ يتعرض لمنجزات الحضارة الاسلامية في افريقيا بعد أن تعمد اهمالها الباحثون الغربيون .

٢ ـ يفضح الأوجه السلبية للحضارة الاوربية والامبريالية الغربية .

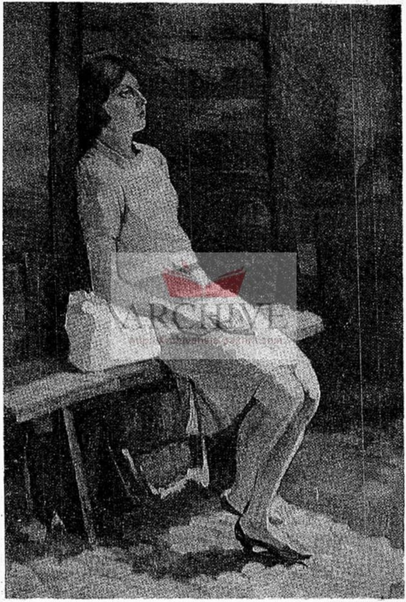
٣ ـ يذكر العرب بالروابط الحضارية بينهم وبين افريقيا . في الوقت الذي يتعرض الوجود العربي في افريقيا لخطر اسرائيل وتسللها الثقافي والاقتصادي .

٤ ـ انه من المؤلفات القليلة التي كتبت بروح قومية ومنهج علمي ، نتمنى للمؤلف بعده ان يستمر في أبحاثه ، خاصة وأنه قد أقام في تلك الربوع وكتب عنها بعد اطلاع مباشر على الحياة الافريقية أولا ثم على المصادر التي تتحدث عنها .

ميلاد الشايب مواليد دمشق

اتم الدراسة الثانوية في تجهيز الارثوذكسية في دمشق . ورعا هوايته الأولى في الرسم الفنان المرحوم توفيق طارق وشجعه . ثم احترف الرسم البيزنطي وسافر الى اليونان حيث تخصص في هذا الفن ، ثم سافر الى موسكو حيث قضى ست سنوات في معهد (سوريكوف) وحصل على شهادة (ماجستير فنون) في الرسم الزيتي ، ومدرسته الواقعية .

يعد الآن معرضاً للوحاته التي رسمها في موسكو بين عام ١٩٥٨ – ١٩٦٤ مع لوحات جديدة واللوحة المنشورة هنا تمثل مدرسته . وهي بعنوان : (الملل من الانتظار) .



ميلاد الشايب — الملل من الانتظار — مجلة المعرفة

الحب والحرية

شعر محمد جميل شلش

عرض وتحليل : ماجد صالح السامرائي ـــ بغداد

منذ أن وجد العبودية مفهوم في الارض ، متمثلا في سوط ، وقيد ، وتحديد لارادة الانسان ... كان الحرية صوت ، وشعلة تحملها يد الاجيال المتطلعة ، دائما وأبدا ، نحو المستقبل الافضل ، والحياة الحرة الكريمة .

ومنذ أن وجد الانسان ، كان مع الطبيعة في صراع دائم ...

وتبدلت مفاهيم هـذا الصراع ، وتطورت معطياته عبر العصور .. حتى كان العصر الحديث ابتداءاً بميلاد انفجارات جديدة من شأنها ان تبدل مفهوم الانسان للحياة بكل ما تشمله. فكان صراعه مع العبودية هو ما بدأه منذ حقب بعيدة من التاريخ الانساني ، حتى امتد ذلك الى عصرنا الحاضر .. الى انساننا المعاصر ، الذي راح يتطلع الى الحياة من افق الحرية والكرامة ، والحياة الافضل ...

ومن هنا بدأ الصراع يشتد .. بين انسان يريد أن يحيا كما يرغب ، وبين قوى غاشمة مستبدة تحاول تطويقه بأصفادها ، واعـاقة مسيرته التقدمية .. بين انسان يريد أن يزرع درب الانسانية بالورود ، ويوزع النور في طريق الاجيال الصاعدة .. وبين طغم لايهمها من مصير البشرية شيء .. تبذر الشوك ، وتزرع الحجارة في الطريق ..

وهكذا تجسمت القضية ، وظهرت في حرية ولا حرية .. فتبدت معطيات ذلك في أدبنـا الحديث ، الذي هو حصاد الاعماق الحضارية بعد بذرة التجارب التي زرعها الانسان في حقول النضال والكفاح ...

وديوان « الحب والحرية » للشـاعر محمد جميل شلش ، ديوان يعرف نفسه ويقدمها ... فهو صوت من اصوات الجيل العربي الجديد .. يعكس شعره تجربة هذا الجيل الرائد .. في نضاله وكفاحه ، في تمرده وثورته .

« ولعل أروع ما في شعر (محمد) الصدق ، الصدق في العاطفة ، والصدق في الصورة ، حتى لانكاد نجد فيه اغراقاً في الخيال ، أو خروجاً عن الواقع . وصوره الشعرية قريبة من النفس لاتجفل منها ولا تنبو عنها شأن من يجري في مسلكه من شعراء الجديد (١) » ...

في قصيدة « رؤيا » (ص٨٤) يعبر الشاعر عن ازمة الانسان في الشرق العربي من خلال مخاضه الطويل ، في نضاله من اجـل الحرية

(١) من مقدمة الدكتور احمد عبد الستار الجواري (الديوان ص ٩)

والكرامة .. يرسم فيها صورة للانسان المأساة .. الانسان الاسطورة ، هذا الذي يقدم نفسه فداء ؛ ليكتب لشعبه البقاء ... ترتسم في ملامحها بعض خطوط الازمة التي عاناها الشاعر ، وعاناها معه جيل بكامله :

« حمامةَ السلام ..
من رماكِ في ظلام شباكي
رؤىً محترقةً ؟
مَنْ خضّبَ العقيق في عينيكِ ..
مَنْ صبَّ نجيعَ الموتِ ..
في هديلك الحنونِ .. يامُطوّقةً ؟
مَنْ علّق الانشوطة الحمراءَ في جيدكِ
من ضيّق حبل المشنقةْ ؟
من اطبقَ المنقار مخضوباً
على فراشةٍ وزنبقةْ ؟ »

ومن ليله الحلولك الكابي ، حيث تمتد أعناق الفزع والرعب مطلة عليه في سجنه الرهيب ، يوم كان يغني انشودة النصر لشعبه المعذب الراسف بالأغلال ... من خلف القضبان الصدئة ، ومن بين الجدران الصماء يغني الشاعر بعفوية « الحب والحرية » لعيني شعبه ، لروح جيله .. جيـل القدر والمردة الجبابرة الذين يلمح في عيونهم ومضات البشارة في ميلاد فجر كبير رحب ، يغمر عالمه ، ويبدد الغيم عن سمائه :

« أحبكم ياأصدقاء المصيرْ ،
يارفقتي ، ياضمير
شعبي ، ويامنبع إلهامي ،
جنّحت من عالمكم ، من دمكم
حكايتي ، ألذّ أحلامي ،
أروع أنغامي » (ص٩٣)

وفي « الشمر والنار والزنزانة » (ص١٠٦) تمتد الرؤى الثائرة عبر طريق الجمر ، وتلتهب الأحاسيس في وجدان الشاعر .. فيتشوف الغد المترع بالبسمات من وراء تلك الأبعاد الممتدة .. فهو الشاعر الذي : -

« لم يزل يحلُمُ من ألفِ عجافٍ ..
بالمعاد ،
بمخاض الشرق في أعماق أعماق بلادي ،
بليالي شهرزاد ،
بشراعٍ أخضرٍ للسندبادِ ،
أبدا يخفقُ في ليل السهادِ ،
عربيّ اللون ، شرقي الهوى ، طلّق العبيرْ ،

وفي هذا استشفاف للفجر الذي كانت رؤاه تعيش في روح الشاعر وهو في ليل زنزانته .. يرمز له بصور حية عميقة الأبعاد ... السندباد الذي هو صرخة البطولة والتحدي ، والذي يعني الرفض للواقع المريض المتهالك ، وعـدم الاستسلام للغربة الاولى .. وشراعه الاخضر . رمز غني بالدلالات .. الاخضرار ، راية ثورتنا العربية ، معنى للخصب ، ومدلول للخير والنماء .. والشاعر – وهو في زنزانته – يحمل معه كل

الأيمان بالغد المشرق الوضاء الذي يسكب نوره على روابينا.. وبشائر الانطلاق تعيش في روحه.. تجري في دمه.. فيهتف مصوراً الأبعاد الثورية العميقة في روح شعبنا : —

« خسيء السجان .. يا أرض استنيري
واستعدّي للغد
وانشدي : من ألف ألف
يحمل الليل ذليلاً مصرعهْ . »

وهكذا يعيش « سندباد » في دمه وروحه ... في نوثباته وانطلاقاته وتطلعاته . في كلماته التي أشحت سيفه في ليل عتمته الرهيب...

حينما يغني الشاعر الشهيد (ص ١٨١) ، فان الصمود البطولي يتجسد عبر لحونه ، متدفقاً في نـبراته الصادقة التي تؤكد خلود شعبه ، وأصالة الحس القومي في روحه : —

«ياواهباً عينيكَ قرباناً لموطنك العريقْ
باقٍ هو الشعبُ المعذّب.. والطريق
من هاهنا ...
يُفضي لباب الشمس ، عبر الأغنياتْ
والموتِ ، والأحزان، والحب العميقْ»

هذا الشاعر الذي يقدس الكلمة الطهور ، ويصلي للفكرة المعطاء ، عن طريق ايمانه بقدسية الحرف وقداسته .. لماذا يقتاله ، ويلف الغيم سماءه ؟ . بل ، لماذا تُحبسُ أفكاره ؟ .. انه الشاعر .. مهمته صعبة .. يفقد الريش ليصنع الأغاني ، على حد تعبير مالك حداد ...

جواب هذه الأسئلة لدى الشاعر ، ترسمها قصيدته التي يقول فيها : —

« لأني غنيتُ للربيعْ ،
لأنّ قلبي طائرٌ وديعْ ،
لأنني أقمتُ حبي ،ونذرت الحرف للجميع
شدّوا على غربانهمْ ..
وخضبوا شعريَ بالنجيع » ..

وفي النهاية ، لابد من ذكر ملاحظة لا أجيز لنفسي عدم ذكرها ، وهي ان كلمات كثيرة تتكرر بنفس المعنى والمدلول في عدد من قصائد الديوان ، ولعل ذلك متأت من طبيعة التجربة التي يشكل الديوان اطاراً عاماً لها ... ثم أن أغلب القصائد تعيش في اطار مدلولها الخارجي ، ولعل غاية شعر الثورة هو ان يلامس أحاسيس الجماهير .. وقد وفق الشاعر من هذه الناحية ، الا ان شعره فقد بعض سماته الفنية التي أضاعت ملامحها ثورة الاحساس .

ولكن الديوان ككل .. عمل جماهيري ضخم ، وعطاء غني .. فهو « صوت من أصوات هذا الشعب العربي ، يصدح بالآلام التي ينعكس صداها في كل مكان من الأرض العربيـة ، وينشد للآمال العراض التي بذل الشعب في سبيلها الدماء والدموع والعرق (١) » . فيه نبض وجداني خالص ، ومشاركة روحية مستمدة من نزيف الاصرار المركي ... وهو بعد هذا وذاك ، سجل لمراحل كفاحية فذة ، حفلت بالمعطيات الرائعة .

---

(١) مقدمة الديوان (ص٦) .

والخيبة ايضاً

مجموعة قصصية لنواف ابو الهيجاء

عرض وتحليل : ممدوح عدوان

اول ما يلفت الانتباه في هــــذه المجموعة القصصية هو ظهور شخصية الكاتب . ولعل أهم ما يعترض كاتب شاب ككاتبنا ، وهو في مجموعته الأولى،هو ان يتوصل الى بلورة شخصيته الفنية ، والفكرية ايضاً ، في اذهان من تتسنى لهم قراءته.

نواف ابو الهيجاء قصاص يعتمد على اختلاط العالم الداخلي بالعالم الخارجي ، والمونولوج بالحوار الحي الى حد يتعب القارىء وهو يبدأ تصفح القصص الا انه ينتهيه في نهايتها. فالأسلوب واحد بحيث ان القارىء يستطيع بسهولة ان يخمن كيف سيعرض نواف المشكلة الثانية ؟ حتى لو لم يعرف « ماذا سيعرض ؟ »

والمواقف التي يطرحها في هــــذه اللقطات تكاد تكون موقفاً واحداً ، ولنستعرض بعض هذه المواقف كي نرى الى اي حد تتشابه :

العجوز ، بطل « الفتح » انسان يحس ان عليه ان يطرح قيمة لنفسه في محيط انكر عليه قيمته ، حتى انكرها على نفسه . وتتحول الازمة من محاولة طرح قيمته امام الآخرين الى طرحها امام نفسه ومحاولة اقناع نفسه ، وهي الشخص الثاني المطل من اعماقه .

يخترع العجوز قصة الكنز فتتوجه اليه انظار بنيه وجيرانه . الا انه في اللحظة التي يعتقد فيها انه قد حقق ما يبتغيه ، يكتشف ان « الشخص الثاني » قد هرب ، « العين ذهب .. ما هي الفائدة ؟ » . ما هي الفائدة اذا كان قد استطاع اقناع الآخرين بقيمته الجديدة دون ان يستطيع اقناع ذاته ؟

هذه مشكلة الفرد وقيمته بين الذات والآخرين، وتكاد المشكلة المطروحة في « الصدع » تكون

المشكلة ذاتها ، فـ « سها » فتاة تعاني من احتقار نفسها ومن توقع احتقار الآخرين لأنها حامل نتيجة لعلاقة غير شرعية مع شاب تركها وذهب الى لندن ، وفي اللحظة التي تقرر فيها ان تنتحر تهتدي الى حل آخر وهو ان عريساً واحداً قد يحل الأزمة . انها تريد التخلص من حملها ولا حاجة بها للانتحار . « سها » كالعجوز اهتدى كل منها الى حل يقنــــع الآخرين دون اقناع الذات . وكل منهما توصل الى الحل ذاته امام ضغط الآخرين . فالتراجع الاول في انتحار « سها » كان كما يلي :

(ويلتي .. انا اقتل نفسي حقيقة .. لماذا ؟ الموت ؟) ... (لا .. لا اريد ان اموت .. **ويقولون** انها جبانة)

يريد نواف ابو الهيجاء ان يقول باختصار ان « الحياة ازمة وان الحياة قمة البطولة » . ان تقبلنا للحياة ومحاولتنا اصلاح الامور المقلوبة فيها خير الحلول . ورغم اننا لا نطالب الكاتب القصصي (والاديب بصورة عامة) بالتفاصيل والتحليلات ذاتها التي نطالب بها الباحث الاجتماعي او السياسي (وان كنا نتطلب الوعي ذاته من كليهما) فاننا لا نستطيـــع الا ان نقول ان « نواف » كان متردداً في تقرير موقفه فتركه مبهماً . قال نواف « علينا ان نقبل الحياة » لكنه لم يقل « وكيف نغير الأمور ؟ »

ان في الحياة ازمات عديدة وكلها حادة . هناك المشوه الذي يهـــدده الكاب « المتسول والكلب » ، الكادح الذي يتعب ولا يأكل والهرة التي تأكل دون تعب « الشيخ الذي ذهب » ، الفتاة التي يتهددها خطر منزلي « ثلاثة فقط » ، الانسان العقيم الذي تهدده اهانات زوجته وبيئته المتلاحقة « ورحل » ، والانسان الذي نافسته الآلة وسحقته « الفال المتحرك » ، والشاب المتضائل أمام الفتاة المدنية المتحررة والتي يعتقد انها خائفة « همسة للأموات » .. والشاب التائه العاطل عن العمل والذي يلاحقه كابوس مرعب من العمل لان ذلك العمل قد شوه والده « الساعة » ، والجيل الذي يعيش باحثاً عن الرطب في موسم مجدب « بغداد والرطب » ... الخ

هذا عرض لمعظم الازمـــات المطروحة . ويشكل تسلسلها قصة واحدة يريد من خلالها الكاتب ان يطرح التزامه . ولا يتجلى هـــذا الالتزام في فكرة تقبل الحياة على علاتها بقدر ما يتجلى في الآمال الملقاة على الجيل القادم . ولعل افضل ما يبرز في المجموعة تلك الطريقة الدقة التي يطرح من خلالها التزامه .

قلنا ان القصتين الاوليين قد انتهتا بصالحة من نوع « الضحك على اللحى » . فالعجوز و« سها » اللذان توصلا الى اقنـــاع الآخرين وكسب احترامهم لم يتوصلا الى احترام الذات . هنا ، وبعد ان نتوقع ان يطرح الانسان كقيمة ، نبدأ في البحث عن التزام الكاتب .

ويبدأ التفـــاؤل ، في القصص ، بالظهور تدريجياً . فهناك دائماً انسان يأتي لمساعدة المشوه ؛ وتنطلق الفتاة المهددة وراء حلم لذيذ بعد ان ترمي بآخر ما يربطها بالبيئة القديمة ؛ ويسعى العقيم الى تجربة جديدة تثمر بخصبه وبان العقم كان في

ماضيه ، ويؤمن العامل الذي تملقت الآلة امامه بأن القيمة مازالت في الانسان لانه صانع الآلة .

بعد هذا يأتينا حلان مبهان في « الساعة » و « همسة للأموات » . ففي القصة الاولى يقرر الشاب التافه ، بعد صدمة عنيفة ، ان يعمل ، بينا يقتنع الشاب في الثانية ان فتاته ليست خائنـة فينطلق منها . انطلاق هذا الشاب اوحى لنا بالقوة التي تتمتع بها الفتاة وقد تضاءلت أمامها شخصية الشاب كما حدث في التجربة المفتعلة من زواج الشاب الآخر بالعـاهرة « الخلاص » (لان الشاب يبحث عن العدم والعاهرة تبحث عن الكينونة) . الا ان هذه المحنة تغتفر امام العرض الرائع لكل جوانب الازمة في قصـة « المصباح » ، وهي تبين قصة الجيل (ممثـلاً بالطفل) متخبطاً في عاصفة تهب في ليلة رهيبة وليس هناك ماينير السبيل لان رفاقه قد كسروا المصباح .

واخيراً يأتي الحل بشكل واضح في « بغداد والرطب » ان الجيل الجديد الجائع لن يتخلص من أزمته الا اذا قام بنفسه بتلقيح النخيل . ان على الجيل الذي كسر المصباح – او الذي تناسى انكساره واكتفى بالاحساس بأزمة الجدب او الظلام – أن يبدأ الحياة بنفسه وان يتسلم زمام الأمور . فالجيـــل الآخر قد فقد القدرة على الاستمرار .

هذا التفاؤل بالجيل الجديد هو جوهر التزام الكاتب .

★ ★ ★

وهناك أمر لابد من الاشارة اليه وهو ان (نواف) كاتب متميل . وهو في عنفوان حماسه يحس زحمة الأشياء فيتخلص منها بان يحول القصة الى معرض . عيب كاتبنا هو انه لايعرف كيف يختار افكاره (الجزئية) او اين يرتبهـا . اسمعوا هذا المونولوج الذي اورده الكاتب في خاطر عجوز ريفي :

– الك ترتاب دوماً ايها العزيز

– الريبة اساس الشك

– كيف ?

– اسمع ياعزيزي . . الحياة تبعث من ظلال الموت . . ولولا الظلام لما كان النور . . والعكس صحيح بالطبع . . اي لو لم يكن الشك لما صار اليقين .

قال الشيخ وقد لامته اصابع الحيرة :

لم افهمك

وعلى الفور قالت اعماقه :

– كيف تميز السراب من الحقيقة ?..

... – عندما ارى الشيء ، والمسه اقول هذا حقيقة .. غير ان السراب أراه شبيهاً بالحقيقة فأعتقده كذلك .. ولا المسه .

– بدأت تجنح نحو المنطق .. اقول لك .. اليقين هو ماادركه وما ألمسه .. والشك هو مالا ألمسه .. غير اني ادركه » (١)

أما الطفلة التي ذهبت لشراء الخبز لوالديها (٢) فهذا هو مونولوجها ... « كله دخان .. كم

(١) قصة (الفخ)
(٢) قصة (ثلاثة فقط)

اكليل شوك حول قدميه

مجموعة قصص تاليف لور غريب

نشر المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر في بيروت .

عرض وتحليل ياسين رفاعية

اين تقف لور غريب من القصة اللبنانية ..

فبعد ديزي الامير ومنى جبور ولورا ابو يهض حلواني وليلى بعلبكي ، تأتي لور غريب بمجموعتها القصصية « اكليل شوك حول قدميه » وهذا بالنسبة للور حدث مهم ، فقد كانت في الاصل شاعرة باللغة الفرنسية وقد اصدرت ديوانها الاول بالفرنسية عنوانه « اسود في ازرق » وكل محاولاتها الادبية ان في النقد او الدراسة او المقال جاءت باللغة الفرنسية .. فان تكتب مجموعة قصص بالعربية ، فهذا حدث بالنسبة لها وبالنسبة للجو الادبي العام في لبنان .

ولكن ، عودة للقول ، اين تقف لور في القصة اللبنانية بعد ان ادلت بدلوها ..

اثنتا عشرة قصة تضم المجموعة هي على التوالي: ظلي عبر المسافات - حرب بلا معركة - وجوه من شمع - التماثيل - حجر في لعبة الشطرنج - في وداع الامس - ويبقى الصليب قائماً - عيناها شبحو خي - الغصن الصغير - اكليل شوك حول

→

يكاف الدخان الذي يحرقه ؟ ... انه يحرق النقود من اجل ان يستهلك الزمن .. والزمن هو الذي يستهلكه ويستهلكني أيضاً »

الامر كما أوردته في البداية ، الاسلوب واحد في القصص جميعها ، ولو حاولت لنقلت من كل قصة نموذجاً ؛ فالاسلوب واحد بأخطائه في المونولوج ويجيئه في زوايا اخرى من المونولوج ذاته . سر هذا العيب ان « نواف » (الانسان) يريد دائما ان يفرض نفسه على « نواف » (الكاتب) . ان الفكرة التي تعترضه في الطريق تفرض نفسها عليه في القصة وبطريقة مزعجة .

الا ان اجل مايميز أسلوب هذا الكاتب الشاب هو ذلك التداعي الموفق (دون التداعي الفكري) . فالانتقال السريع في خواطر الابطال وربط الاشياء بغيرها ، يتم ، في أغلب الاحيان ، بطريقة جيدة تساعده على تكوين الرمز الفني ومتابعة مجرى الاحداث في آن واحد .

– المجموعة ، باختصار ، تمدنا بالكثير مما يمكن لهذا الكاتب الشاب ان يعطيه في المستقبل . كما نرجو له حسن التخلص من « تمفيس » الافكار بهذه الطريقة الاعتباطية .

قدميه ـ لا اريدك صدى واخيراً : في جـدي بقية من ربيع اطول قصص المجموعة .

وتكاد تكون هذه القصص مرسومة في خط واحـــد وضمن اطار لا تخرج من دائرته حتى لتحس انعناوينها مجرد عناوين فصول في رواية طويلة لان ملامح البطلة في جميع القصص ملامح واحدة ، بل انها تتطور عبر القصص كما لو كانت تتطور في رواية تأخذ صعوداً من الحدث الصغير الى الحدث الكبير ثم الى الغاية المرجوة التي تنشدها الكاتبة ، مما يدل على وحدة النظرة بالنسبة للوجود والعالم المعاش .

والذي يلفت النظر ان لور غريب جاءت بجديد كل الجدة في هذه المجموعة انه الاسلوب الشعري المتوتر دائماً ، اللاهث باستمرار ، حتى ان القارىء ليحس بالجو الذي تخلقه الكاتبة حتى يغلب عليه ، فاذا هو بالتسـالي يتوتر مع الاحداث ويلهث وراء الكلمات .

وما قيل في كل الدراسات التي كتبت حول هذه المجموعة ، تارة بتأثر كاتبتها بليلى بعلبكي ، وطوراً بتأثرها في ثقافتها الفرنسية ، لايملك كل الحق ، فلور غريب هنا شخصية جديدة دائمة في القصة اللبنانية ، وتكاد تملك رؤيا خاصة لهـــا القدرة على الكشف من زاوية حادة كل الحدة ، حتى ليكاد الانسان يحس بطعمها على لسانه ، ثم هي مخلصة كل الاخلاص لنماذجها القصصية . انها لاتفتعل الحوادث ولا تزيف المواقف ، تقدم لنا ابطالها بكل اخلاص تارة من خلال الحلم فتبدو القصة كأنهـــا سيمفونية انسانة فيهـــا بعض ماللحلم من غموض وفيها بعض المبالغة الصادرة عن اللاوعي وتارة من خلال الواقع فترسم لنا الاحداث بصراحة معذبة وتعري النفوس تعرية تكاد تكون مؤلمة الى حد كبير .

ولور ، وراء هـــذه القصص ، تمنح نفسها وذاتها ، فهي فتاة حقيقية تعيش حياتها كما تعيش قصصها وقصائدها . ليس هناك اي حاجز بين حياتها الخاصة وبين ادبها على العموم ، انها ملتحمة بشكل مضن مع افكارها ، فتبدو اخيرا كما لو انها بالذات بطلة كل قصصها وان حاولت في بعضها ان لاتوحي بمثل هذا الوحي .. ربما اختارت من صديقاتها ومن معارفها بطلات لقصص اخرى . ولكنها لم تستطع بحال من الاحوال ان تنزع عنهن افكارها ورأيها بكل مايحيط بها . ثم الشيء المميز في المجموعة لغتها الجـــديدة ، انها ليست شعراً يطغى على لغة القصة ، وليست لغة قصة تطغى على الشعر ، ان بينها في الواقع مزجاً عجيباً ان في الاسلوب وان في الكلمات ، فاذا بلغة جديدة تنبثق من خلالها فاذا اخترنا قصة « ظلي عبر المسافات » نجد ان البطلة واحدة من النساء الراضخات لاسلوب جديد في الحياة ، اسلوب مادي بحت .

– اترك المدينة وابحر في عيني . . سأحملك الى ذروة النسيان . . ابحر ولا تفكر بالغد

– السراديب لاتزرع مثل القمح ، والعشب ، والازهار ، انت قاسية . . اين ابحر . . والى أين تحملينني ؟ ايتها المرساة الباحثة عن مرفأ امين دون ان تبحر ابداً .

وتتداعى الافكار في ذهن البطلة . . « كنت ابحث آنـــذاك عن الاستقرار لأهرب من

الموت ، والساعات الراكدة تحت عيون الفرباء» وتصبح ...

- لماذا أتيت الى مدينتي ايها الغريب ؟

- ما معنى الفرح ايتها الغريبة .. لماذا تبحث عيناك عن وجه الموت على شفتي؟ واخيراً تعود البطلة الى مدينتها بيدين فارغتين .

ما الساعة الآن ..؟

سؤال مفجع ، فليس هناك ساعة تدق ، الزمن واقف ، فلا هي من طينته ولا هو من طينتها ، ولكنه كان املها الوحيد ، تريده ، وهو وهب نفسه للسفر .

تقفز من « حرب بلا معركة » الى «وجوه من شمع » .

احبته بكل مافي اعصابها من دم ولحم ، ووهبته كل احاسيسها ، وجعلت من نفسها قطته التي تلعق اسفل قدميه بلسانها حتى تشبع . انها حائمة اليه دائماً ، لانه اقتطفها من شجرة يابسة ، كانت الثمرة الناضجة الوحيدة ، منحها اسمه ، اعطاها بيته ، فاذا تملك له غير الوفاء الابدي . وهذا ما ارادته ، فابتكرت له حياة رائعة كل يوم فيها جديد ، وفيها اسلوب قائم بذاته لونت من حياته وصبغتها بألف لون .

وبعد زمن طويل مل كل شيء ، اراد اطفالا ، ولكن المأساة انها لاتنجب اطفالا .. والخ .. ثم اخذ يصرخ .. ثم راح يضربها . انه يريد طفلا .. ولكن ماذنبها . يطاردها :

- اين اذهب .. لا اعرف احدا .

نهض عن كرسيه وامسك بذراعها وجرها نحو الباب ، فتح الباب ، قذفها خارجاً ، اغلق الباب ...

هي ايضاً متعبة وجدها يرتجف « العالم غريب .. اااغريبة ، اين اذهب» . وباسلوب يميز تبدأ القصة من الهدوء لتتطور مع الاحداث الى توتر قاس ومرعب : اين تذهب هذه المرأة . ليس لها احد . لاتنجب اطفالاً . طاردها زوجها اين تذهب . وبكل قوة ترسم الكاتبة الجواب لقد عرفناه كلنا .. دون ان تقوله لنا .

وفي التالية تبحث من جديد عن رجلها . ولكن اين الرجل الحقيقي .. انه يصلب على ارض يابسة .

اما « حجر في لعبة شطرنج » فثمة انتقال آخر ، يهمس في اذنها

- لدي مفاجأة لك

- ولم لاتقولها الآن ؟

- غداً سأتصل بك وستلتقي في الصباح لاخبرك ...

وتحاول ان تعرف الآن ، ويدرك اضطرابها فيأخذها الدوار واعداً اياها ان يقول كل شيء .. وتهتز البطلة باستمرار . لماذا لايقول الآن وتحلم به ، بركنه بيته ، بزاويته . وفجأة تنهار عليها صورة ماضيه الملوث بألف امرأة ، وتتساءل هل ستصبح واحدة منهن . لا .. وماذا في مفاجأته .. ربما هدية .. ربما شيء آخر .. لا لن تكون واحدة من هؤلاء . ابدا . وتهرب منه بطريقة هستيرية ... انها ترفضه . انها تثور على حبها . لن تكون ابدا مجرد رقم في مفكرته .

←

النفق والأرقام

تأليف اسكندر لوقا

نقد عدنان ابن ذريل

— النفق والأرقام — مجموعة قصص قصيرة، للقاص (اسكندر لوقا) ، استمد المؤلف عنوانها من القصة القصيرة التي تحمل نفس العنوان ، النفق والأرقام .. وهي في (تناقضات) الحياة المستمرة ، في الحب والأمل والحيـــاة من جهة ، واليـــأس والبؤس والعدم من جهة أخرى ، تعانيها فئات متقدمة ومتأخرة من طبقات مختلفة من الناس ..

وفي الحقيقة ، ان كثيراً من قصص هذه المجموعة ، تتعاورها التناقضات العميقة الصادقة في الحياة ، بوجهيها المختلفين المضيء ، والمظلم ، السعيد ، والتعيس .. الا ان (التفاؤل)لايغادر عالم فقد كل قيمة ، تريد لو تمحك شيئاً من الصفاء والمحبة دون ان تنجح .. والعالم لديها ليس عالم التقاليد ، والتمسك بكل ماخطه لنا الاجداد لايصدر عن العقل الواعي والرؤيا الشفافة .

لور غريب في القصة اللبنانية ، ليست كل الذي ذكرت في بداية المقال ، لأن قصصها ليست قصصاً لبنانية فحسب ، بل هي قصص انسانية تحدث لكل انسان في اي مكان .. ولم اقدم لور شخصيات محلية من لبنان لانها لم تعش محلية لبنانية رغم وجودها في لبنان وهنا لابد ان نلمح ثقافة الكاتبة الاجنبية ، ولكن لا على اساس انها قد تأثرت بها بل على اساس انها جعلت منها اداة طيعة في يدها لتعبر عن امرأة تعيش في لبنان وتحيا ثقافة أجنبية .. لماذا ..؟ في لبنان آلاف من هؤلاء النسوة .. ولور أخذتهن كنماذج في « اكليـــل شوك حول قدميه » .

وبعد فرسوم المجموعـــة ايضاً بريشة لور غريب .

لكنها في (وداع الامس) يهمس في اذنها .

— أتودين العودة حقاً ام تذهبين معي لنشرب كأساً .

لم تجب ، بل تطلعت الى ساعة يدها ، فاذا هي تشير الى الثالثة صباحاً ، قررت ان تلغي الامس والغد وان تذهب معه في رحلة غامضة . وكذلك : تخليت عن كل مايربطني بالأمس عندما طلبت من سمير ان يتركني على الرصيف ومرت دون ان التفت الى الوراء .

وفي « يبقى الصليب قائماً » ترتسم الذكرى في ذهن البطلة بمرارة فاجعة : « اين هو الآن .. ماذا يفعل ..؟ تطلعت الى ساعة يدها وقالت لنفسها : انه في حالة ما . يشرب البيرة ويغرق في ذكريات مضت . انه وحيد مثلي » .

واخيراً : لقد مات كل شيء .. لم يبق في فم عيسى الا طعم المرارة ، وحسرة اليقظة .. هكذا بقية القصص .

فتاة ثائرة على كل شيء ، باحثة عن القيم في

قط هذه القصص القصيرة ، في شتى موضوعاتها ، كما انه غالب على حواراتها ، تحليلاتها ، وأوصافها .

ان حرص القاص (اسكندر لوقا) على — الواقعية — في قصصه ، تعادله انسانية متفائلة عنده ، هي التي تلطف اجواء المكاشفة الصادقة ، والوصف الواقعي الدقيق ، وتظل تكسبها رونقاً انسانياً مؤثراً .

ويتوزع (الموضوعات) القصصية ، في المجموعة على التـــالي : الوصف النفسي والخلقي ، والرصد الانساني المواقفي ، والسرد الاجـــتماعي الواقعي .. فتغدو (القصة) بذلـــك ، عند المؤلف ، مشهد مواقف ذكيـــة ، أو حادثة نفسية واجتماعيـــة ، يقارب بعضهـــا النموذج الانساني لموقف ما او فصـــل ما ..

وميزة المؤلف انه يجنح دائماً في رصده الواقعي ، الى نموذجية مواقفية او انسانية ؛ فيتقن (عناصر) القصة ، ويشذب مقوماتهـــا ، عرضها ، حبكتها ، عقدها ، حلها .. ويزجيها في (همس) ، مليء بالتشويق ، والفائدة ايضا ..

وتصوير (الواقع) ، في هذه القصص القصيرة ، تحليل لطباع ، أو لأزمة اجتماعية ، او ايضاً لحادثة نموذجية .. ومعظم هذا الواقع متزد وفاسد ، ولكنه في اغلب الاحيان يسوره (تفاؤل) من أمل او ملجأ او مخرج اومبرر ..

نجد ذلك مثلاً ، في وصف التهالك على الخمر لفشل في الحب ، او في الحياة ، كما في — موت شاعر متمرد — ، او — موت عصافير الدوري — ، او — الظل — .. او تفتت العائلة ، وعذابها ، واحياناً الانحراف في التيار كما في — الذئب — ، او — كابوس — وغيرها .. او ايضاً قهر الآباء لأبنائهم فازواج ممن يريدون ، كما في — اكدار — .. وغيرها ..

ويبلغ الحرص على تسقط (الموقف) ، مع العناية بوصفه ، درجة في بعض القصص الواقعية ، ان تستحيل الى لوحات لنماذج نفسية ؛ كما في — المطر على الزجاج يتغر — ، وهي في تبادل زوجين متحابين اخفاء امر المرض بعضهما على الاخر ؛ او — طفولتي الجديدة — ، وهي في نكوص الى الطفولة للتمتع بالحياة ، والجمال ؛ او — هدية — ، وهي في شعور العرفان بالجميل تجاه صاحبة دار .. وتعتبر قصة — الصنم — ، نموذجية في رصدها النفسي ، والداخلي ، لدرجة انها تلامس الأدب اللامعقول في حركته الضمنية ، في (أسقاط) غيرة ، في حب فاشل ، تثيرها رؤية خادم تشبه الفرعة في النافسة ..

تقوم هذه القصص القصيرة ، في المجموعة ، في معظمها على أساس (الحادثة الاجتماعية) ، الواضحة المعالم ، المعقدة ، والمركبة منها ، مثل الظلم ، والقسوة ، والفساد ، والفشل ، وغيرها ، او البسيطة والمفردة ، مثل عرفان بالجميل ، او بارقة حب ، او امل ، وغيرها ..

والمؤلف يستمد موضوعاته من وقائع المدن ، او الريف ، من حياة طبقات المجتمع المختلفة : الموظفين ، العمال ، والفلاحين ، والطلاب ، والناس العاديين من الجنسين .. يصفها من زوايا مختلفة ، وكلها صريحة ، وذكية ، ونيرة ..

وقد لوحظ ان (الأماكن) التي تتسلسل فيها الاحداث بعضها مخصص ، مثل الغوطة ، والميدان ، والصالحية ،وغيرها ؛ وبعضها ،وهو الغالب غير مخصص ، مثل القرية ، والساحة ، والشاطىء ، والمدينة ، والمقهى .. وغيرها ..

وان تخير هذه الموضوعات ، وطواعيتهـــا للقصة القصيرة ، ظاهرة تلفت النظر في هذه القصص ، حتى كأنها مفصلة على قد اسلوبها ، بدون زيادة ، او نقصان عليه .. وتلك بادرة تفوق تسجلها للقاص (اسكندر لوقا) ، التي يدلل باتتاجه القصصي على اخلاصه للقصة القصيرة ، وحبه لأسلوبها ..

والجدير بالمـــلاحظة ، اخيراً ، ان هذا (الاخلاص) الذي يحمله المؤلف للقصة القصيرة ، يحمله فيها ايضا الموضوعات الاجتماعية (الملتزمة) والهادفة بعللها ويشقط مواقفها ، مثل الضيق في القرية بسبب انحباس الأمطار ، وعواقبه على الفلاحين من الجنسين ، اوالموظف ومتاعبه المادية والعاطفية وكدمه في الحياة ، او العامل ـ ولا سيما النادل ـ وظروف حياته المختلفة بين الصبر ، والكد ، والجزاء ، والأحسان ..وغيرها ..

هذا الجانب الايجابي ، الذي تبينه ، في هذه القصص القصيرة ، الى جانب (الانتقاد) ، والوصف الواقعي ، يبشر بخير كبير في الدفـــع الجديد والحديث ، الذي يسيره أدبنا القصصي الحديث ، باتجاه اشتراكي واقعي ، خير ،ونير.. وحبذا ايضا أيلاؤه المزيد من العناية ، والفن .



● اصدر مركز التدريب على تنمية المجتمع في العالم العربي بسرس الليان صحيفة شهرية مصورة ، وكان العدد الاول منها خاصاً تقريباً بالحملة العربية الشاملة لمحو الامية التي تبدأ في تشرين الثاني القادم لتنفيذاً للقرار الذي اتخذه المؤتمر الاقليمي لتخطيط وتنظيم برامج محو الامية في البلاد العربية الذي نظمته ودعت اليه منظمة اليونسكو وعقد بمدينة الاسكندرية بين ١٠ – ١٨ تشرين الاول من العام الماضي .

● صدر ضمن مطبوعات القصر الملكي في الرباط كتاب «روضة الآس العاطرة الانفاس في ذكر من لقيته من اعلام الحضرتين مراكش وفاس» للمؤرخ المغربي ابو العباس احمد المقري التلمساني .

● اصدرت مجموعة «حياة الرجال المشهورين» بموسكو كتباً عن لوركاو برخت وغيرهما .

● قام الصانع الماهر ت . سيادريني في زاكورباتيا باوكرانيا بصنع اصغر كتاب في العالم واسمه «كابزار» ، وهو مجموعة اشعار الشاعر الاوكراني المشهور تاراس شيفجينكو . ويبلغ سطح هذا الكتيب ٦،٢ مم٢ . وكان يظن انه لا يمكن التفوق على اليابانيين الذين اصدروا كتيباً سطحه ١٢ مم٢ ، وظل الكتيب المحفوظ في المتحف الايطالي وسطحه ١٠،٦ مم٢ – اصغر كتاب في العالم ، حتى قام الناشرون في لايبزغ باصدار كتيب سطحه ٥،٥ مم٢ ، قبل ان يصدر بنصف سطحه هذا الديوان الشعري الذي نقرأ تحت المجهر .

● تركت قبيلة «ايتروسكي» ، احدى القبائل التي كانت تقطن ايطاليا منذ غابر الازمان ، تراثاً قيماً ، هو عبارة عن لوحات وتماثيل من الحجر والبرونز وتوابيت واوان من السيراميك الخ ... غير ان مفتاح كشف ثقافة الشعب القديم لم يكن في متناول العلماء ، فلم يستطع اي واحد منهم قراءة ما كتب باللغة الايتروسكية ، وقد نجح في ذلك مؤخراً الكسي خارسيكين الاختصاصي السوفييتي في اللغات ، الذي درس بدقة هذه الكنوز والكتابات المسطرة عليها وابدى اهتماماً خاصاً بالظروف التي اكتشفت فيها وبخواصها الخ ... الامر الذي سمح لعالم اللغات لا باجراء البحوث الدقيقة على النصوص وحسب ، بل بقراءة اكثر من ٤٠ نصاً ايتروسكياً ايضاً .

● «فيلسوف الفريكة» ، هذا هو عنوان الدراسة التي اعدها في موسكو ز . ليفيان عن امين الريحاني الانسان والمفكر .

● اشترك ٣٠٣ الف شخص هذا العام في مسابقة «سنبلة ذهبية للمؤلف وسنابل فضية للقراء» التي تنظمها وزارة الثقافة البولونية . فمنحت السنبلة الذهبية في النثر لرواية «الرماد والماس» لجرزي أندرزيوسكي وهي عن السنوات الاولى التي تلت الحرب في بولونيا . ومنحت السنبلة الذهبية في الشعر لأشعار جوليان تويم الذي توفي سنة ١٩٥٣ وهو من اكبر الشعراء البولونيين في القرن العشرين . ومنحت السنبلة الذهبية في أدب الذكريات والمذكرات لكتاب «ارض الآباء تنادي» لغرالجيزك ملجزكو . ومنحت سنابل فضية للقراء الذين طالعوا اكبر عدد من الكتب ، وللمكتبات التي وزعت اكبر عدد منها .

• قالت مجلة (العدل) النجفية في العراق:

« ماتت مجلة (الفكر المعاصر) التي تصدر في القاهرة وطلعت علينا الأقلام وهي تؤبنها في كل قطر عربي .. وكان على هذه الاقلام أن تنشدها، وأن تشخص الداء الذي كان يعترض طريق سيرها وتشير الى دوائه ، ولكنها لم تفعل هــذا ، بل سكتت ، وعلى مضض مع حسن الظن ، حتى اذا ماتت وقفوا يذرفون الدموع كما هي عادتنا مع الادباء تماماً ! لماذا ماتت الفكر المعاصر ؟ لم يسأل أحد ، ولكنها ماتت ويجب أن نذرف عليها الدموع ! ان من النافع حقاً، أن تكون الصحف في العربية المتحدة تحت إرشاد المسؤولين، وتوجيه المسؤولين ، فليس بامكان صاحب المجلة أن يفعل لأجل فائدة المواطنين ما يتمكن أن يفعله جهاز واسع وكبير لجهاز وزارة الثقافة والارشاد .. وكان بامكان هذا الجهاز أن يقف دون أن تموت المجلة ! كان بامكان هذا الجهاز أن يأمر برفع مستوى القراء بدل الهبوط بمستوى المجلات الى مستوى المراهقين وأشباه الاميين والسطحيين ! ولولم تكن المجلات الفارغة مغرقة ، والملونة صوراً تثير المراهقين وتفاهات تهضمها عقول أنصاف الاميين ، لماماتت مجلة الفكر المعاصر .. وبالامس القريب ، لولم تكن مجلة الاثنين والعروسة والكواكب ، لما ماتت المقتطف ولاماتت الرسالة الاولى ! ..

درس يجب أن نعتبر به ، وأخشى ما أخشاه ، أن تختفي غيرها من المجلات ، لانها لاتنشر ما يثير المراهقين ، ولانها تقتصر على ما يرفع من مستوى الاميين الى أفق المعرفة ! .. »



أخبار فنية

● ساهمت في المهرجان الفني لمعرض دمشق الدولي هذا العام ، وزارة الثقافة والارشاد القومي بفرقة أمية القومية للفنون الشعبية ، وفرقة المسرح الحديث اللبنانية ، والفرقة الهندية ، والفرقة الداغستانية السوفيتية ، وفرقة الرقص والغناء الاسبانية .

● افتتحت وزارة الثقافة والارشاد القومي في شهر ايلول الماضي معرض التصوير الاسباني الحديث ، وذلك في المركز الثقافي العربي . وضم المعرض ٣٩ لوحة فنية لستة فنانين من مدرسة سرقسطة هم : نيو اسه نسيو ، اوته لوشويكا ، خوليا دورادو ، دانييل ساهون ، ريكاردو سانتا ماريا ، خوان خوسه نه را . وكان فن بيكاسو القاسم المشترك بين أفراد هذه المجموعة عندما بدأوا عملهم الفني . ولكن هذا المعرض يتميز باتباع الأسلوب الواقعي في تصوير العالم الحالي والحياة اليومية فيه المتميزة بالاتزان والتواضع ، كما يتميز بالرومانتيكية التي تظهر في الحنان الذي ضمت فيه الصفائح الحزينة « المعادن الخسيسة » بما فيها من أسى وسواد داكن في هذا العمل الفني المنغمس في موضوع الانسانية .

● افتتحت وزارة الثقافة والارشاد القومي معرض الفنانين نعيم اسماعيل وفاتح المدرس وطالب يازجي واحمد دراق السباعي وخزيمة علواني وفيصل عجمي وجوليا قطيني ولؤي كيالي والنحات سعيد مخلوف ، في صالة « ابساس » عرض نعيم اسماعيل — منظرين مع لوحة « جسر في انطاكية » وعرض فاتح المدرس اربع لوحات هي « حلم في مقبرة تدمرية » و « نصف النهار » و « روح القرية » و « الشيء والأرض » . وعرض طالب يازجي أربع لوحات تكوين . وعرض سعيد مخلوف تمثال « عناق » . وعرض جوليان قطيني اربع لوحات من سورية . وعرض احمد دراق السباعي « العروسة » و « حارس البستان » . وعرض خزيمة علواني اربع لوحات . وعرض فيصل عجمي اربع لوحات تكوين . وعرض لؤي كيالي « الوجوه الثلاثة » و « من وحي معلولا » و « طبيعة صامتة » و « من ارواد » .

● افتتحت وزارة الثقافة والارشاد القومي في المركز الثقافي العربي بدمشق في الشهر الماضي ثلاثة معارض : معرض الدكتور قتيبة الشهابي ومعرض الاستاذ غالب الكيالي للصور الفوتوغرافية ، ومعرض الاستاذ عبد المنان شما للرسم .

● أقامت مؤسسة النشاط الثقافي بروما La Societa oplontina di cultura معرضاً للفنان السوري سامي برهان والفنان الألماني مانفرد ديتريخ .

● اقيم في تشيكوسلوفاكيا أخيراً مهرجان لافلام الصغار تنافست فيه حوالي ثلاثين دولة من دول آسية وأوربة وأمريكة . وقد أعقبت المناقشات الحرة التي رافقت هذا المهرجان ، مناقشات الموائد المستديرة بين رجال السينما ورجال التعليم فتبادلوا وجهات النظر بشأن مضمون الافلام التي تنتج للأطفال . وحضر هذه المناقشات جمهور متحمس قوامه عدد من الطلاب وجهت اليهم الدعوة للاشتراك في المهرجان واختيار أحسن الافلام في رأيهم . وكان من أهم مااسترعى النظر أن آراء لجنة المحكمين الدولية وآراء التلاميذ الصغار اتفقت على اختيار فلمين تشيكيين ، أولهما فلم فكاهي يدور حول مغامرات صبي يسعى الى انقاذ سمكة نهرية حصلت عليها الاسرة لتجعل منها « رأس المائدة » في وجبة العيد . أما الفلم الثاني فيصور مايعتمل من مخاوف وآمال في نفوس مجموعة من صغار التلاميذ تستعد للدخول في امتحان نهاية العام الدراسي .

● أقامت مدينة طولوز الفرنسية ، في شهر أيلول الماضي ، معرضاً من أهم المعارض التي خصصت حتى الآن للرسامين المصريين . وعنوان المعرض « بيكاسو والمسرح » . نظم هذا المعرض دنيس ميلهو مدير متحف أوغسطين بمساعدة الناقد الفني الأمريكي دوغلاس كوبر . امتاز هذا المعرض بأمور ثلاثة :

١ — ضم عدداً كبيراً من لوحات بيكاسو الرئيسية بعضها مشهور وبعضها لايعرف الناس عنه كثيراً ، وكثير من هذه اللوحات استعيرت من مجموعة بيكاسو شخصياً .

٢ — دلت معروضاته على الصلة الوثيقة بين بيكاسو والمسرح .

٣ — تجاوز مفهومه المحدود وأصبح رمزاً للمسرح من حيث هو دافع من دوافع الفن العصري بشكل عام .

● افتتحت وزارة الثقافة والارشاد القومي المعرض الرابع لانتاج مركز الفنون التطبيقية بدمشق في ٣٠ أيلول المنصرم .

بيروت

مسرح ـ كتب ـ مجلات أدبية معارض

لاحد مراسلي المعرفة

الصيف في لبنان ، غيره في الشتاء ، هو حركة ركود بالنسبة للحياة الفكرية ، ولكن هذا لم يمنع صدور العديد من الكتب . وحدث العديد من الاحداث الفكرية ، ان في الندوات أو المسرحيات أو المناقشات .

مسرح

بدأ في ٣ ايلول الماضي ، مهرجان راشانا المسرحي بمسرحية « ضاعت الطاسة » التي اخرجها انطوان ملتقى واقتبسها ادوار امين البستاني عن « الابريق المكسور » لكلايست بلغة عامية . وكررت المسرحية في ١٢ ايلول . ثم تلاها في ايلول مسرحية « سبعة قواد على ابواب ثيبة » لآشيل التي قدمتها فرقة ناسي الفرنسية . وفي الليلة ذاتها قدمت حلقة المسرح اللبناني مسرحية « الازميل » لانطوان معلوف ، بالعربية ، وفي مساء ١١ ايلول قدمت فرقة بارما الايطالية مسرحية « غورغوغليوني » لبلوت ، وقدمت ايضا حلقة المسرح اللبناني مسرحية « سوء تفاهم » لالبير كامو باللغة العربية .

كتب

— اصدر سعد الله عريضة « من طرابلس » كتيبا للتعليم الابتدائي بعنوان « القراءة البسيطة » الفه بأحرف طباعية من صنعه . وهذه الاحرف تستخدم صورة وحيدة للحرف مهما كان موقعه في الكلمة ولا تحور خصائص الحرف العربي .

ويقول المؤلف : لايخفى ما لهذا الاختصار من فائدة في تسهيل الطباعة ، فالاشكال المتعددة للحرف يتطلب كل منها جهداً من الطفل المبتدىء ولذلك يمكننا ان نتصور ان توحيدها يؤدي الى توفير في الوقت الدراسي .

— ظهر في جزئين « القانون الدستوري العام » للدكتور ادمون رباط ، استاذ هذه المادة في كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية في بيروت .. عن دار العلم للملايين : يقول المؤلف في مقدمة الكتاب .. هذا وسيط لدراسة القانون الدستوري العام المشتمل على أهم الانظمة السياسية والنظريات الدستورية .

متفرقات

— « كل » عنوان اهم ماينشر في ملحق النهار ، فهو يعني التعريف بجيل ماقبل الحرب العالمية الثانية .

وفيه قدم حتى الآن : فؤاد حبيش، يوسف غصوب ، رئيف خوري ، الأخطل الصغير ، بولس سلامة ، فؤاد الشايب ، البير أديب ، ميخائيل نعيمة ، واخيراً بطرس البستاني وميشال أسمر .

من اهم ماقال بطرس البستاني : كثير من الكتاب والشعراء كانوا ينشرون نتاجهم الادبي في « البيان » وابرزهم بشارة الخوري ، شبلي ملاط ، ايليا ابوماضي ، يوسف غصوب ، أمين نخلة ، الياس ابوشبكة ، الاخطل الصغير ، وهذا غزله ممتاز ، وبعض قصائده الاجتماعية كذلك . اللاط برع في الشعر القصصي الاجتماعي (المال والجمال بين العرس والرمس) ابوماضي برع في الاجتماعيات وقصائد الحنين الى لبنان . يوسف غصوب كان من اوائل الشعراء الذين تجرد شعرهم من المدح وبقية الاغراض الخاصة ، وانصرف الى الناحية الفنية في الشعر ، ابتدأ غصوب رومنطيقيا ثم تحول الى الرمزية ولكن روحه رومنطيقية ، امين نخلة صاحب ديباجة جيدة ، يرضيك بتعابيره وقوة احساسه لكن صياغته النثرية اجود من شعره ، ابو شبكة شاعر رومنطيقي ، حياته وشعره واحد ، لم يكن مقلداً ، ابو شبكة ممتاز .

وقال البستاني ايضاً : أعمل الآن .. الى جانب التعليم والتأليف ، في لجنة الترجمة والتعريب في وزارة الدفاع الوطني ، وهي مني ومن الشيخ عبد الله العلايلي والشيخ فؤاد حبيش ومهمتنا جعل المصطلحات العسكرية كلها عربية فننقلها عن الفرنسية والانكليزية ، لكي يتعلم الجندي اللبناني كل مايحتاج اليه باللغة العربية، ويساونا ضابط كبير يشرح لنا المسائل الفنية التي لانعرفها . .

وأما ماقال ميشال اسمر : اذكر انني كنت في مكتبي في المجلة عندما دخلت علي سيدة هزيلة قصيرة تسأل عن الاستاذ ميشال أبي شهلا ، فقلت لها انه غير موجود . فسألتني اذا كانت تستطيع أخذ بعض المجموعات القديمة من « الجمهور » فأجبتها بكثير من اللامبالاة بل وبشيء من نفاذ الصبر . وقالت انها تريد ان تجمع قصائدها القديمة في ديوان فسألتها عن اسمها فأجابت « ماري عجمي » وما ان سمعت الاسم حتى انتفضت . كانت ماري عجمي في ذلك الحين ، اسماً كبيراً كما لو قلت اليوم سيمون دوبوفوار . . وأخذت اتالغ في الحفاوة حتى اعوض عن عدم اكتراثي السابق .

معارض

بفن الرسم الزجاجي الذي تجلى في متحف سرسق ، انتهى للوسم الفني الحالي في لبنان التي كان حافلاً بمختلف المعارض والمتنوعات ، ونادراً ما شهدت صالات العرض البيروتية مثل هذا العدد من المعارض . . بيع الكثير من اللوحات والتماثيل . . من اهم الفنانين الذين اشتركوا في هذه المعارض : بول غيرا كوسيان ـ عادل الصغير ـ جوليانا ساروفيم ـ ايلي كنعان ـ جان خليفة ـ ميشال بصبوص .

يقدمها
غازي
الخالدي

معرض صالة « ايبساس » :

مجموعة من الفنانين الشباب يجتمعون في معرض واحد ، ولأول مرة .. في صالة « ايبساس » في الشهر الماضي ، ان هذا التجمع له أهمية الخاصة .. حيث يقدم هذا المعرض أكثر من تجربة ، ويطرح أكثر من مشكلة من خلال أعمال عديدة لفنانين يمارسون تجربة الفن بجدية واضحة.

كما أن أكثر الاعمال المعروضة في حدود خط المفهوم الواقعي أو من الوحدات المستوحاة من الواقع ..

وقد تعود جمهورنا أن يرى الفنانين يعيشون في عزلة تامة عن بعضهم وعن الناس .. يعمل كل واحد منهم بصمت وسرية في مرسمه المغلق عليه وحده .

ان هذا التجمع بادرة طيبة للخروج من الاستغراق في العزلة والنرجسية والفردية المطلقة ، والعودة الى العمل الجماعي حيث يتعاون الفنانون في مجال العرض المشترك على الأقل.. فيتاح للجمهور أن يرى أكثر من اتجاه في معرض واحد.

ثم ان فائدة المعارض الجماعية تبدأ من نقطة هامة هي محاولة المحافظة على مستوى معين بين جميع الفنانين العارضين، فتخلق هذه الفكرة نوعاً من التنافس الشريف

بين الفنانين ليحافظ كل فنان على مكانه الطبيعي بين زملائه ، وهذا أكثر مايفيد الانتاج الفني ويرفع من مستواه .

أما عن العارضين أنفسهم :

خزيمة علواني :

ان التكوين في العمل الفني لا يأتي عن طريق الصدفة ، فاذا وضعنا « عيناً » في هذا المكان لا يمكن أن نبحث عن شيء ما يوضع في الجهة المقابلة أو المعاكسة .. ليرد عليها أو ليوازنها ..

لذلك يلاحظ بعض التصدع في مفهوم التكوين عند خزيمة بحيث يمكن ببساطة حذف أي جزء من اللوحة دون أن يهتز التكوين أو يتغير توازنه .

رغم أنه حاول أن يوهم بالحبكة ، في خطوط رفيعه عائمة على وجه اللوحة حدد بها بشكل زخرفي مسطح علاقات غير ناضجة في لوحته الزرقاء الكبيرة .

ان الحس اللوني عند خزيمة حس غني ، لولا هذا الطابع الزخرفي الشاعري الأنيق الذي أضفاه على الساحات بخطوط وتشكيلات جاءت مفتعلة بعض الشيء .



تكوين — خزيمة علواني

ونحن لا نريد أن نصنف اتجاهه هذا أو مدرسته — ان كانت تسمى مدرسة — كما جرت العادة لدى بعض مذاهب النقد تسهيلا للفهم والتحليل ، أو تعقيداً له لا ندري ، لأن العمل الفني المبتكر له فرديته وليس من السهل أن ينتمي الى فصيلة معينة أو يخضع لنفس المبادىء التي تحكم نوعاً من الانتاج .

احمد دراق الساعي

يقول جين هيليون : لا يمكن قياس بساطة الصورة بالعدد القليل من العناصر التي تدخل في تركيبها ، ولكننا نقيس تلك البساطة بمدى السهولة في التوغل في الصورة وتعتبر هذه مسألة استمرار .

هذا الكلام يكاد ينطبق الى حد ما مع اعمال احمد .

ان احمد يقي تجربته ، ويحاول ان يعمقها ، وهذا واضح من تناوله المواضيع التي يعالجها ومن طريقة الحس اللوني الذي تحمله اعماله ، والبساطة كما يقول هيليون ليست في عدد الوحدات الموزعة في اللوحة وكان بمدى سهولة التوغل فعلا في اللوحة .

ان ابسط مدلول يمكن ان تشعر به امام اللوحات هو « المحبة » .. المحبة لكل شيء .. للناس .. للطبيعة .. للطير .. للألوان ..

اما الحلول التشكيلية التي يطرحها فلا تزال في حدود الاطار الذي رسمه لنفسه من زمن بعيد .. ولم يخرج عنه .. لا ندري هل هذا تعصب ، ام توقف .. ام ايمان بالتجربة .. واصرار على تعميقها .

فاتح المدرس

الانسان باحلامه وآماله وآلامه وكل تناقضاته حلوها ومرها ، تعيش في أعماق وجدان الرسام ، يضع كل احساسه مرة واحدة في اللوحة .. مع توتر انفعالي كبير .. دون رقابة ذهنية منظمة .. بحيث تأتي اعماله وكأنها جزء من حديث له .. او جزء من احلامه ، مليئة بالحياة والحرارة والحس الانساني ..

الا ان المشكلة ليست في هذا ، لأن

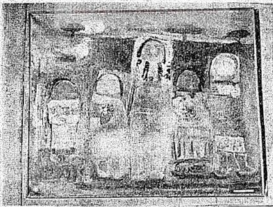
الحس هو من أهم مميزات ، المشكلة عنده في عملية اصراره على ان تكون جميع احاسيسه وعواطفه وحرارة وجدانه آتية عن طريق شكل معين ، هذا الشكل هو الطفل !

ونحن لاننكر مدى الانسانية التي يمكن أن تمنح من خلال رسم طفل برىء ، ولكن على رأي جروس: ان من الخطورة بمكان ان يعجب المصور اعجاباً فوق الحد بأي طراز يتخذه مثلا أعلى له والا فسينتهي به المطاف الى تقليد شكليات هذا الطراز وسينتهي حتماً .

ونحن لا نقول ان الرسام سينتهي ، لأن ارضيته ، غنية ، وأصيلة ، وعميقة الجذور .. ونحن اصلا لايمكننا ان نطلب الى المصور ان يرسم كذا .. او يلغي كذا ..

لأن النقد لايمكن أن يصل في يوم من الايام الى عملية تحديد طريق معين للفنان ، ولكن مهمة النقد هي التحدث بما هو واقع فعلاً .. لا بما يجب أن يكون .

في لوحته الجديدة «الشيء والارض» استعمل الفنان لوناً جديداً رطباً هادئاً من فصيلة الالوان الرمادية الخضراء الباردة لاتقل حساسية عن الوانه الحمراء الدافئة المعروف بها ، الا ان المعالجة لم تتغير بالنسبة لنا من حيث المردود الحسي رغم تغير



الشيء والأرض

فاتح المدرس

اللون الاصلي وهذا مما يؤكد اصالة الفنان وعمق احساسه باللون .

إذن فاتح غير ملتزم بشكل معين، ولا بلون معين ولكنه ملتزم حتماً امام احساسه بالانسان والحياة ، وهذا الالتزام هو الذي نحاول ان نبحث عنه في كل اعماله .

نعيم اسماعيل

ليس ما يميز اعمال نعيم في التصوير هو الزخرفة التي يستعملها، ولا اللون الصريح، ولا نوع التكوينات التي يلجأ اليها ، ولكن الجو العام المطل من اللوحة ، جو الاشراق ، جو التفائل ، جو الشرق المضيء . . هذا الجو الذي يكاد ينفرد به نعيم عن كثير من الفنانين التشكيليين عندنا، اما عن الزخرفة وعن الالوان فقد عودنا عليها منذ زمن بعيد ، يحاول ان يؤلف في لوحاته تكوينات متشابكة لارتباطات زخرفية شرقية احيـــاناً ، ومستحدثة احيـاناً أخرى ، اما اللون فهو كما قلت صريح غير مركب ، يعتمد على البساطة وعلى التوزيع الهندسي المجدد لكل مساحة بدقة تامة .

لوحته الجديدة « جسر في انطاكية » تعتمد على ثلاثة خطوط اساسية تلتقي عند جذع الشجرة المطلة باصرار اسفل الجسر . وعلى غير عادة الفنان في اعماله كلها ، عندما يصر أن يملأ اللوحة كلها بالزخرفة وبالمساحات المحددة والمؤطرة بخط او بلون ، يلجأ هذه المرة في هذه اللوحة الى تشكيل مساحتين كبيرتين في منتصف اللوحة ، ويحصر كل الزخارف على جانبي هاتين المساحتين .

وهذا في الواقع اقرب الى فهم طبيعة الشرق البسيطة والصريحة ، وكلما ازدادت المساحات اتساعاً كلما كان الاحساس مريحاً .

لؤي كيالي

ان مشكلة لؤي انه لا يعاني مشكلة، وعملية الانتاج بالنسبة له صارت عملية استمرار لدراسات قديمة ، واسكتشات سريعة رسمها في رحلاته الى الساحل . .

مر لؤي في ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : عندما وصل من روما حاملاً معه دراساته هناك ولوحاته ،

كان عنده الخط الرفيع الذي يحصر شكلاً ما ينفذ من خلال ارضية سوداء مغطاة بالزنك الابيض الموشح بقليل من التربانتين الذي يحمل اثار اللون الخفيف .

المرحلة الثانية : بدأ يحاول تكثيف اللون « التربانتيني » ويضعه في جهة معينة من الوجه او الايدي ليوحي بالكتلة كما فعل في بورتريه السيدة ذات الاصابع الجميلة في آخر معرض خريف اشترك به في دمشق .

المرحلة الثالثة : وصل الى تشكيل لون عام شفاف يوزع على جميع انحاء الجسم ، ويضع الى جانبه لوناً آخر مضاداً ، ليؤكد المساحة الاولى الاكثر اهمية . كما في لوحته « الوجوه الثلاثة » .

وفي المراحل الثلاث لم يتغير في الحلول الداخلية شيء ، لا في الخط ، ولا في المفهوم العام للشكل .. ولا في التكوين ، ولا في الحس العام المشع من اللوحة ، ولا في المواضيع التي طرقها .

كانت محاولاته للتطور مقصورة على مدى تمييع او تكثيف التربانتين مع اللون .

ان الكيالي حفظ اسلوباً معيناً وسار عليه ، وحاول مخلصاً ان يطوره ، ولكن حفظه للحلول التشكيلية التي قدمها اول مرة واعجب بها الجمهور آنذاك تكاد لا تفارقه حتى في لوحته « من اوراد » التي يعرضها في هذا المعرض ، وهي بهذه المناسبة من لوحاته الجيدة التي ادخل فيها لوناً جديداً على اعماله .. الا ان حلوله هي .. هي لم تتغير .

هل هي عملية خوف من الانتقال الى مرحلة جديدة ينسى فيها اسلوبه ويضيع فيها شخصيته ، ام هي عملية تجمد امام شكل معين .. وتلبية لرغبة جمهور اعجب باسلوبه في فترة من الزمن .

ان الاستغراق في شكل معين ، والايمان به كحد مطلق للتجربة الحسية هو اخطر ما يمكن ان يواجه الفنان التشكيلي ، ينقلب عند ذلك من فنان تشكيلي الى فنان شكلي .

طالب اليازجي :

ان اللون عند طالب لون له طابع خاص ، يذكرني باعمال الفنان سوتين حيث يدرك الانسان ان هناك عمليات

بيالي بالشكليات والتأنق التقني في الفن .

وفهمه للشكل فهو مبني على اساس التكتيل الذي يخـــدم مضموناً انسانياً فالكتلة الى جانب الكتلة مبنية بشكل كأنها تستلهم وجودهـا من جارتها ، وكلاهما يشكلان معاً قوة .

وهو بالتالي يعاني احساساً ادبياً معينا في الوجوه ، حيث تلتقي في لوحة «استراحة صياد سمك » عيون الجالسين المتكتلين مع عيون القطة الجالسة بحذر اسفل الكرسي . نفس الخوف .. ونفس القلق .. ونفس الذعر ..

كأنه يقول رأيه بموقف الانسان من آلية العصر الحديث .. حيث لا يلجـــأ للانسان الا الانسان نفسه .



استراحة صياد السمك

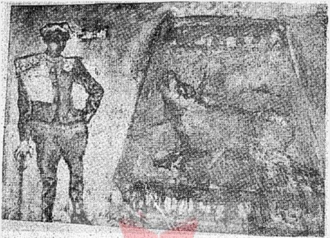
طالب اليازجي

تركيب ومزج طويلة تمت على « الباليته » قبل ان تصل اللمسة اللونية الى اللوحة .

هـذا اللون لون شرقي بحت ، فيه سخونة الآجر ، ودفء الأرض ، وكنت اتمنى من مدة ان التقي باعمال هذا الانسان لانه كما يبدو من اعماله يملك طاقة حقيقية للتعبير .. ويرسم بطريقة فيها كثير من الصدق والبساطة والجرأة .. دون ان

فيصل عجمي :

ان الجو الذي يعيشه فيصل في اعماقه جو دافيء ، وفيه احساس جميل .. بقي ان ننتظر منه ان يعيش البيئة المحلية ، ويتفاعل مع الوانها واشكالها ليعطي شيئاً جديداً غير الذي قدمه في هذا المعرض عن اسبانيا .



من اسبانيا — فيصل عجمي

هذا مع التأكيد بان المعالجة التي قدم بها اعماله كانت ذات طابع خاص به، وخاصة من ناحية اللون الترابي الحار الذي يسيطر على اكثر اعماله .. والفهم العام للمشاكل الشكلية عنده ناضجة وخاصة في تحليل شكل « الثور » في اللوحة الصغيرة .

جوليان قطيني :

فوجئت وانا أتطلع الى اعمال جوليان بهذا الاسلوب الجديد الذي طلع به علينا. فقد سبق ورأيت له اعمالاً غاية في التجريد واطلاق حرية اللون ، ولا يمكن طبعاً ان تسمى اعماله الجديدة عملية تقهقر او عودة ولكنني اسميها عملية بحث جاد عن اسلوب خاص به .

ولعل اجمل اعماله اللوحة التي تشعر خلالها بجو سيريالي بديع فيـــه روح الاسطورة ، اتذكر وانا اراها اعمال الفنان المصري المعروف عبد الهادي الجزار ، واقصد لوحته « فتاة حمراء مضطجعة » !

سعيد مخلوف :

سبق ان قلت ان سعيداً يملك طاقة من التعبير ، واحساساً غنياً بخامة الخشب



سعيد مخلوف — نحت خشب

وقدرة جيدة في تطويعه واعطائه مسحة من روحه ، ولكن المشكلة لا تزال قائمة بالنسبة له ، ففي هذا المعرض بدأت اشكاله تميل الى الزخرفـــة والى التأنق ، والى المبالغات الشكلية دون البحث وراء قيمة معينة كما كان في اول أعماله .

لماذا ؟

لماذا لا يعود سعيد مخلوف بكل تواضع

الى دراسة النحت دراسة جدية ، ويحاول ان يطلــــع بكثير من الصبر على اعمال المثالين العالميين المعاصرين والقدامى ليرى من خلال تجاربهم كيف عالجوا (الفورم) أي الشكل ، وكيف فهموه !

واقترح ايضاً ان يمارس الرسم مع النحت .. لأن عملية الرسم متممة للنحت ، واساساً له :

والنحت كما يقول هنري مور : وسيلة بطيئة للتعبير ، وانا أجد في الرسم وسيلة تنفيسية مفيدة لبعض الافكار التي لا اجد متسعاً من الوقت لتحقيقها في النحت .

معرض الدكتور قتيبة الشهابي

عرفنا قتيبة رساماً قبل ان نعرفه مصوراً فوتوغرافياً ، وكونه رسام سابق يوضح الاهمية الخاصة التي ينفرد بها معرضه الفوتوغرافي .

لأن عملية التصوير اساسها ثلاثة أمور : الحس ، والعين ، والآلة !

اما عملية الفن التشكيلي .. ففيها مشاكل .. وامور .. اكثر تعقيداً من مشاكل التصوير ..

وقد استطاع الدكتور شهابي ان يستفيد الى حد بعيد من ثقافته وخبرته وتجربته في الفن التشكيلي في الزوايا واللقطات واختيار المواضيع واخراجها بشكل يدل بالفعل على حساسية الفنان التشكيلي وفهمه للتكوين .. وللعلاقات التشكيلية في الصورة الفوتوغرافية .

اما العمليات التقنية من تكبير وتحميض وتصوير .. واستغلال امكانيات الصدفة في عمليات الطبع فهذه امور تعتمد على الخبرة والتجربة الطويلة والدراسة .. التي اخذ شيئاً منها من قسم التصوير الفوتوغرافي في مركز الفنون التطبيقية الذي هو احد خريجيه .

تعليق على رأي « المعرفة »

كتب تحرير « المعرفة » في العدد الماضي تعليقاً على مقال لي حول معرض الازاهير الذي اقيم في دمشق مؤخراً .. احب ان اقف عنده لحظة :

اولاً : اشكر التحرير لاهتمامه بقضايا الفن التشكيلي ، وهذا دليل آخر على لقاء مشاكل الفن التشكيلي مع الأدب والموسيقى وسائر الفنون .

وهي ايضاً لفتة كريمة ، وبادرة طيبة تجعل من قضية النقد عملاً ايجابياً فعالاً .

اما فيما يتعلق بموضوع « البورجوازية » فلم اكن اقصد من كلامي حين تكلمت عن موضوع معرض الازاهير ، ان الازاهير موضوع غير انساني ، ولكن القصد كان عن موضوع اقامة المعرض نفسه ، والطريقة التي اعد بها ذلك المعرض .. وكان من الممكن ان نلجأ الى تعبير آخر غير « البورجوازية » لانها بالفعل كلمة استهلكت كثيراً في مجالاتها وفي غير مجالاتها .

واما عن موضوع معارض فلسطين والجزائر والثورة السورية .. والفن الذي تقترحه المعرفة . فالموضوع له عدة ابعاد :

● اولا : يمكن طرح فكرة أي موضوع وطني على الفنانين دون اكراه احد على تبنيها ، لأن الفن لايمكن أن يأتي من الخارج ، فاذا لم يحس الفنان نفسه بالقضية ، وتنبع من اعماق نفسه لايستطيع أن يعبر عنها بصدق !

● ثانياً : نطرح الفكرة ولا نحدد الاسلوب أو المدرسة التي يجب أن ينفذ بها الموضوع ، فالفن التشكيلي من أهم مقوماته الحرية الفردية ، وكل شيء له طابع فردي ليس من السهل وضعه تحت اقسام معينة أو اخضاعه لقوانين أو مبادىء ثابتة لاتتغير .

اذ لايمكن ان نقول للفنانين الكلاسيكيين ، والرومانتيكيين والتأثيريين والوحشيين والتعبيريين والتجريديين والسيرياليين والدادائيين ارسموا جميعكم موضوع كذا بطريقة المدرسة الواقعية !

● ثالثا : ان اللوحة التي نشرت في المعرفة – وهي من الرسوم البلغارية – اقرب الى الاتجاه التوضيحي التسجيلي (*) ، بينما ليست مهمة الفنان ان يسجل الاحداث التي تجري حوله ، والا سمي مؤرخاً لافناناً مبدعاً . فالسينما قد سبقت جميع وسائل الاعلام « لتسجيل » كل احداث الحياة والناس والطبيعة بشكل وصلت فيه الى حد الاعجاز .

« ان الفن على رأي (دكتور بسيوني) ليس تسجيلاً لما تراه العين في الطبيعة من اشكال وانما هي عملية توحيد لكل القوى الادراكية في نظام متزن ، وان الاستجابة الانفعالية للطبيعة لاتخلق الفن مالم تتكامل مع ميل نحو التركيب الخيالي ينظر اليه كغاية في حد ذاته » .

● رابعاً : ان الطبيعة كانت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر « غاية » في حد ذاتها بالنسبة للفنانين ، كانوا يتفننون في نقلها حرفياً ، بينما اصبحت اليوم « واسطة » يستفيد الفنان من معطياتها ليخلق عملاً فنياً ليس له علاقة بالطبيعة وقد لا يشبهها ، يحمل رأيه ووجهة نظره من خلال لون أو خط او مساحة ، دون النظر الى ماذا يشبه ، او هل يطابق الشكل الأصلي ام لا ؟

● خامساً : ان اعمالاً من نوع اللوحة التي نشرت كنموذج للفن الذي تقترحه « المعرفة » يمكن ببساطة ان يرسم مثلها اي فنان درس الف باء الفن (*) بسرعة فائقة ، ولا تكلفه الا ان يستعيد خبراته في فهم التشريح لجسم الانسان ، يرسم

(*) المعرفة اقترحت الموضوع ، لا الشكل . وهي تقترح بالطبع ولا (تفرض) — التحرير

(*) لانظن ... أبداً !

كما يرى دوناان يعمل ذهنه في البحث عن خلفيات فكرية او حضارية او عن تكوين او ملمس او خط او علاقات تشكيلية .

وتكون النتيجة لوحة اعلانية تفيد في الدعاية ضد الحرب.. اما ماذا تحمل من قيم فنية تشكيلية حقيقية فهي ليست أكثر من مجرد اعلان ناجح.

الفن التشكيلي ليس مجرد تقرير او اعلان او رواية قصة يقدمها الفنان عن معركة او مشهد او حادثة معينة، انما هو رأي وحدس وكشف ورؤية وبناء جديد للشكل على اساس فهم جديد له .

كيف نقبل في العلم حقيقة وصول الانسان الى القمر... !! ولا نقبل في الفن حقيقة تطور الفن التشكيلي الى لون مطلق والى مساحة مطلقه ، والى تكوين مجرد عن حادثة او موضوع ؟

ونطلب الى فنانينا أن يرسموا كما رسم «دافيد» و « الجر » قبل مئة سنة من الزمن ؟(*) .



(١) لامناقشة . فالمعرفة لم تستطرد الى مثل هذا ابدا . ان السيد الخالدي كان يقترح موضوع (فلسطين) الرسامين . فاقترحت (المعرفة) أيضاً موضوع (الثورة السورية) مرفقاً بفكرة نموذجية لثورة بلغاريا — دون فرض الشكل — وكان هذا واضحاً في دعوتنا الى الاقتباس عن مختلف فنون الشعوب دون ماحاجة الى جر الموضوع نحو (الوصول الى القمر) وتعميم الموضوع ، في دعوة نحن متفقون عليها جميعا .

مع تيارات الفكر العالمي

يقدمها: فؤاد الشايب

تسكع الثورة الكوبية في طريق التفتيش عن عقيدة وخطة ــ الثورة الفريدة التي انتصرت بالزحف المتعاظم حتى النصر خلال ستة اعوام ــ بدأت الثورة بالاصلاح، ثم دفعتها الأحداث الى تخطيه نحو التبديل الثوري ــ محاولة وضع الماركسية اللينينة في قاعدة الايديولوجية الكاسترية ، وتناقض النظر والعمل في الممارسة الاشتراكية ــ ماهي حوافز تطوير الحركة الكاسترية من اصلاح الى ثورة ، ومن اعتدال الى تطرف ــ ماهي مفارقات هذه (الفوضى المنظمة) ــ ؟

لعل أهم ماميز (ثورة الفـــلاحين والطلاب) التي قادها المحامي البورجوازي الثائر فيدل كاسترو ، أنها نشأت حقاً في حضن الشعب، لا في مخابىء المدن وأقبيتها السرية. وقد ظلت الثورة تتعاظم في سيرها وتقدمها انطلاقاً من منطقة (سييرا) الجبلية الفقيرة في الجنوب الى الشرق ، حتى العاصمة هافانا في الشمال الى الغرب، وتطهر الارض التي تطؤها شبراً أثر شبر ، ويوماً بعد يوم، حتى دخل جيش الفلاحين العاصمة المترفة، بعد أن ساندته معظم القوى الوطنية ومشت في قيادته أو في ركابه .

مولدها في الارض الفقيرة، وفي الهواء الطلق، بين الجبال والغابات والصحاري، وهدفها الأرض الطيبة الغنية ، **حيث يعيش الظلم الى جانب الثروة سيدين مطلقين ومن حولهما ضحايا الظلم والثروة: المواطنون .**

انها بصورة ما ، هجرة ، والهجرات كثيراً ماتحـــدث تسللاً وتدرجا ، فاذا ماأخذت هذا الشكل الجماعي ، أعلنت مهما كانت صامتة عن ضمير تمرد ورفض ، فاذا ماشاها العنف، تكونت في دوار عاصف يدعى ثورة .

لقـد اشتهرت ثورات العالم الامريكي اللاتيني ، بانها ثورات يقودها عسكريون اشداء مغامرون، لايلبثون ان يقبضوا على عنق الحكم ،للحق أم للباطل ،ويأتونه من يمين أو من يسار ، فيفلحون او يتعثرون فيسقطون . بينما تتفرد ثورة كوبا بأن زادها مواطنون لم يعرفوا قبل الثورة سوى المناجل والرفوش سلاحاً . ولم يفقهوا من الانظمة ، سوى نظام الوقوف صفاً واحداً ، في غارات تقليدية على حقول اقصاب السكر . ولعـل عفويتهم كانت عنصراً اساسياً من عناصر جرأتهم وقوتهم، وراء قيادة ، لم يكن يُعلم ماذا كان يدور في رأسها حين قدمت صدرها للقيـادة . انما نعلم الآن أنها قيادة كانت تعي منذ اليوم الاول _ على الأقل _ أن لاسبيل للقضاء على روح الانقلاب، الا بالثورة. والثورة حركة قاعدة ، لاحركة قمة . يستوي في نظرهـــا ، المستغلون والاقطاعيون ، والمحتكرون ، واولئك المحترفون الذين يصنعون الانقلابات .

قلنا من قبل(*) أن (جيش الثورة) كما سماه الرئيس كاسترو ، افراده فلاحون بقيادة طلاب، ومشاركة مجموعات غير قليلة من البورجوازيين المثقفين ، وأصحـاب المهن الحرة وسواهم ، ممن يعـد القائد الاول أحد ابناء طبقتهم .

أما الفلاحون فقد عادوا بكثرتهم الى ارضهم ومناجلهم، بعد ان وضعوا اسلحتهم الخفيفة في مستودعات العاصمة ، وأما من اهلته الثورة لممارسة التبعة السياسية ، فقد انضم الى (الميليشيا) التي ستكون الثورة بحاجة الى حمايتها أيام الشدة.

(*) جولة الشهر _ العدد ٣ : _

وفي الحكم ، في الهافانا ، منذ الشهور الأولى من عام ١٩٥٩ لم يكن ثمة سوى الرئيس كاســــترو وبعض المثقفين الاشتراكيين — معتدلين ومتطرفين ، الى جانب الطلبة ، وبعض البورجوازيين من المدن : خليط قيادي عجيب لا يلبث أن يتفكك ، ويعيــــد صياغة نفسه ، تحت تأثير عاملين اساسيين : شخص القائد ، وطارىء الحدث السياسي .

كان قواد الميليشيا قبل عملية النزو من الشاطىء الامريكي عـام ١٩٦١ — يصرحون ان ثورتهم يمكن ان تكون اي شيء ... إلا شيوعيــــة . وكان الحزب الشيوعي قد رفض التعاون مع (جيش الثورة) بحجج ايديولوجية واستراتيجية، قد لا تُنقض نظرياً ، ولكن القائد لم يكن خلال زحف الثورة ، مستعداً للجدل فيها فتخطى الحزب ولم يكترث لجفوته . بقي ان القائد الظافر يجب أن يقنع بتسلم زمام حكم مطلق ، يؤازره في تحمل اعبائه القاصمة ، بعض الرفاق ، رفاق المسيرة النضالية ، وبعض الطـلاب الذين كانوا يساعدون في فتح ابواب المدن لجيش الثورة . وهؤلاء كلهم ، لم يكونوا بلا خبرة في ادارة الدفة فحسب ، بل كانوا كما قال كاسترو ، بلا ماض عمالي او فلاحي ... ولم يكن القائد نفسه سوى شـاب من عائلة موفورة الرزق ، بورجوازية ، لا تخلو مكتبته كحـام ناشيء من بعض مؤلفات فلسفية واجتماعية وتاريخيـة ، يجب ان يكون بينهـا كتب عن حركات الاصلاح ، والثورة الفرنسية ، والاشتراكية في القرن التاسع عشر ، وبعض مطبوعات ماركسية لينينية وسواها .. إن شأنه شأن أي مثقف اسيوي او افريقي ، او امريكي لاتيني في القرن العشرين .

وهكذا ، فلكي نجيب عن الاسئلة التي طرحناها فيما سبق — الحولة الماضية — حول المبادىء التي يؤلف مجموعها **عقيدة**، والاساليب والمسوغات التي يؤلف مجموعها خطة عمل ، في ممارسة الحكم الثوري تماته . يجب علينا أن نحيط ببعض الاحـاطة ، بالخلفية التي انطبعت فوقها صورة الحكم الكاستري وهي كما اسلفنا ، خليط من ألوان سياسية واجتماعيـة وايديولوجية

وعاطفية ، جمعتها الثورة إبان الانقضاض ، ولن تجتمع ثانية ابان الحكم واستتباب الامر.

القائد يملأ الاطار

ليس يهمنا شخص الرئيس القائد ، الا بقدر ما يساعدنا على وضع الأجوبة المنشودة . وطالما ان الفلاحين وهم قوام جيش الثورة لا يحكمون وليس بوسعهم ، ان يحكموا وان الطلبة الذين تملأ لجانهم مقاعد الحكم ، لا يمارسون اي سلطة الا عبر ارادة كاسترو المباشرة . وطالما ان الحزب الشيوعي ، وهو اكبر هيئة منظمة مثقفة في البلاد ، قد وضع نفسه على هامش الثورة ، الا من صادقها على هامش ايضاً وطالما ان عمال المـــدن البروليتاريين الحقيقيين ـ لا تثق بهم الثورة ، لأن ترف المدنية قد افسدهم ، بل انهم لم يكونوا جنوداً في طلائع جيش الثورة ، بل لم يكن دورهم سوى دور الرديف لا الرائد خلافاً لما درجت عليه الثورات الاشتراكية فان نتيجة واحدة يمكن بلوغها بالاستنتاج ان جهاز الحكم في ثورة كوبا ، لم يكن بالواقـــع سوى الرئيس كاسترو ورفاقه حصراً ، والى ان تنقيف دور الشعب في الحكم او وراء الحكم ، فليس الا التقرير بأن الحكم دكتاتوري ، يمارسه فرد مطلق الصلاحية كامل المسؤولية . واذا كانت حجة الحاكم المثالي وهو هنا ضرب من ضروب (العادل المستبد) ، ان حصـاد الحكم ليس لفئة او لطبقة ، او لعائلة ، او حتى لمنظمة سياسية ـ حزب او سواه ـ وصدقنا الحاكم بحجته ، وكان صادقاً : بقي ان معنى الديموقراطية مثلوم في هذا الشرع باعتبار انها ليست حـــكم الشعب للشعب فحسب بل بالشعب ايضاً وفوق كل شيء اذ ليس من حاكم لا يزعم انه في خدمة الشعب والصالح العام . وليس من مقياس لهذا الزعم الا بقدر ما يكون الحكم في يد الشعب نفسه ، بشكل وباسلوب يسوغان ممارسة الحـكم تسويغاً شرعياً .

فاذا سلمنا مبدئياً بصحة هذا المفهوم الديموقراطي ، كان لا بد من اخراج حكم كاسترو من حيز الديموقراطية ، وان لم يكن مقترحاً له ان يخرج من حيز (خدمة المصلحة العامة) ، فهو اذن يحـكم للشعب حقاً ولكنه لا يحكم بالشعب .

يبقي على الباحث او المراقب ، اما ان

يدمغ حكم كاسترو بالاستبداد وارتجال الهوى ، وتحكيم الفوضى ، كما يريد خصومه . او يعذره باخلاصه ، ويسوغ اعماله بحسن نيته ، وانه تسويغ ضعيف في عالم جماهير العصر ـ او يعترف بان (جيش الثورة) المنتصر ، بفلاحيه وطلابه ليس أداة صالحة للحكم والنهوض بتبعاته ، مهما اسرفنا في التفاؤل ، وسلمنا بنقاء ضمير الشعب ، ولا بد من مرحلة طويلة ، يمر بها هؤلاء الثوار ، ليتسلموا زمام المسؤوليات . وهذا ماتصر عليه الكاسترية اصراراً شديداً ، في الاكثار من بعثات الدولة ومنحها الدراسية السخية .

وقد يكون لدى الرئيس القائد عذر آخر ، لا يقل حجة عن اعذاره الأخرى ، وهو انه لو وضع الثورة الظافرة بين ايدي رجاله واعوانه الذين رافقوه وواكبوا الثورة من اقصى اليمين الى اقصى اليسار ، ومن فلاح السييرا ، الى عامل الهافانا والف من هذا الخليط العجيب حكماً برلمانيا ديموقراطيا ، على الأسلوب الذي تفتي به واشنطن ، ولندن ، مثلاً ، لكان على الثورة أن تجابه موجات من اللجج والخصومة والمعارضة ، لاتلبث أن تودي بها ، وتهدر سنوات طويلة من الشقاء ، والحرمان والتضحيات الجسام . يضاف الى هذا أن الثورة ، مهما وصفت بغموض أهدافها المذهبية والفكرية ، أثناء زحفها ، فلم يكن بالغامض لدى أحد من جيشها اوقادتها أن الاستغلال الرأسمالي ، هو الهدف الاول في مرمى النار ، وأن اي نظام يدعم الاحتكار والاستغلال ، مباشرة أم بالواسطة ، عمداً أم عفواً ، يجب ان يكون سيئاً ، غير ديموقراطي ولا شعبي.

لسنا نرجع فيما نقرره من واقع ، في توضيح ملامح الثورة الكاسترية ، الى أقوال القائد ، أو كتبه ونظرياته . بل هو حصاد ماتوافر لنا من دراسات وبحوث متناقضة في موضوع الكاسترية ، فمنها ماوضع كاسترو موضع البطولات الخالدة في تاريخ كفاح الشعوب ، ومنها ماتزل بالرجل الى منزلة الممثلين الفاشلين . وليس الا بعد نيسان من عام ١٩٦١ إثر فشل محاولة الغزو الموجهة بالكوبيين المهاجرين ، من الشاطىء الأمريكي ،

يعرف رأي عام عالمي واسع باتفاف الشعب الكوبي حول ثورته ، واستماتته حقاً في حمايتها . ولا فرق ان يكون هذا الرأي العام ، معادياً للكاسترية أم صديقاً لها .

أما وأن الرجل هو عضل الثورة كما هو دماغها ، ومصدر وحيهـا ، لايتراجع ولا تفرض عليه ، حتى الفكرة الصائبة ، والحجة الدامغة ـ كما يقول فيه اصدقاؤه ـ فلننظر إلى بعض افكاره وآرائه وتصوره للثورة والحكم فيما وصلنا من قول له أوعمل . وعلينا في البدء أن نحترس من الظن بأنه رجل فلسفة ومذهب : أوصاحب محاولة في انشاء مدرسة ، وتصنيف نظرية ، فهو ليس نهرو في بلاده ، ولا ماوتسه تونغ ، بل من المؤكد أنه اقل حظا من ثقافة الفلسفات الاجتماعية والسياسية من زملائه في القيادات الافريقية امثال سيكوتوره ، ونكروما ، وسنغور ، الذين سبق ان عرضنا نظرياتهم ، وحللنا محاولاتهم الفلسفية والمذهبية في اقتباس الاشتراكية وفهمها .

ولعله لايكترث لأن يكون حكيما مثل (نهرو) ، وشاعراً مثل (ماو) واديباً مثل (سنغور) وخطيباً مثـل (سيكوتوره) ولعل كتاب الظلم الذي قرأ فيه شقاء الشعب في جبال السييرا ، وفي مزارع القصب بجوار الهافانا ، ابلغ لديه حجة وارشاداً من (رأس مال) ماركس ، وشروح لينين عليه . ولقـد اعلن الرئيس كاسترو في احدى خطبه أنه قد تأثر بالماركسية اللينينية ، اكثر مما كان يظهر به أو يريد الظهور . ويبدو أنه اطلق هذا القول بعد محاولة الغزو من الشاطئ الامريكي عام ١٩٦١ وقد مرت سنتان على الثورة ، ليسوغ انطلاقه الحاد نحو الاشتراكية .

ولم يكن من قبـل في أي قول له أوعمل — في حدود مانعلم — مايفهم منه أنه ماركسي أويريد ان يكون .

كل مافي ثورة كوبا ، صنعتـه يد كاسترو وحدها بلا مراء . لولاه لساحت الثورة في حقول كوبا ، كما تسيح مياه الفيضانات فلا تلبث أن تغيض وتجف . ولولاه لما قام حكم ثوري بعد بلوغ الزحف

مداه ، لأن الرجل غدا مسؤولا عن كل شيء . وفيما عداه ، فالكل صاحب حاجة وسؤال . ويعرف وزراؤه وجنده واعوانه ان لاحد لعناده ، ولا مرد لمضائه . فان لم يكن صاحب كل مشروع وكل خطوة في تفكير او تدبير ، فلا بد أن تظفر بقناعته ورضاه . وقناعته اول مادة في دستور الدولة غير المكتوب .

وعلى هذا فان اشتراكية كوبا إنما تقرأ في كتابين : كاسترو بالذات ، وهو كتاب قليل الصفحات ، محدود الكلمات ، وكتاب التطبيق العملي اليومي لمبادىء الثورة . وهي مبادىء غدت تكتشف يوماً بعد يوم ، كما قلنا تحت وقع الحدث وتطور التجربة الاستقلالية .

ويمكن تلخيص الكتابين فيما يلي :

أ ـ في البدء وابان الزحف على العاصمة من جبال السييرا كانت كلمات كاسترو الثورية لا تعدو مضمون دعوة الى (الحرية) و (سيادة الشعب) و (حقوق الانسان) (*)، وما يرادفها من كلمات عريضة ، تعني الاصلاح دون الثورة ، كأن الدعوة مزيج من شعارات الثورة الفرنسية ، والاشتراكيات الطوباوية في القرن التاسع عشر ، وهذه تؤلف ثقافة الملايين من المثقفين غير الماركسيين في كثير من دول امريكا اللاتينية واسية وافريقية متسربة عن طريق اوروبة والغرب السياسي عامة.

اما مضمون الدعوة المادي ، فليس يتعدى الاصلاح الزراعي ، كجانب من جوانب الاشتراكية ، كأن تنص بيانات الثورة على ضرورة توزيع الأراضي بين الفلاحين ، والتعويض على مالكيها بما يوازي عشر سنوات من بدل ايجارها .

كذلك في نصوص البيانات الأولى ان عمال حقول السكر يحق لهم ان يستولوا على ٥٥ بالمئة من انتاج الحقول ، وعمال الصناعة في المدن ، على ٣٠ بالمئة من الأرباح ـ نسب لم تنفذ فيما بعد، بسبب استيلاء الدولة على المصانع والحقول معاً ، وتبدل صيغ الفائدة المقررة للعمال والفلاحين من اسهم في الربح الى انصبة محدودة من الأجور والمرتبات .

(١) من خطبة لكاسترو عام ١٩٥٩ (نريد ديموقراطية صادقة لاتغفل حقوق الانسان ، لا خبز بلا حرية ، ولا حرية بلا خبز ولا دكتاتورية فرد او طبقة ، او فئة ، او عائلة ، هذه هي (انسانيتنا) .

ب — يلحظ اعتدال مبادىء الثورة الكوبية ، في اول قانون الاصلاح الزراعي عام ١٩٥٨ . حيث ورد النص على مصادرة الاملاك التي تزيد عن ٤٠٢ هكتار . بينما بدأ الاصلاح الزراعي في دولتين اشتراكيتين عام ١٩٤٥ مثل بولونيا وبلغاريا بمصادرة ما يزيد على ٢٠ — ٥٠ هكتاراً .

ج — كذلك يبدو الاعتدال في تعويض المصادرة ، حيث ورد النص قبل عام ١٩٥٩ على منح التعويض لمصادرة املاكهم ، سندات بفوائد على الدولة بنسبة ٤٫٥ ٪ خلال عشرين عاماً . وانها لفائدة اكثر سخاء من فوائد منحت لاصحاب الأملاك في اصلاح زراعي طبقته اليابان في ظل الاحتلال الامريكي . كذلك فان اجل السندات على الدولة في الصين الوطنية ، حيث جرى اصلاح زراعي ايضاً ، يتدالى اربعة وعشرين عاماً لا عشرين .

ل — تعاظمت الثورة في الحركة الاصلاحية ، في عامي ١٩٦٠ و ١٩٦١ ، مرة عند الالتحام مع الحكومة الامبركية في سلسلة من التحديات وردود الفعل ، ومرة بعد فشل الغزوة المشهورة (*) ففي الدفقة الأولى من العمل الثوري صودرت ممتلكات الشركات الامريكية والشركات التي تسهم فيها اموال امريكية . وفي الدفقة الثانية ، امتد الشركات الكوبية بالذات . بينما لم يرد في اي قول منسوب الرئيس كاسترو حتى عام ١٩٥٨ اي حديث عن التأميم ، سوى تأميم شركات الكهرباء والمواصلات ، بما هو مألوف في البلاد الديموقراطية نفسها .

هـ — تحولت الأراضي الزراعية المؤممة في نهاية عام ١٩٦٠ الى ٦٢٢ تعاونية سكر و ٢٢٠ تعاونية الزراعة المتنوعة وتربية المواشي والدواجن ، و ٥٠٠ مزرعة جماعية ، لتربية الماشية على نطاق واسع . وسواء اكانت الوحدة الزراعية صغيرة او كبيرة ، تعاونية او ادارية حكومية ، فان من خصائص الاقتصاد الزراعي الاشتراكي هنا ان هذه الوحدات تختلف كل الاختلاف عن الكولخوزات والسوفخوزات السوفييتية . لأنها غدت مجرد منظمات ادارية

(*) من خطبة الرئيس كاسترو أمام جثث ضحايا الغارة الجوية التي مهدت للغزو : (ايها الرفاق العمال والفلاحون . هذه هي ثورة الفقراء ، بالفقراء ، للفقراء ..) وسميت الثورة يومئذ بثورة (الديموقراطية الاشتراكية) ...

وليست منظمات انتاجية مستقلة ذات كيان ومسؤولية ، يكافأ فيها الفرد لقاء سهمه الانتاجي ، لا لمجرد انه عامل يستوي ورفيقه العامل الآخر ، في استحقاق أجره كموظف اداري، سواء أكان عمله منتجاً أم لم يكن . ولقد غدا التعاونيون في النظام الكوبي يقبضون رواتبهم ، كالموظفين دون وازع او حافز سوى جهدهم وحماسهم ، واخلاصهم للثورة . والاشتراكية المادية ان لم تسقط من حسابها ، الحوافز المعنوية الخلقية ، فهي إنما تعتمد التنظيم الدقيق ، والحساب المرقوم ، والمكافأة بحسب الجهد ، لا بحسب الحاجة ـ واتباع الحاجة مرحلة عليا أخيرة في مراحل التقدم الاشتراكي . أما المجهود الانتاجي التعاوني ، فلا يمكن أن يستوي فيه جميع المواطنين مهما صدقت نيتهم وصح عزمهم . وان استوى فعن يقين لا عن تسليم ، وبحساب لا بافتراض .

ملامح عامة

سندرس فيما بعد ، صيغاً أخرى للتطبيق الاشتراكي في كوبا ، لنتأكد من أن الاشتراكية الكاسترية ليست ماركسية تطبيقاً ولا تفكيراً . ولا يكفي أن يخطب كاسترو مرة ، طاعناً على رجال الدين الذين ناوءوا حركته ، ومنتصراً للفقراء والمساكين (*) ، ليقال انه ملحد ماركسي ، كذلك لا يكفي ان تمتلىء شوارع الهافانا بصورة لينين الى جانب صورة الزعيم الاستقلالي الكوبي في القرن التاسع عشر جوزه مارتي ، ليقال أن كوبا شيوعية .

فلنوجز الملامح الاشتراكية الكاسترية بالخطوط الكبرى التالية قبل النظر في صيغ التطبيق الاشتراكي ، وما وراءها من آراء وحوافز .

اولا : إنها اشتراكية عفوية، انطلقت بأسلوب فروسي تقليدي ، في الانتصار للضعيف ضد القوي ، في جو من القعقعة وصليل الصنوج ، لتسبح النفوس بمجد الفارس المثالي الجميل .

وبالتالي فقد تخطت الثورة مرحلة التخطيط الاشتراكي الى حيز مايظن إنه (التطبيق الشيوعي) ، باغداق السخاء في

(*) من قول للرئيس كاسترو في احدى خطبه ان (خيانة الفقير هي خيانة للمسيح) .

غير موضعه على العامل والفلاح دون تبديل واقعه ، واكثر — دون تطوير كفاءته الانتاجية ، جنباً الى جنب مع مظاهر العناية به وترفيهه — سنرى شواهد ذلك (*) .

ثانياً : اشتراكية سريعة الانتقال من اصلاحية انسانية إلى اشتراكية المصادرة والتأميم بلا تعويض مع الاستغناء عن مشاركة القطاع الخاص ، والمواهب الفردية ، والخبرات المتمدة ، قفزاً الى جماعية مرتجلة ، تشدها انظمة قاسية ، اتجعل منها ادارات حكومية يقوم عليها أنصار مؤتمنون ، لاخبراء ولا رجال اختصاص ، ان في التقنية اوفي الادارة (**) .

ثالثاً : انها اشتراكية غضبى . تتميز غيظاً ، لاتفرق في اندفاعها المهتاج بين هدف قريب اوبعيد . وبدلاً من أن تأخذ بالقاعدة المنطقية العادلة (من ليس ضدنا فهو معنا) تؤكد بسلوكها القاعدة المعاكسة (من ليس معنا فهو ضدنا) لذلك ، هاجر الالوف من المواطنين خارج البلاد ، وكان اول المهاجرين اصحاب الخبرات والاختصاص ، ولاعبرة هنا للدعاية الكاسترية التي تلاحق الهاربين بأنهم ذيول امريكية . اذ بالواقع أن الفنيين انتشروا في انحاء امريكا اللاتينية كلها، طلباً للرزق والكرامة ، حينما استقبلوا ، لدى اهل اليمين واهل اليسار على السواء .

ومهما يكن شأن بعض الهاربين الذين التحقوا بالغزوة المجنونة على كوبا ، فان السلوك الثوري المهتاج لايمكن ان يسوغه مثل تحكم لجنة الطلاب باساتذتهم الجامعيين عندما ناقش هؤلاء بعض مرتجلات اللجنة مطالبين بحد ادنى من احترام التقاليد الجامعية فقالت لهم اذا لم يطب ذلك لكم فارحلوا ..

ان الثورات التي تضع التبديل الثقافي

(*) يطيب للثورة الكوبية ان ترفع في الشوارع والاماكن العامة لافتات مكتوباً عليها : (هنا الفردوس المؤمم) و (الفلسفة المؤممة) و (ملوك المجوس المؤممون) الخ الخ .

(**) كأن يعهد مثلاً بمركز قيادي حساس في (المعهد الوطني للاصلاح الزراعي) INRA الى طالب في طب الأسنان من انصار كاسترو ، يفاخر — هذا الطالب — بانه يستطيع مصادرة اي مصنع اومخزن بورقة صغيرة تحمل توقيعه — عن رونيه دومون في كتابه : (كوبا اشتراكية وتنمية) .

والاجتماعي هدفاً لها ، لايمكن ان تخفف من اعبائها بفرط الاختلاج والارتجاج ، والحرون ورفس كل ماوراءها. والا فما الفرق بين نظام ثوري ، وحلبة فروسية على الطريقة المكسيكية..!

وعلى هذا ، يمكن اجمال الحوافز والعوامل وراء هذه النوعية من السلوك الثوري بالعناصر التالية : **الدعاية السياسية ، الغضب ، السرعة ، ثم عدم وضوح النظر الايديولوجي أمام الثوار منذ البدء وباستمرار .**

الشواهد والوقائع

فلنستعرض بعض الشواهد والوقائع البارزة في سير عملية التطبيق الاشتراكي كما تصنعها تلك الحوافز والعوامل .

الدعاية السياسية :

في مجال التشويق وتجميل الواجهـــة السياسية ، تذكر الاعمال والمنشآت غير المنتجة ، التي قصد بها النظام الثوري الى تحقيق الرخاء أو الى الايهام به ، كانشاء المستشفيات ، والاندية ، والمدارس ، وبيوت الشعب من طرز جميلة وفخمة — على الطريقة البورجوازية الاميركية —

دون أن تهيأ لهذه المنشآت اسبابها الفنية وادارتها الاختصاصية . وقد الشيء حي كامل للعمال ، يتـألف بيت السكن فيه من خمس غرف . مما يعز على الوف المواطنين انشاء مثله ، بله أنه لايمكن تعميمه على جميع عمال الدولة. يبقى القول أن الانفاق على مثل هذه المرافق سخاء في غير موضعه وصفه الخبراء بالتبذير ، لصفته غير الانتاجية ، ووصفه المراقبون بأنه (واجهة) ليس وراءها حقيقة . ان اي نظام اشتراكي لايمكن ان يبدأ من النهاية. ولا يعقل أن يبنى للعامل الزراعي الذي اصبح تعاونياً ، بيت بخمس غرف ، منذ الأيام الأولى للثـورة عام ١٩٥٩ إلا اذا كان هذا الثوري بورجوازيا — كما يقال — ينشد الاستجمام ، لا مواطناً ينشد الامن والعدل مع وعد صـادق بمكافأة الجهد والعمل . ولقد أتهم كاسترو ُظلماً ، بأنه ذو عقلية بورجوازية يجرب أن يجعل منها اشتراكية هجينة ، والحق ان النظام في ايامه الأولى كان يظن انه بحاجة قارعة الى مثل هذه الواجهات السياسية التي ارهقت الدولة ، ولم يخدع بهرجها أحداً

من قريب او بعيد ، ثم عدل عنها (*) ، او عن بعضها .

وما قيل عن (بيوت الشعب) ، قيل عن (سياحة الشعب) ايضاً . فقد وضعت الدولة وسائل وخدمات ونفقات ضخمة ، للترفيه عن الشعب ، بالسياحة . وكانت مظاهر هذه الخدمات توهم الناس او تريد ان توهمهم أن الاشتراكية نزهة ، وأن الفردوس هاهو ، على الارض ، مؤمناً . . .

كذلك تذكر الدراسات ، افلاس (مخازن الشعب) التي انشئت لبيع حاجات الاستهلاك باسعار رخيصة ـ سعر الكلفة زيادة ١٢ ٪ ـ وخرجت عن دورها ، بسبب نفقاتها الادارية ، وعدم تمكنها من الاستمرار لفقدان معظم المواد التي تستوردها من الخارج ، وكان لا بد ، لكي تستمر من ان تلجأ الى احد سبيلين : إما تقنين المادة ، أو رفع أسعارها ، مما فوت على الناس مباهج (مخازن الشعب) ، بله تكبدها نفقات جديدة تضاف الى نفقات.

كذلك تذكر الحالات التي لم تهرع فيها الدولة الى التقنين ، فوقعت في احضان المجاعة . كأن تسخر (الادارة الثورية) في الصياح بذبح الماشية ـ من سبعمائة وخمسين الف رأس عام ١٩٥٩ الى مليون ومئة الف رأس عام ١٩٦٠ وعام ١٩٦١ ـ فتقرض رأس المال الحيواني ، بدلاً من أن تمده للتنمية الآجلة وترى الادارة نفسها امام مجاعة اللحم فتلجأ الى التقنين الجائر ، بعد اليسر الدعائي ـ بمعدل ٢٥٠ غراماً من اللحم اسبوعياً . . ـ (**)

وعلينا ان نضيف تحت عنوان : الدعاية السياسية ارقاماً اخرى ، انهكت عملية التنمية وشوشتها ، في الاقدام على زيادة اجور العمال ـ بنسبة ٢٠ ٪ خلال عامي ١٩٥٩ ـ ٦٠ ـ وزيادة ايام العمل السنوية ـ من ١٨٠ يوماً الى ٢٠٠ ـ ٢٤٠ يوماً ـ مما اوجد موقفاً تضخمياً مفاجئاً كان يجب ان يوازيه ـ اقتصادياً ـ زيادة انتاجية ملائمة .

ولا يهمل في هذا الباب ذكر

(*) كان من المقرر في خطة سكنية لعام ١٩٦٢ انشاء مئة الف بيت سكن من هذا الطراز .

(**) الارقام من تقرير الخبير (دومون) وكتابه : (كوبا اشتراكية وتنمية) .

(اكادمية العلوم) التي انشأها أحد الانصار المتحمسين، وعهد رئاستها الى نفسه.. فوظف فيها اكثر من ثلاثمائة اداري .. بينما لم يشرع باعداد اي جهاز علمي اوفني لها . كذلك يذكر اكتشاف كاسترو بالذات اثناء جولة له ان احد المعامل الصغيرة قدسجل في جدول العمل مئتي عامل ، بينما حاجته الفعلية لا تزيد عن ثلاثين .. الخ الخ ..

اما يحشر الناقد الاشتراكي مثل هذه النفقات والمرافق ، في باب الدعاية السياسية ، لا في باب الاصلاح الاجتماعي ولا التنمية الاقتصادية ، وهي نفقات عدا عن أنها تبهظ ميزان الدولة ، تؤخــــر خطة التنمية ـ اذا كان هناك خطة ـ واكثر من هذا ـ فان حصادها يرتد على المواطنين فيما بعد ، خيبة مريرة وعدم ثقة في القيادة. وقد يحدث ان تتراجع الادارة عن هذه (المنجزات الواجهية) فتقول (تجربة وخطأ) وهو قول معقول . وقد يحدث الا تتراجع تحت ضغط العامل السياسي فتقول (ان الثورة لا تتراجع الى الوراء).. وهو قول فيه قدر غير قليل من الغرور وكبرياء الفرسان الرومانطيقيين .

الغضب ـ ومثلما ان (الدعاية السياسية) لا يصح لها ان تتخطى حدودها من الشعارات والتوجيه الى المرافق الحساسة، والشؤون الاساسية لتجعل منها مجرد ادوات للاغراء والتغرير كذلك ، فان الغضب الوطني اذا تعدى حدود المقاومة وصلابة المواقف المشروعة ، الى الخلط بين التنظيم والحنق فانه لا يصبح اداة غير قومية وغير انسانية فحسب ، بل قبل هذا وذاك ، انه يبدو غير اقتصادي باقل التعابير العلمية .

ان للثورة الكوبيــة ان ترد الكيل كيلين في تحديها الولايات المتحدة، وقبولها التحدي معاً . وليس من يأخذ عليها تأميم مصافي البترول الامريكية عندما رفضت أن تكرر البترول الخام السوفييتي. وليس من يناقش الثورة في موقفها عندما الغت امريكا كوتا السكر الكوبي الذي تتمون به ، كتدبير انتقامي ، فعمدت الثورة الى الاستيلاء على ثمانمائة مليون دولار من الامــوال الامريكية الموظفة في كوبا ، كانتقام من انتقام . انها مواقف سياسية بحتة ، لا تعني سوى الاطراف في الخصومة

السياسية ؛ في جانب كوبا او في جانب الولايات .

لكن امتداد نزوة التأميم السريع والشامل الى المرافق الوطنية الصغيرة بعد الكبيرة، من مصنع الى فندق، ومن متجر الى دار سينما ، ومن كساء الى غذاء — هو ما أخذ على الثورة ، عندما خيل اليها أن كل (مالك) يجب أن يختبيء وراءه رأس المال الامريكي . والمأخذ على الثورة ، لم يكن بورجوازيا ليبراليا ، ليقال إنها خصومة ايديولوجية ، بل هو اشتراكي في المقام الاول ، قال به اصدقاء كوبا وثورتها، من عدة أطراف يسارية متطرفة ومعتدلة، على كل صعيد وطني ، واقتصادي وانساني .

يقول رونيه دومون ، الذي ائتمنه الرئيس كاسترو في دراسة ثورته، ونقدها، والتقرير عنها أن الاتحاد السوفييتي رأى انتاجه الصناعي ينهار بين اعوام ١٩١٨ – ١٩٢١ بنسبة ١٨٪ عما كان عليه عام ١٩١٣ قبل الثورة ، ليس بسبب الحرب الاهلية وحدها، بل بسبب تشميل التأميم وتسريعه وهروب الرجال التقنيين . وقد اعتبرت الصين بالتجربة السوفييتية ، فاستعملت ، في مرحلة الانطلاق، مصطلح الشركات الاقتصادية المختلطة ـ قطاع عام وخاص ـ . فاذا أتاح هذا المنطلق لبعض ألوف من الرأسماليين الوطنيين أن يستمروا خلال فترة من الزمن ١٩٤٩ – ١٩٥٦ ، في استثمار اموالهم وخبراتهم ، الى جانب الدولة وبحمايتها ، فان هذا لا يذكر أمام ماجني من فوائد في حفظ مستوى الانتاج الوطني وتنميته ايضاً . وكان بوسع كوبا أن تعتبر بالتجربتين الاشتراكيتين الكبيرتين ، لاسيما في تعاملها مع الممتلكات غير الامريكية ، من أوربية او وطنية ، وتحد من تأميم المرافق التي ليس بوسعها اتقان ادارتها. فذلك افضل لها اقتصاديا.

كذلك ينقل (دومون) عن زميلين له هما (هوغ ولوار) في كتابهما (التنمية الاقتصادية في الصين الشيوعية) قولهما ان القطاع الخاص في الصين حتى عام ١٩٥٢ يملك أكثر من ثلث الصناعة الحديثة ، وما يقرب من ثلثي التجارة ، بالاضافة الى مجموع الانتاج الزراعي .

وقد يكون من المفيد هنا ان نذكر

كما سبق أن اجملناه في جولات سابقة من ملامح الثورية الصينية ، أن الرئيس ماوتسه تونغ ، كان يكتب منذ عام ١٩٤٥ أن البورجوازية الصينية مثلما شاركت في النضال الوطني التحريري يجب أن تشارك في المراحل الاولى من التحويل الاشتراكي ، وان مشاركتها ضرورة وطنية واجتماعية ، ولا عبرة فيما حدث من عدم مشاركة البورجوازية الروسية في بناء الثورة ، إذ كما يقول ماو — ان ظروف الصين التاريخية ، عندما بدأت ثورتها ، تختلف كل الاختلاف عن ظروف الثورة السوفيتية عام ١٩١٧ .

ان الظرف التـــاريخي ، والمستوى الاجتماعي ، والطاقة الاقتصادية المادية ، في بلد ما ، يطبق الاشتراكيـة ، أصبحت وحـدها بمجموعها ، مقياس تجربتها ، وميزان حرارتها واعتـدالها ، ومصدر الأفكار والخطط التي تترجم ايديولوجيتها الى واقع اجتماعي انساني سليم .(*)

وأخيراً لابد ان نذكر بأن (دومون) لا يقتصر في تثبيطه التأميم السريع ، على المرافق الصناعية من وطنية واجنبية ، بل يـذهب الى أن الاستيلاء على الارض الزراعية ، والتسريح في الجماعية ، قـد أدى الى انخفاض الانتاج الزراعي ، انخفاضاً يدعو الى القلق ، برغم الحماس النادر الذي يدعم به العامل الزراعي ثورته الوطنية والاجتماعية ، وبرغم صدق رجال الثورة ، في موكب كاسترو .

ان (الغضب) ليس مستشاراً صادقاً ، مهما ازين بالحماس ، والفروسية . كذلك فالمواطن البريء ليس هو الذي يدفع ثمن الحقد على الظلم الخارجي .

السرعة — تحت عنوان السرعة ، تذكر أمورشي في نقد التشريك الكوبي ، وبدهي ان نقد المنطق الثوري الخاطيء ، لا يعني نقد الثورة ، وجوداً وكياناً . ولكن كم يجب ان يحذر الثوار من ان يصبح الخطأ ، عادة ملازمة ، لا يبررها سوى قولهم : الثورة لا يمكن ان تتراجع الى الوراء !!

(*) في جولات سابقة من (المعرفة) خلال عام ١٩٦٤ عرضنا الى تفاصيل هذا الرأي اثناء بحث الاشتراكية اليوغوسلافية ، مقارنة بتطبيقات الماركسية اللينينية في الاتحاد السوفييتي .

وفي الحق ان التراجع ، عندما ينكشف الخطأ ويصبح مشهوداً لا يعتبر حيلة استراتيجية ناجحة فحسب ، بل يدل بأقل دلالاته على ثقة القيادة بنفسها، وقدرتها على التقديم والتأخير ، بكل خطى واثقة حازمة عندما يحزب الأمر ، ويبرم القضاء .

وفي آخر القراءات عن التشريك الزراعي في كوبا ، ان حرص الثورة على تحويل الزراعة الخاصة ، لا سيما في انتاج السكر ، لا يقل عن حرص الثورة على تطبيق الجماعية في بعض المناطق رغبة في تعميم الآلة الحديثة ، وتيسير استعمالها .

بل قد عدلت الثورة عن كثير من مشاريع التمليك الجماعي ، عندما ذر لها قرن الخلاف الأهلي العنيف بين الفلاح التقليدي مالك الأرض الصغيرة الذي يحب أرضه ويتعشقها ، وبين العامل الزراعي ، الذي غدا في حمـــاية الثورة يطمع في امتيازات يطل منها على الفلاح وبشيء من الحقد والكره .

بدهي أن الجندي الاول في (جيش الثورة) الكوبي ، هو العامل الزراعي ، الذي وصفناه في جولة سابقة انه المواطن المحروم من ثمرة الشجرة التي يغرسهـا ويسقيها ويرعاها ويكاد يحرم حتى من الاستراحة في ظلها . ومعلوم ان الجندي العامل الذي انطلق من جبال (السييرا) هو الذي دخل الهافانا العاصمة ، وراء كاسترو . ولكن كاسترو هو الذي دمغ ثورته في قول له بأنهـا ليست لفئة ، أو طبقة ، أوجماعة أو منظمة . ولكن العامل الزراعي الذي رقي الى (تعاوني) أوالى (جماعي) لايحق له باسم أي اشتراكية أن يشمر بالخصومة نحو الفلاح (الفردي) الذي عرس الأرض وأحبها ، ولم يصبح مغرسه احتكاراً ، ولا حبه الأرض عداء لسيادة الدولة فوقهـــا . ان الكولخوز السوفييتي لم يستطع أن يهضم هذا الفلاح العريق ، حتى في أقسى أيام التطبيق الشيوعي الستاليني ، ولا استطاع (الكومون) الصيني أن يقتلعـــه أو حاول كما حاول الكولخوز الأول . بل قد رأينا — في بحث سابق — أن التنظيم السوفييتي قد أوسع الفلاح الفرد ، بقدر من الهكتارات حول بيته يزرعها ويثمرهـا ويبيعها لنفسه

وحاجته ، ترغيباً له في العمل الى جانب مزرعته ، في المنظمة التعاونية المجاورة . حتى لقد غدا من القضايا المسلم بها علمياً وتجريبياً في الدول الاشتراكية أن (التعاونية) تربية بالرضى والترغيب ، وان الجماعية اعداد أرقى للانسان العامل ، لا تأتي الا في المراحل المتطورة العليا ، حيث تتوافر العناصر التقنية توافراً يساعدها على ممارسة الادارة نفسها دون انفصام بين اداري وتقني انفصاماً طالما أدى الى مفارقات مربكة في مدى التطبيق الاشتراكي .

وعلى هذا ، فالخطوة التعاونية ، وبعدها الخطوة الجماعية ، هي أكثر من تنظيم ، واجراء إداري . إنها بلوغ العقلية العامة مستوى معينا من الادراك والوعي ، والخلق الاشتراكي . وبدهي أن هذا البلوغ ، لا يتم في عمليات سوق وحشد مصطنعة ، وخلال مراحل قصيرة من الزمن . وهنا يبدو التسريع في التشريك ، وكأنه حشر للآدميين ، حشر القطعان ، دون أي اعتبار انساني . واذ يدرك الحاشرون أن الزمام لا يمكن تسليمه لهذا المجموع البدائي ، فانهم يلجأون الى الجماعة او التعاونية الادارية ، التي هي منظمة توظيفية ، أكثر مما هي مؤسسة انتاجية اشتراكية صالحة . وعندما يخطر للدولة او لفئة الحكم أنها قادرة على ادارة المرافق العامة بيدها مباشرة ، مهما تكن يدها قادرة عالة ، لا تلبث أن ترى نفسها تحت سيطرة بيروقراطية عاتية ، ذات سلطات وامتيازات لا تقاوم . واذ يشتد خروشوف ذات يوم ، في حملته العنيفة على الامتيازات البيروقراطية التي تحكمت بالتخطيط السوفيتي وجمدته على تقاليد الأيام الأولى الشديدة ، كان يكرر أن مصالح لها قد ارتبطت بوضع الخطة السوفييتية ، وأن ثورة الحزب ، قد امتصها الجهاز الاداري الضخم ، الممتد افقياً وعمودياً امتداداً حجب وجه المستقبل ، ومدى الرؤية الثورية بالذات . ولقد قيل عن حق إن محاولات خروشوف فك الحزب الثوري عن السيادة البيروقراطية ، بعملية تمزيق مؤلمة ؛ قد اثارت عليه عداء المصالح التي اضر بها هذا التمزيق ، فكانت وراء عوامل سقوطه .

فالتسريع في تطبيق الاشتراكية

طموح الأقوام المتخلفة الى التحرر من العوز والانحطاط ، والتخلص خاصة من مركب النقص ازاء الغربي المتقدم ، وهو مركب في أساس الكثير من الخصومات العالمية ، عندما يصطدم بمركب الغرور ، واحيانا ، مركب الجنون في اعماق اصحاب الاستعمار العتيق .

ولكن تقدير هذا الطموح الانساني المشروع الذي يميز الحركات القومية في النصف الثاني من القرن العشرين ، لا يسقط من الحساب ، اخطاء مهلكة وخسارات قاصمة ، تجر ذيولها على المواطنين الأبرياء ، الذين قد لا ينظر اليهم النظام ، كبشر ، بل كقطع صغيرة في عجلة انجاح النظام ، عندما يدفع عجلته نحو الصعود دفعاً حماسياً متهوراً .

ان أي سرعة في أي مجتمع ، يجب ألا تنفصل عن احتمال تقبلها وتمثلها والجري معها ، وعلى الأخص في عصر لا تمتنع فيه اسباب السرعة عن بلوغ أي مجتمع شديد البطء قمي الحركة. والتمثل هنا ، عملية جدلية ، قوامها التكيف مع الحدث الطارىء وتكييفه مع الحاجة والطاقة في وقت واحد معاً. أما التكيف فانساني ، لأنه يدل على تفتح الذهنية ، بقبول الحدث، فهو شارة حضارية . وأما التكييف ، فتبدو فيه القدرة الكاملة على الفعل ، بعد الانفعال، وهو شارة حيوية تشير الى سلامة العضوية الاجتماعية ، وفعاليتها. أما السرعة التي تنشد بمظاهرها الخارجية ، وكأنها مفروضة فرضاً ، على وسط يتنابذ معها، فانها لا تلبث أن تنزلق على رؤوس المنحدرات الجرداء ، وتهدر عبثاً .

وهنا نرانا مضطرين مرة اخرى ، الى الاستمرار في بحث الكاسترية وتطوراتها، بجولة ثالثة . وسيكون موضوع الحلقة الثالثة ؛ عدم وضوح الرؤية الايدلوجية امام الثوار الكوبيين ، وانعكاس ذلك على تعثر التطبيق الاشتراكي .

فهرس عام

الصفحة